مجلد ٨ — عدد ٢٩

فبراير ١٩٤٨

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة


اناقة
سوپرستيل
Superstyl
باركر
القلم الذى
لا يبارى
يباع فى المحلات الكبرى
الوكلاء : الكاتب المصرى ش.م.م

سلامه موسى

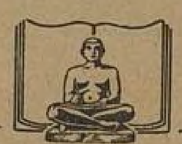
تربية سلامة موسى

العالم طيب . . . إنى أبارك على الحياة .
رامبو

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياة تربية
وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من
القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين

٢٩٢ صفحة ، الثمن **٢٥** قرشاً

ظهر حديثاً



البريد ٢٠ مليما

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

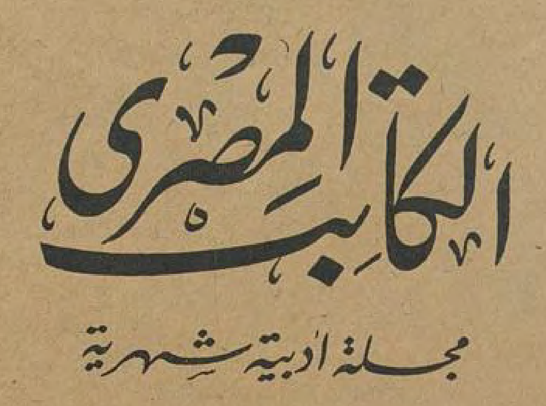
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٨



القاهرة ١٩٤٨

الكاتب المصرى

ربيع الأول ١٣٦٧ — فبراير ١٩٤٨

السنة الثالثة — مجلد ٨ — عدد ٢٩

المعذبون فى الأرض

صفاء

كان ذلك ممكناً فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الأمور ، وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء ، إلى نور النعيم والرخاء ، فلست أحب أن أخوض ، ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفاً أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، وأشعل سيجارته فى شئ من أنفة ، ونهض فى شئ من كبرياء ، ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيهما أحداً . وظلت حنينة صامتة مبهوتة ، ثم كفكفت دموعاً كانت تريد أن تسيل ، ثم حزمت أمرها وقدرت فى نفسها أنها ستراجع ابنها فى هذا الحديث ، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شئ .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغى أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت إلى القراء هذه الجملة الغامضة التى لا يذكر فيها الفاعل ، ولا المبتدأ إلا متأخراً ، لأثير فى نفوسهم هذه الغرابة التى تدعو إلى الاستطلاع . ثم ذكرت بعد هذه الجملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد حاجة القراء إلى هذا الاستطلاع . ثم فرقت بين الأم وابنها على هذا النحو الغريب المريب ؛ فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يتصل وتحرص الأم على أن يتصل . وهذا الحديث يمس الماضى المنكر الذى خرجت منه الأسرة ، ويريد الفتى أن تنساه ، وتريد الأم أن تفى له وتحرص عليه .

وآية ذلك أنها تكفكف الدمع ، وتقدر فى نفسها أنها ستعود إلى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، أو حين يسفر الصباح . وأكبر الظن أنها تؤثر أن تتحدث إلى ابنها فى أول النهار حين يجلس إلى فطوره هادئ النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من أعمال يومه الجديدة شيئا ، ولم يتح له بعد أن يذكر من أعمال أمسه القديمة شيئا . ذلك خير من التحدث إليه فى المساء ؛ فهى قلما تخلو إليه فى المساء لأنه يروح إلى داره عجلا ، فيصيب شيئاً من طعام مع الأسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عجلا ليلقى أترابه وأصحابه ، فيسمر معهم شطراً من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحه على الأسرة كلها فأغرقها فى سبات عميق .

ومن حق القارئ بعد هذا كله أن يعرف حنينة ونصيفا ، وأسرة حنينة ونصيف ، وهذا الماضى القاتم الذى يكره الفتى أن يستبقى منه شيئاً ، وتحرص الأم على أن تستبقى منه بعض الأشياء .

ولست أكره أن أؤدى للقارئ حقه هذا إن قبل أن ينتقل معى فى الزمان والمكان جميعا . وما أطلب إليه أن ينتقل معى إلى زمان مسرف فى القدم ، أو إلى مكان مسرف فى البعد ، وإنما أريد أن نعود إلى أول هذا القرن ، وأن نترك القاهرة إلى مدينة من مدن الأقاليم فى مصر الوسطى . فقد ينبغى لكل قصة أن يكون لأحداثها زمان ومكان يختارهما الكاتب ، أو تختارهما الأحداث نفسها . والشئ الذى أؤكده للقارئ هو أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار أشخاص هذه القصة وأحداثها . وإنما اختارت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص، وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجرت من الأحداث، وأرادت أن يكون هذا فى آخر القرن الماضى . وأول هذا القرن ، وأن أشهد القصة ، وأتأثر بها أشد التأثر وأعمقه ، وأن أدخرها فى نفسى لشئ لم أكن أعرفه حين شهدت القصة وادخرتها ، وقد أخذت أعرفه الآن حين بدأت أملى هذا الحديث . فأنا إنما شهدت القصة وادخرتها لأتحدث بها إلى قراء هذه المجلة ، بعد أن مضى على أحداثها ما يقرب من نصف قرن .

بل أكاد أقطع بأنى لم أختر ، ولم أكن أستطيع أن أختار أن أتخذ هذه القصة موضوعاً لهذا الحديث ، وإنما هى التى اختارتنى لتصل من طريقى إلى

القراء . ولست أستطيع أن أبين لذلك سبباً ؛ لأنى لا أستطيع ، والقارئ نفسه لا يستطيع ، أن أسأل القصة عن السبب الذى من أجله اختارت أن تذاع فى هذه الأيام ، والذى من أجله اختارت أن تذاع من طريقى أنا ، ومن طريق هذه المجلة التى أكتب فيها .

وإنما أرى أنى قد فرغت أياماً وأياما ، لموضوع من موضوعات الأدب الفرنسى ، وجعلت أدرسه وأستقصيه لأتخذه موضوعاً لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك أكثر ما كنت أريد ، إن لم أكن بلغت كل ما كنت أريد ، وجلست إلى صاحبى لأملى عليه ما قدرت إملاءه . ولكن صاحبى لا يسمع منى حديثا عن شئ يتصل بالأدب الفرنسى من قريب أو بعيد ، وإنما يسمع منى بدء هذا الحديث ويهم أن يراجعنى ، كما همت حينئذ أن تراجع نصيفا . ولكنى أعرض عنه بوجهى ، وأنأى عنه بجانبى ، وأشعل سيجارتى فى شئ من حزم ، وأمضى فى الاملاء فيمضى هو فى الكتابة ، ويظهر أمامى أشخاص هذه القصة مزدحمين أشد الازدحام ، ملحين أعظم الالحاح ، كلهم يريد أن يسبق إلى مكانه من هذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموه ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا به ؛ فهم يريدون أن يستيقظوا ، وهم يريدون أن أذكرهم أنا وأن يذكرهم القراء ، وأن يستردوا بذلك شيئاً من حياة ، وإن كانت حياتهم تلك الأولى لأهون وأشقى من أن يفكر فيها أصحابها ، ومن أن يحرصوا على أن يستردوا منها نصيباً قليلا أو كثيراً .

وهؤلاء الأشخاص كثيرون بعض الكثرة ؛ فلابد من أن أصطنع شيئاً من النظام الحازم لأردّهم إلى بعض القصد ، ولأظهرهم فى أماكنهم المقسومة لهم من هذا الحديث . وأماكنهم هذه لم أقسمها أنا لهم ، وإنما قسمتها لهم حياتهم الأولى نفسها . فهم يؤلفون أسرتين قبطيتين من أسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين ، قد أنشأ الجوار بينهما ما ينشئ عادة بين الجيران من المودة والإلف ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم فى غير تكلف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك فى لذات الحياة وآلامها ، وفى مسرات الحياة ومساءاتها ، وفى هذه الأحداث التى تحدث ، والخطوب التى تلم ، والنوائب التى تنوب .

وكانت أسرة المقدس ميخائيل تادرس تعيش فى دار ليست بالمسرفة فى السعة ، وليست بالمسرفة فى الضيق ، وإنما هى دار متوسطة ، تأتلف من حجرات

قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الضر، ولا يظهر عليها ما يلفت إليها أحداً . كانت داراً متواضعة و إن لم تكن حقيرة . وكانت تقوم فى أول الشاعر مما يلى القناة على منحدر يسير يكلف الساعى إليها قليلا من الجهد ، فينحدر إليها إن جاء من هذه الناحية ، ويصعد إليها إن جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى إليها سعياً هيناً على كل حال . وكان المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ، قد اتخذ له حانوتاً يبعد عن داره بعض البعد ، يبيع فيه سقط المتاع من هذا الخرز الذى يتخذ الفقراء منه عقوداً يتحلى بها النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون التى يتخذ النساء منه أساور أو دوائر مفرغة يدخلن فيها سواعدهن ، أو يدخلنها فى سواعدهن ، ويبهرن أنفسهن كما يبهرن الرجال بألوانها الزاهية ورنينها الحلو ، وشيئا من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن وزينتهن حين يتبرجن .

وكانت لحانوته شهرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التى كان النساء يدرنها حول رءوسهن ، فيفتن بها الرجال ويسحرن بها عيون الشباب . وكان المقدس ميخائيل يفيد من تجارته هذه اليسيرة ما يتيح له أن يكفل لأهله حياة ، إن لم تكن رخية كل الرخاء ، فلم تكن ضيقة كل الضيق ؛ وإنما كانت شيئاً بين ذلك يسمح لهذه الأسرة أن ترى نفسها من الطبقة المتوسطة ، وأن تطمح إلى ما تطمح إليه هذه الطبقة من الآمال التى كانت فى ذلك الوقت متواضعة أشد التواضع .

ولم تكن هذه الأسرة ضخمة ، ولا كثيرة العدد ، و إنما كانت تأتلف من ميخائيل وزوجه حنينة ، وابنهما نصيف وابنتهما صفاء . وواضح أن هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا النحو الفصيح ، وإنما كان ينطق به مقصور الألف لا ممدودها . وكان النطق به يثير فى نفوس السامعين أنه مستعار من تلك الغدائر المعدنية التى كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويسمع لها حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الآذان .

وقد طمع ميخائيل فى أن يرفع ابنه عن المنزلة التى كتبت له هو فى الحياة ، فلم ينشئه فى التجارة ليخلفه على الحانوت حين تقعد به السن ، وإنما أرسله إلى المدرسة المدنية ، بعد أن اختلف إلى الكتاب القبطى عاما وبعض عام ، وأضمر فيما بينه وبين نفسه ألا يكتفى بالمدرسة الابتدائية ، وأن يرسله إذا

استطاع إلى القاهرة ليتعلم فى بعض مدارسها ، وليكون موظفاً من موظفى الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقاً جديدة غير الطريق التى سلكها هو وسلكها أبوه من قبله .

وطمعت حنينة فى أن ترفع ابنتها عن المنزلة التى قسمت لها هى فى الحياة ، فأرسلتها إلى « المعلمة » كما كانت الأمهات فى الطبقة المتوسطة يرسلن إليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنوناً من التطريز والتدبيج ، والتأنق فى التفصيل وصناعة الأزياء .

وقد اختلف الصبى إلى المدرسة ، واختلفت الصبية إلى المعلمة ، ورضيت الأسرة عن نفسها وعن تربيتها لابنيها أعواما . وظفر الصبى بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، وأخذت الصبية من فنون المعلمة ما استطاعت أن تأخذ . ونظرت الأسرة فاذا هى مضطرة أن ترسل الصبى إلى القاهرة ، وإلى أن تمسك الصبية فى الدار . والله يعلم ما تكلف المقدس ميخائيل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى إليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد . وقد ألحق الفتى بمدرسة ثانوية ، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم عاماً وعاماً وعاماً دون أن يصيب فيها نجحاً ، وإنما هى السنة الأولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة إلى فصله لكثرة ما أخفق ، فيلحق بالمدرسة القبطية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تتلقى من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المخفقين ، أو من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، أو من تقصر أيدى آبائهم عن أجور التعليم فى مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون إلا أن يتعلم أبناؤهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم أن يجدوا لأنفسهم مكاناً فى مدرسة من المدارس العالية ، أو عملا فى ديوان من الدواوين .

وقد أقام نصيف فى المدرسة الحرة عاماً وعاما ، ولكنه لم يصب فيها نجحاً كما لم يصب فى المدرسة الحكومية نجحا . وثقلت النفقة على أبيه ، وثقل الحزن على أمه ، وضاق الفتى بأبيه وأمه ونفسه أيضاً ، وإذا هو يقترح على أبويه ذات عام أن يتحول عن هذا التعليم الثانوى الذى لم يخلق له ، إلى تعليم آخر يسير قريب ، لا يحتاج إلى كثير من ثقافة ، ولا إلى إلحاح فى عمل ، ولا إلى فضل من جهد ، ولا إلى طويل من وقت ، وإنما هو عام أو بعض عام ، ثم يتقدم الطالب إلى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصباً من مناصب

الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف . وما هي إلا أن ينفق فيها عاماً أو أقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب فيه ما أراد من نجح ، ويعود إلى أهله ومعه الدبلوم قد لفّه لفّاً أنيقاً ، ووضعه فى حرز أنيق اتخذ من الصفيح ، وجعل الأب ينظر إلى الدبلوم يحاول أن يقرأ ما فيه ، وجعلت الأم تنظر إلى الدبلوم تعجب بزينته . واختصم الأبوان بعض الاختصام أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ! أتدسها الأم بين ثيابها ، أم يخفيها الأب فى درج من أدراج مكتبه القديم . ولكن المهم هو أن المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه ، فأنفق أكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة أكثر مما كانت سنه تستطيع أن تحتمل ، وباع فى سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحلى المتواضع ، واضطر الأسرة إلى شئ من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذى لا يطاق ، لولا شئ من فسحة الأمل . ولم يدرك الفتى ما أدرك من نجح حتى كان المقدس الشيخ مضطرًّا إلى أن يقعد فى داره ، وينتظر الرزق من هذا المرتب الضئيل ، الذى كانت الدولة تجريه حينئذ على الموظفين فى البرق أول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الدولة بخيلة حقا فى تلك الأيام . فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة والتمرين ، ويؤجر فى أثناء ذلك ثلاثة جنيهات فى الشهر ، لا تحسب له جملة ، وإنما تحسب له مياومة أثناء التمرين عشرة قروش فى اليوم لا تزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حرًّا فى اختيار مكتب البرق الذى يعمل فيه . ومتى كان عمال الدولة وموظفيها أحراراً فى اختيار المكاتب التى يعملون فيها ! إنما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضى النظام أن يرسلوا . فأرسل الفتى إلى أقصى الصعيد ، وأقامت أسرته فى أدناه . وجعل الفتى يقبض أجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه إلى أسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت أسرته أن الآمال لا تصدق أصحابها دائما ، وإنما تكذبهم فى كثير من الأحيان . فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصباً من مناصب الدولة ، وأصبح فرداً ممتازاً من هذه الطبقة الممتازة طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيراً بائساً محتاجا ، وما زالت أسرته متوسطة ترد إلى الفقر يوما بعد يوم ، وتدفع إلى الضيق عاما بعد عام . والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة . والامتياز

يكلف أصحابه كثيراً من المال . فلابد من أن يعيش الفتى بين أترابه عيشة ملائمة ، ومن أن يتخذ من الزينة ما يلائم طبقته ، ومن أن يحيا حياة لا ينظر إليها أترابه فى شئ من الاستخفاف به أو الاشفاق عليه . وكان هذا كله يرهق الفتى من أمره عسراً ، وربما اضطره بين حين وحين إلى ألا يرسل إلى أبويه ما تعوّد أن يرسل إليهما من النقد ، أو أن يرسله إليهم منقوصا. فكان هذا يحفظ الأسرة ويغيظها ويضنيها . فلم تكن حاجتها إلى الحياة الملائمة بأقل من حاجة الفتى . والفتى وحيد ، وهى أسرة مؤلفة من أشخاص ثلاثة ، فحقها أن يرسل إليها أكثر المرتب ، وأن يكتفى الفتى بأقله . فكيف إذا لم يرسل إليها إلا أقله ! وكيف إذا لم يرسل إليها شيئا ! وهى بعد ذلك قد أفنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت فى سبيل هذا الفتى . فانظر إلى الأبناء كيف يجحدون حقوق الآباء . وانظر إلى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ . وانظر إلى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرون أنفسهم بالخير ويختصونها باللذات ، ويتركون آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم يشقون بالنقص فى الأموال والثمرات ، بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك أنفقت الأسرة بعد نجح ابنها فى الامتحان وظفره بالمنصب أعواماً ذاقت فيها من البؤس المادى والمعنوى ، ما لم تذقه حين كان الفتى صبيا يختلف إلى المدرسة الابتدائية أو غلاما يختلف إلى المدارس فى القاهرة .

أما الأسرة الأخرى فأسرة المعلم يونان.كان زعيمها كاتباً متواضعاً فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً على دفاتره أو محاسباً للناظر أو مراقباً للمعاون ، ويعود إلى أهله آخر النهار راضياً عن نفسه ولكنه متعب مكدود ؛ فلا يكاد يصيب معهم شيئاً من طعام ويسمر مع جاره شيئاً من سمر ، حتى يأوى إلى مضجعه وقد بلغ الاعياء به أقصاه . ثم لا يكاد الصبح يتنفس حتى يراه فى الطريق العامة غادياً على عمله فى الدائرة أو فى الحقول . وكان الأجر الذى يصيبه من هذا العناء قليلا ضئيلا ، لا يكاد يقيم الأود لأسرة تأتلف من ثلاثة أشخاص ، هم المعلم يونان ، وزوجه مرجانة ، وابنهما عبد السيد .

وكان المعلم يونان رجلا متواضعاً ، لا يرفع نفسه عن طبقته ، ولا يحاول أن يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وإنما حاول أن يعلم ابنه مهنته هو ، ليكون بعده كاتبا فى الدائرة كما كان هو كاتبا فى الدائرة وكما كان أبوه من قبله كاتبا

فيها أيضاً . وكان أقصى همه أن يحسن الصبى الأخذ عنه والاقتداء به ، حتى إذا أدرك أول الشباب استطاع أن يعينه على عمله ، وأن يلتفت إليه المأمور لعله أن يرضى عنه ويعطف عليه ، فيأجره قرشين أو قروشاً فى اليوم تعين الأسرة على احتمال أعباء الحياة . ولكن الصبى لم يكن ذكىّ القلب ، ولا محبا للعمل ، وإنما كان كسلا خامداً يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فان لم تسنح له آثر حياة هادئة هى إلى الذهول أقرب منها إلى أى شىء آخر . وكان ذلك يغيظ أباه ويُحفظه ويدفعه إلى أن يقسو عليه أحيانا . ولكنه كان وحيد أبويه ، فكان المعلم لا يعنف به إلا ليرق له ، ولا يشق عليه إلا ليرفق به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض بأعبائه ، والفتى يتقدم فى العلم بمهنة أبيه متباطئاً متثاقلا . حتى إذا اضطر الشيخ إلى القعود فى داره كان الفتى أجهل وأكسل من أن يقوم مقامه ، فلم تستبقه الدائرة إلا رعاية لحق أبيه ورفقاً بأسرته ، ولم تمنحه من أجل ذلك إلا نصف ما كانت تمنح أباه من الأجر .

واضطرت مرجانة إلى أن تبرح الدار ، وتسعى بعض السعى على شيخها القاعد لترزقه وعلى ابنها الخامد لتعينه ؛ فجعلت تسعى إلى القرى القريبة تشترى من بعض أهلها ما يريدون أن يبيعوا من فضل جبنهم وزبدهم ، تحمل ذلك فى قصعة ضخمة ، وتغطيه بشىء من العشب الأخضر الرطب يحفظ عليه رطوبته ويجذب إليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما يتيح لها شيئاً من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان إليه .

وقد سعت الأسرتان المتجاورتان فى طريق واحدة إلى الضيق ، ثم إلى الضيق الشديد ، ثم إلى الاعدام والحرمان ؛ فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعدان للبطالة والحديث . وجعلت مرجانة وحنينة تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على أثقال الحياة ، وتتجاذبان أطراف الحديث كما يقال . وجعلت صفاء (بألفها الممدودة أو المقصورة) تلقى عبد السيد حين يغدو إلى عمله فى الدائرة ، وحين يروح من عمله إلى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هذه الأحاديث الفارغة ، التى لا تؤدى شيئاً ولا تدل على شىء ، وإنما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم .

ولكن الشباب ماكر ماهر ، ينتهز الفرص ، ويختلس الوسائل اختلاساً ؛ فهو يشيع فى هذه الأحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريد أن يملأها ، فيعجزه ذلك فى أول الأمر ، ولكنه لا يعرف العجز ولا اليأس ولا الاخفاق ، وإنما هو ملح دءوب ، يخطئه النجح هذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة ، وهو يسلك إلى غايته طرقاً مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها إلا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان الغارون من تمحيص الحياة وتعلم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فاذا الشباب يجرى فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من أذن عبد السيد وقلبه موقعاً غير مألوف . وحركة يأتى بها عبد السيد فاذا الشباب يجرى فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعا غير مألوف . وإذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها . وإذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها . وإذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلقاه ، ومشغول بصاحبه حين ينأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر النهار . وإذا اللقاء الذى كان يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئا تدبر له الخطط وتبتغى إليه الوسائل . وإذا الحديث الذى كان يكون بينهما فارغاً ليس وراءه شئ ، قد جعل يصبح مليئا وراءه كثير من الأشياء . وإذا الأسرتان تلحظان أن لهذين الفتيين شأنا . فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، ثم تبتسم قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين . ثم يتحدث المقدس ميخائيل إلى حنينة ، ويتحدث المعلم يونان إلى مرجانة . ولا تقول إحدى الأسرتين للأخرى شيئا ، وإنما تنتظر كلتاهما أن تكون الأخرى هى التى تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يثور فى نفوس الشيوخ من خواطر ولا بما يضطرب فى عقولهم من تفكير ، وإنما هو ماض لغايته لا ينظر إلى وراء ، وإنما ينظر إلى أمام ، وإلى أمام دائما ، حتى لا يلفت الأسرتين وحدهما إلى نفسه وإلى ما أحدث من صلات ، وإنما يلفت أسراً أخرى من الجيران . وهنالك يتنبه الشيوخ فتتحدث مرجانة إلى حنينة ، ويتحدث المعلم إلى المقدس ، وتصبح الخطبة شيئا مقرراً متفقا عليه .

ونصيف مقيم فى غربته تتقاذفه المدن فى أعلى الأرض وفى أسفلها ، وقد

ثبِّت فى منصبه فلم يقبض أجره مياومة ، وإنما أصبح موظفا بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه حتى بلغ أربعة جنيهات ونصف جنيه يخصم منها المعاش آخر الشهر ، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال ، إلا أنه لم يزد وحده ، وإنما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفاً مثبتاً . زاد مرتب الفتى ، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد ، وإنما ظل كما كان : يصل إليهما أحياناً كاملا ، وأحياناً منقوصاً ، ويتخلف عنهما بين حين وحين .

ويقبل الفتى ذات يوم فى إجازة من إجازات الموظفين ليرى أسرته ، فترى المدينة منه شابا رشيقاً أنيقاً لم تعرفه من قبل ، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين أبناء الزراع والتجار . ويرتفع رأس المقدس حين يرى إعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به ، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع أو ذاك ، وبهذه الحارة أو تلك . ويمتلىء الفتى بنفسه تيهاً وإعجاباً حين يرى تهافت الناس عليه وسعيهم إليه ، يحييه بعضهم من قريب ، ويحييه بعضهم من بعيد ، ويعجب به أولئك وهؤلاء . ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئاً من الكبرياء ؛ فينكره بعض الناس فى قلوبهم ، وينكره بعض الناس بألسنتهم . ويشفق الأب والأم على ابنهما من حسد الحاسدين ، ويتمنى الأب والأم أن يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به ولينعما بمحضره ، ويتمنيان مع ذلك أن يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد الحاسدين . ويعود الفتى بعد أيام إلى عمله ، وقد رضى عن نفسه ، ورضى عنه أبواه ، ورضى عنه أكثر أهل المدينة ، وضاق به أقلهم . وكأنما ألم الفتى بهذه المدينة إلمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه للمرة الأخيرة . فما يكاد الفتى يسافر وتمضى على سفره أيام حتى يحس المقدس من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت إليه . ولكن الضعف يزداد ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر إلى لزوم داره ، ثم إلى لزوم فراشه ، ثم إلى فراق هذه الدنيا . ويعود الفتى مرة أخرى إلى المدينة حزيناً كئيبا ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيداه إلا رشاقة وأناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلاباً لحبهم له وعطفهم عليه ؛ فقد ذهبا بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، ورداه إلى شئ من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شئ فقد أُلقى فى روع الفتى أنه أصبح بعد موت أبيه

رجلا يحتمل التبعات ، وينهض بأعباء الأسرة . وقد واجه التبعات والاعباء مواجهة حسنة ، فشمل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره فى السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التى كان يعمل فيها ، إلى مدينته هذه التى تقيم فيها أسرته ، وإذا هو موظف فى مكتب البرق بالمدينة يقيم فى أسرته ويرعاها ، ويقوم منها مقام أبيه .

وتمضى أمور الأسرة كما تستطيع ، أو على خير ما تستطيع ؛ فقد أقام الفتى فى داره وعاش مع أهله ، ودبر أمره خيرا مما كان يدبره أثناء الغربة ، فاستقامت له ولأهله حياة لم تكن تستقيم لهم من قبل . وكم تمنت حنينة — لو كان ينفع التمنى — أن يعود المقدس فيشارك فى هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد برؤية ابنه غاديا على العمل ، أو رائحاً إلى الدار فى زيه ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذى يملأ القلوب روعة ورضا .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه فى مكتب البرق ، وبزملاء آخرين يعملون فى المحطة ، وبجماعات أخرى من الموظفين يعملون فى المحكمة أو فى مكتب البريد . وإذا هو يرق بأسرته حقا إلى هذه الطبقة الممتازة التى طالما ود أبوه لو يرقى بها إليها . وإذا هو ممتاز بين هؤلاء الموظفين الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل فى قهوة ذلك الرومى التى كانت تقوم على شاطئ القناة قريبا من المحطة ، والتى كان الموظفون ، ولا سيما الشباب منهم ، يسعون إليها حين يدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين مرحين لاعبين مداعبين حتى يتقدم الليل .

وفى ذات صباح يجلس الفتى إلى فطوره وأمه إلى جانبه تنظر إليه وتعجب به ، وأخته صفاء قائمة بين يديه تخدمه تذهب وتجىء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الاناء ، وإذا الفتى يحتال حتى يبعد أخته ، ويخلو إلى أمه فيلقى إليها فى همس سريع أو سرعة هامسة ، أن زميله فلانا يخطب إليه أخته ، وأنه سعيد بهذه الخطبة يرى فيها مزيداً من رقى وفضلا من رخاء . فهذا الزميل فتى كريم من أسرة كريمة ، قد فقد أبويه ، فهو إذن سيد نفسه . وهو يقبض فى آخر الشهر مرتبا كالذى يقبضه هو . وهو يريد أن يكون له أخاً . وإذا قبلت خطبته وتم زواجه فسيعيش فى الدار ، وسيكون

لأمه ابنا ثانيا ، وسيجتمع المرتبان ، وستغرق الأسرة فى نعيم ورخاء لم تكن لترجوهما أو تفكر فيهما . وتسمع الأم هذا الحديث فيقع من قلبها موقعا غريبا فيه كثير من الاغراء ، ولكنه يثير كثيرا من الحزن والخوف والأسى . فابنتها مخطوبة أو كالمخطوبة لجارها الفتى . قد ذهب زوجها إلى الدار الآخرة وهو مقر لهذه الخطبة راض عنها مغتبط بها ، وفى نفس ابنتها شئ من هذا الفتى الجار ، ليس فى ذلك شك . ثم تثوب الشيخة إلى نفسها بعد أن شكت غير طويل ، وتقول لابنها فى صوت هادئ رزين : وددت لو كان ذلك يا بنى ، ولكن أختك مخطوبة أو كالمخطوبة ، قد أحبها جارنا عبد السيد وكأنها تحبه ، وقد تحدثنا فى خطبتهما وقبلها أبوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث أمه حتى تأخذه الكبرياء ، ويعاوده الاعتداد بالنفس ، ويقول لأمه فى صوت المغضب الذى كادت تخرجه الموجدة عن طوره : «كان هذا فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فما أحب أن أخوض ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » ثم يشعل سيجارته فى أنفة وينهض فى كبرياء متثاقلة وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فيهما أحدا .

وقد صبرت حنينة نفسها على هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه إلى ابنتها ، وأزمعت أن تراجع فيه ابنها ، وراجعته مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشىء ولم تلق منه إلا ازورارا وإعراضا ، حتى أنذرها ذات يوم بأنها إن لم تذعن له فسينتقل من هذه المدينة كما انتقل إليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة المشردة ، وسيتركها تعيش مع ابنتها فى ظل هذا الفتى الغافل الذى لا غناء فيه ، وسيرسل إليها ما يستطيع أن يرسل إليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل فى حياة أبيه .

ولم تتعود الأمهات فى مثل هذه البيئة مقاومة أبنائهن ، وإنما تعودن الاذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون . والفتى يقوم مقام أبيه ، فهو سيد الأسرة وصاحب الأمر والنهى فيها ، لا ينبغى أن يلقى منها مقاومة ولا اعتراضا . فما أيسر ما تذعن حنينة لابنها ! وما أسرع ماتحاول أن تحمل صفاء على الاذعان ! وصفاء ليست فى حاجة إلى أن تحمل على الاذعان ، فهى مذعنة بطبعها لما يريد أخوها ولما تحب أمها . ومتى استطاعت الفتيات أن يخالفن عن أمر الاخوة والأمهات !

هى إذن مذعنة الارادة ، ولكنها ثائرة القلب . وقد بذلت حنينة جهداً غير قليل لتغرى ابنتها بمثل ما أغراها به ابنها من الرخاء والنعيم ، وارتفاع المنزلة ، وامتياز الطبقة ، وبما سيتاح لها من زينة وترف لم تكن لتظفر بهما لو اقترنت إلى هذا الفتى المتواضع الفقير الذى لا يكسب قوته إلا بالجهد والمشقة ، وسعى أمه لتعينه على تحصيل ما تحتاج الأسرة إليه . وكانت صفاء تسمع لهذه الأحاديث ، فتذعن إرادتها ويثور قلبها ، وتحاول أن تظهر الرضا فلا تجد إلى إظهاره سبيلا .

ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنينة إلى دار مرجانة ثم إلى غيرها من الدور ، ويصبح حديث أهل الشارع ، ثم حديث من يعرف الأسرة من الناس . فأما مرجانة فتسمع ولا تقول شيئاً ، وأما المعلم يونان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على أن يقول : وأين يكون ابننا من هذا الفتى ! وابننا كاتب لا يكاد يكسب قوته وهذا الفتى موظف ممتاز ! وأما الناس فأقلهم يغبط صفاء ، وأكثرهم يحسدها . وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف الجريمة ، ومرة أخرى بقتل نفسه ، ثم يُرَدُّ إلى هدوء منكر من ورائه شر عظيم .

فهو يغدو ويروح بين أهله وعمله قد انطوى على نفسه ، وانطوت نفسه على ما فيها ؛ فهو لا يتحدث إلى أحد فى هذه الخطبة المعلنة ، وفى هذا الزواج المنتظر ، ولا يحب أن يتحدث إليه أحد فيهما . وإذا تحدث الناس إليه فى شيء من ذلك أعرض عن الحديث ولم يلق إليه بالا ، كأنه غريب عن هذه البيئة التى يعيش فيها ، لا يعنيه شيء مما يفعل الناس حوله أو يقولون . وقد كانت مرجانة تهيئ نفسها لتفيض على ابنها شيئا من عطف ، وفضلا من حنان تريد أن تعزيه عن محنته ، وتواسيه فى هذه الملمة التى نزلت به فبغضت إليه الحياة ، وألقت بينه وبين الأمل حجبا صفاقاً وأستارا كثافا . ولكنها لم تر من ابنها حزنا ، ولم تسمع منه شكاة ، وحاولت أن تنفذ إلى ذات نفسه ، فلم تبلغ مما حاولت شيئا ، وظنت آخر الأمر أنها أكبرت من هذا الأمر صغيرا ، وعظمت منه حقيراً .

وأسرفت فى حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يحب ويسعد بالحب ، وأن هذه الخطبة قد ردته من الكآبة والحزن واليأس إلى ما لا يطاق ، ولكنها تنظر فترى ابنها ساهياً لاهياً ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشئ ، ولا يظهر

عليه ما يدل على أنه حزين أو يائس أو كئيب . فقد كان الفتى عابثاً فى حبه إذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك فى أن مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها ولهوه وغفلته ، وإنما آذاها ذلك فى نفسها ، وأضاف إلى حزنها القديم حزناً جديداً ؛ وإلى ما ألفت من خيبة الأمل فى فتاها الذى لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديدة فى فتاها الذى لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به أسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى . وهى ترد عطفها وحنانها ورحمتها وإشفاقها إلى نفسها البائسة الكئيبة التى كانت تريد أن تجد شيئا من الروح فى إظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والاشفاق . ولست أدرى بأى الأمرين كانت مرجانة أشد تأذياً : بخيبة أملها المجددة فى ابنها الوحيد ، أم بما اضطرت إليه من كبت عواطفها ورد نفسها إلى الاجداب بعد أن كادت تخصب ، وإلى الفقر بعد أن كادت تغنى ، وإلى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شئ أدفع لنفوس الأمهات إلى اليأس القاتل من هذا الحرمان التى ترد إليه رداً وتكره عليه إكراها . فما نفس الأم إذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للألم ! وما نفس الأم إذا لم تجد الرضا والغبطة والاعجاب حين يأتى ابنها بما يدعو إلى الرضا والغبطة والاعجاب ! وهذه مرجانة قد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ وقت طويل ، وهى ترى جارتها حنينة ترضى عن ابنها نصيف كل الرضا وتعجب به كل الاعجاب ، ويزيد رضاها وإعجابها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويثنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون فى بعض ما مضى من الوقت ، ولا يدعونها بأم نصيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولد ابنها ، وحين كان صبيا أو شابا يختلف إلى المدارس ، وحين كان موظفاً غائباً لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والأناقة وجمال الزى وروعة المنظر ، وإنما يدعونها أم الافندى . يلغون الهمزة ، وينقلون فتحتها على اللام ، فيقولون « أم لفندى » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ تبينت أنه

خامل خامد ، لا يغنى غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقى لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان ، حين يلم به الخطب أو يلح عليه الهم أو ينزل به المكروه . فابنها لا يحس خطباً ولا همًّا ولا مكروهاً ، ولا يجد حاجة إلى عطف أو رحمة أو حنان . ولو قد شملته أمه بشئ من ذلك لما أحسه ولا ذاقه ولا التفت إليه . هى إذن شقية بخيبة الأمل ، شقية بكبت العاطفة . وهى تحاول أن تتحدث إلى زوجها الشيخ فى بعض ذلك ، فلا تسمع منه إلا هذا الجواب يرده عليها فى ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابننا الخامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذى تبتسم له الحياة !

وهمت مرجانة أن تتحدث ذات يوم إلى ابنها فى بعض ذلك ، فقال لها متضاحكا : «مانحن وذاك ! إن المال أقوى قوة، وأعظم بأساً، وأوسع سلطاناً ، وأشد إغراء من الحب ، وما ينبغى للفقراء أن يحبوا .» وهمت أن تمضى فى حديثها فكفها عن ذلك باغراقه فى ضحك طويل ، وبانتقاله إلى أحاديث الحقل والعاملين فيه ، وإلى أحاديث الدائرة وموظفيها، حتى قال أبوه الشيخ : «دعى هذا الفتى فانه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل .» وسمع الفتى مقالة أبيه ، فازداد إغراقا فى الضحك ، ثم انصرف عن الدار كأنه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طيا ، وهو أن المال أقوى قوة من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ممهدة كل التمهيد ؛ فليس بينه وبين صفاء إلا جدار واحد يفصل بيتيهما . فاذا ارتقى إلى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق أو صفيق . فالأسوار بينه وبين الخطبة والأسوار بينه وبين الزواج كثيفة منيعة لا سبيل إلى اقتحامها ولا إلى النفوذ منها . ومتى استطاع الفقير المعدم أن ينفذ من أسوار المال والثراء ! ولكن الأسوار بينه وبين الحب لاوجود لها ، وإنما هى حيلة واسعة أولا ، وجراءة جريئة ثانية ، وصبر للنفس على ماتكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى ضمير الفتى يقظان ويتردد فى أحلامه نائماً . والفتى يملك أمره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئاً ولا يقول شيئاً ، ولا يخلى بين الناس وبين ما أخفى فى ضميره من هذا السر المكتوم . ولم تكن حال صفاء خيراً من حاله ، ولكنها كانت أدنى منه إلى الصراحة ، وأسرع منه إلى الاذعان . لم تكن نفسها عسيرة ولا معقدة ،

ولم يكن لها حظ من مهارة أو مكر ، وإنما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقداً ولا كيداً ولا استخفاء . وهى من أجل ذلك لم تنطو على نفسها ، ولم تستخف بما فى ضميرها ، وإنما أذعنت خاضعة الارادة ثائرة القلب كما قلت . فلما اشتد عليها الالحاح ، وكثر حولها الاغراء ، وجعلت ألوان الترف وفنون الهدايا تستبق إلى الدار ، رضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ؛ فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساماً ظاهراً ورضا يكاد يشرق له وجهها أحياناً ، وكانت تمنح الحب حزناً دخيلا وأملا دفيناً ، ودموعاً لعلها أن تنهل حين تخلو إلى نفسها فى ساعة من ساعات النهار أو فى ساعة من ساعات الليل . وهى بعد لم تر خطيبها ولم تسمع له ، وإنما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الأحاديث . فكان خِطْبها ظلا يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاءون . وكان حبها شخصاً رأته من قرب واستمعت له وتحدثت إليه ، وتمثلته فى نفسها ، واستحضرته فى ضميرها . وقد جعلت منذ حين لا تراه إلا مخالسة ، ولكنها تراه على كل حال . وهى تستطيع إن شاءت أن تبتغى الوسائل للقائه . ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء . ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له ، ولمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل ، ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل. خواطر تتردد فى نفس الفتاة وهى مشبهة شبهاً قويًّا أو ضعيفاً لخواطر تتردد فى نفس الفتى . وربما خطر لصفاء أن لو كان جارها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع أحد أن يصدها عنه أو يردها عن حبه ، ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم أوده وأود أبويه. فما اجتماع الفقر إلى الفقر ، وما اقتران البؤس إلى البؤس ، وما التباس الاعدام بالاعدام ! أحق إذن أن الحب لم يخلق للفقراء ، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا ، وإنما خلقوا ليكدوا ويجدّوا ويعملوا ويكسبوا القوت ، فان بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وإن لم يبلغوه فان فى الشقاء لهم سعة ، وفى الموت لهم راحة وروحاً ؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الألم والحزن واليأس ؛ وكان قلب الفتاة يجد ما كان قلب الفتى يجد من اللوعة والحسرة والأسى . وكان أحب شئ إليها أن تفضى إلى الفتى بذات نفسها ، وأحب شئ إلى الفتى أن يفضى إليها بذات نفسه ، ولم يكن إلى

ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم ؛ فقد حيل بينهما وبين اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك إلا حائط واحد رقيق . ولو قد صعد كلاهما إلى سقف داره مخالسة لأتيح لهما اللقاء والحديث .

والأيام تمضى على ذلك وتتبعها الليالى قد ازداد المعلم يونان اتصالا ولزوما لها ، وازدادت مرجانة تطويفا فى الأرض بقصعتها تلك التى تغطيها الأعشاب . ومضى الفتى فى حياته الكسلة العاملة ويقظته الغافلة الذاهلة ، واتصل النشاط واشتدت الحركة فى دار صفاء ، وأحس الناس أن يوم الزواج يدنو قليلا قليلا ، وقد أظل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمة الثغر ، عابسة النفس ، تظهر الرضا وتضمر السخط . وأقبل القسس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسس مراسمهم فرتلوا وكللوا وقرعوا الأجراس والنواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التى لا يفصمها إلا الموت . وكان المعلم يونان مستلقيا على مصطبته فى الجانب الأيمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيد واجمة ساهمة ، تجرى على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم: «أين ابنك يا مرجانة؟» فتقول مرجانة فى صوت مبتل : « لعلك كنت تريد أن يشارك فى هذا الفرح !»

فيعود الشيخ إلى صمته ، وتمضى الشيخة فى وجومها الباكى أو بكائها الواجم. ولم تشعل فى دار مرجانة لذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة فى تلك الليلة نورا ، وإنما كانت النار ذاكية والنور متألقا فى دار حنينة . ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم يتقدم حتى يوشك أن يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون فى فرحهم ومرحهم قد أخذوا يتشوفون ويتشوقون إلى مثل ما تعودوا أن يشهدوا فى تلك الليالى . ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئا ، ولم يسمعوا شيئا ، وقد شملهم فتور غريب بغيض . وترى أعقاب الليل المنهزم فتى ينسلّ من دار حنينة مستخفياً فيما بقى من ظلام . ويسفر الصبح شاحبا كئيبا ، وتشرق الشمس بنور ربها ، ولكنها ترسل على ذلك الشارع أشعة فاترة خائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه إلى الحركة ، ولا تكاد تخرج أهله من صمتهم إلى الكلام . وهؤلاء نفر من الناس قد أقبلوا يسايرون شاطئ القناة ، حتى إذا بلغوا المنحدر هبطوا إلى دار مرجانة فأدخلوا فيه جثة قد احتز القطار رأسها احتزازا . ويرتفع صوت مرجانة مولولا ، فلا يكاد يتجاوز دارها حتى يجيبه من

دار حنينة صوت آخر مولول قد ارتفع بالاعوال . ويعلم الناس قبل أن ينتصف النهار أن الفتى قد نام ينتظر الموت حتى جاءه به قطار الصعيد ، وأن صفاء قد أصبحت مزوجة كالمطلقة ، ففصمت تلك العقدة التى عقدها القسس والتى لا يفصمها إلا الموت .

تقول حنينة فى نحيبها: «ياليتنا لم نعرف المال !» وتقول مرجانة فى نحيبها : «ياليتنا لم نعرف الحب .» ويقول المعلم يونان فى صوته الهادئ المتقطع : «فقد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من المال والحب جميعا .»

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

بين هولندة وأندونيسيا

كان الناس إلى وقت قريب إذا ذكروا الاستعمار الأوربى اتجهت أفكارهم نحو الهند وما وسعته أرضها من كنوز ونفائس وأسواق تغص بمئات الملايين من البشر، وفيها من المنتجات المعدنية والزراعية والصناعية ماجذب أنظار الناس وخاب ألبابهم منذ القدم. فلا غرو أن قامت حركة الاستكشاف فى مستهل القرون الحديثة ووجهتها جميعاً إلى الهند، وأن يكون كولمب ومن تبعه من الكاشفين الأوربيين على اختلاف جنسياتهم قد عبروا المحيطات وأبحروا فيها غرباً وشرقاً باحثين عن أمثل الطرق وأقصرها للوصول إلى الهند. وقد أدى بهم الحنين إلى تلك الأرض السحرية وشدة تلهفهم على التماس سواحلها أن أطلقوا اسم الهند على كثير من الجزر والأراضى التى نزلوا بها دون علم بكنهها. وإنك لترى الآن اسم الهند على الخريطة يطالعك فى جهات عدة منها؛ ففى أمريكا جزر الهند الغربية، وفى آسيا جزر الهند الشرقية، وترى إلى جانب الهند البريطانية السابقة الهند الفرنسية والهند الهولندية، وفيها جميعاً قد رسخت قدم الاستعمار الأوربى بدرجات متفاوتة منذ القرن السادس عشر إلى وقتنا الحاضر.

وقد كان يجب أن يذكر اسم البرتغاليين إلى جانب الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين استعمروا فى آسيا؛ فهم أول من خاطر بالسياحة حول إفريقية فى الأزمنة الحديثة، وكان فاسكو دا جاما أول من اخترق المحيط الهندى حول إفريقية إلى ساحل الهند الغربى فى ذلك الوقت. وإلى جهود مستكشفيهم وحكامهم الآخرين فى القرن السادس عشر يرجع تفوق البرتغال البحرى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وانتزاع السيادة فى تلك الأرجاء من أمرائها الوطنيين ومعظمهم من المسلمين؛ وذلك بعد أن عجز المماليك والبنادقة متحدين عن صد تلك القوة البحرية الجارفة. وقد كان البابا إسكندر السادس حين اشتدت المنافسة بين الأسبان والبرتغاليين فى إبان حركة الاستكشافات، قد

قضى بأن يكون خط الطول الذى يمر غربى جزيرة أسورة هو الحد الفاصل بين نشاط الأمتين ؛ فما استكشف شرقيه كان للبرتغال وما استكشف غربيه كان لأسبانيا ؛ ولذلك كانت جزر الهند الشرقية من نصيب البرتغال . غير أن أسبانيا ما لبثت أن ضمت البرتغال فى سنة ١٥٨٠ ، واستمر هذا الاتحاد إلى سنة ١٦٤٠ وفى تلك الأثناء كان الهولنديون والانجليز يناصبون أسبانيا العداء ، فاستطاع الهولنديون أن يضعوا أيديهم على جزر الهند الشرقية فى أوائل القرن السابع عشر. ومن ثم عرفت هذه الجزر التى تتألف من جاوة وسومطرة ومادورا وكثير من الجزر الصغيرة الأخرى بالهند الهولندية أو النذرلندية Netherland Indies وهى التى تعرف الآن بأندونيسيا ، أو على الأصح هندونيسيا ، ولها شهرة عالمية فى إنتاج المطاط والتبغ والقصدير والسكر والبترول . ويبلغ عدد سكانها أكثر من خمسين مليون نفس، منهم نحو خمسة وأربعين مليونا فى جاوة وهى أهم هذه الجزر وأعرقها مدنية . والكثرة العظمى من الأهالى مسلمون يعملون فى الزراعة ويتكلمون بلغة الملايو . وبها أقليات من الصينيين والأوربيين لا يزيد عددهم جميعاً على نصف مليون نفس .

ولما دخل الهولنديون البلاد ، وجدوا أنفسهم أمام شعب عريق ، يعتز بمدنيته الجاوية القديمة ، وينعم بوحدة فى الجنس واللغة والدين لا تمزقها الأحقاد ولا تشوبها المنازعات بين الطبقات كما هى الحال فى الهند .

ولما كان الهولنديون فى مقدمة الشعوب الأوربية التى ثارت وكافحت طويلا من أجل حريتها واستقلالها ، فانهم ساروا فى استعمارهم وفق سياسة أكثر استنارة من سياسة البرتغاليين والأسبان الذين أنشأوا محاكم التفتيش فى بلادهم ضد مخالفيهم فى الدين ، واتخذوا من الاستعمار أداة طيعة للتبشير ونشر المذهب الكاثوليكى فى مستعمراتهم بين الوثنيين والمسلمين على السواء .

وقد كانت شؤون هذه الجزر فى أول الأمر بأيدى شركة الهند الهولندية ، فاستغلت الشركة موارد البلاد وطغت فى حكمها أكثر من قرنين حتى تسلمتها الحكومة الهولندية فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ فبدأت عهداً جديداً كان اتجاهها فيه أقرب إلى النظام البريطانى الذى كان يهدف إلى الحكم الذاتى منه إلى النظام الفرنسى الذى يعمل عادة لفرنسة أهل مستعمراتهم وإدماجهم فى الدولة الفرنسية . ولم يكن عجيباً أن يتأثر الهولنديون بالنظم البريطانية

فقد حالف الهولنديون الانجليز فى سلمهم وفى حروبهم ، وجمعت بينهم أواصر الجوار والمذهب الدينى ، وألف بين قلوبهم ركوب البحار والتعرض للأخطار . وعلى ذلك وضع الهولنديون خططهم فى استعمار أندونيسيا على أساس ثنائى يتيح للوطنيين أن يرفعوا من مستواهم عند القاعدة حتى يلتقوا بمضى الزمن مع الأوربيين عند قمة الهرم . فكان الوطنيون يبدءون تعليمهم فى مدارسهم الابتدائية بلغتهم الوطنية ، حتى إذا وصلوا إلى مرحلة التعليم الثانوى تلقوا



دراسة اللغة الهولندية إلى جانب دروسهم الأخرى . فاذا واصل النابهون منهم دراساتهم الجامعية فى بتافيا عاصمة الهند الهولندية امتزجوا بزملائهم الأوربيين وحصلوا علومهم باللغة الهولندية ، وتساوت فرص التخصص أمامهم جميعاً سواء فى أندونيسيا أو جامعات هولندة . وبمثل هذه الروح سار الهولنديون فى إصلاحاتهم الأخرى ، فألفوا اللجان وأنشأوا المعاهد لمواصلة البحوث العلمية

المستفيضة فى كل ما من شأنه ترقية منتجات البلاد وتحسين أحوالها ودرس حاجاتها فى مختلف الوجوه .

ولاشك فى أن الاندونيسيين قد جنوا من تلك الاصلاحات خيراً كثيراً حتى شاركوا الهولنديين على قدم المساواة فى كثير من الأعمال والوظائف الحكومية . ولكن هذه الاصلاحات جميعها كانت هباء إلى جانب قصور الهولنديين فى الناحية السياسية . والشعوب المغلوبة على أمرها لا تعنى عادة بالتقدم المادى أو الثقافى مثل اهتمامها بالتمتع بحرياتها وحقوقها الوطنية ؛ فهى تعتبر قمع هذه الحقوق مسبة وطنية ، كما أنها تعتبر تحقيقها فرضاً يتعين على الوطنيين الأحرار أن يكافحوا فى سبيله مهما أغدق عليهم المستعمرون من مال وجاه . وعلى قدر اهتمام الوطنيين بهذه الناحية السياسية يكون عادة تلكؤ المستعمرين وترددهم فى إجابة الوطنيين إلى حقوقهم ؛ فهم رغم تظاهرهم باخلاص نياتهم فى الاصلاح لابد منساقون بغريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الحركات الوطنية أو القومية فى البلاد التى يحكمونها ، وتأخير إعدادها للحكم الذاتى أو الاستقلال حتى يرغموا على ذلك إرغاما ، إما بالثورة من جانب المحكومين وإما انصياعاً للظروف وقوة الأمر الواقع . وقد قضى الانجليز فى حكم الهند وقضى الهولنديون فى حكم أندونيسيا قروناً طويلة استطاع المستعمرون فى أثنائها أن ينهضوا بشؤون المستعمرين من الناحيتين الاقتصادية والثقافية . ولكننا نشاهد الآن أنه حان الوقت لنزول المستعمرين عن سلطات الحكم للوطنيين طوعاً أو كرهاً . وجد الوطنيون سبل الحكم أمامهم غاصة بالأشواك والعثرات ملغومة بالصعاب والشراك . وذلك لأن المستعمرين لم يكن يهمهم أن يأخذوا بيد الأهالى نحو الاضطلاع بالمسئوليات بقدر ما كان يهمهم زراعة القطن وصناعته فى الهند أو استغلال المطاط والبترول فى أندونيسيا .

وقد كانت هولندة تعيّن على أندونيسيا حاكما عاما تضع فى يده جميع السلطات ، وكان يساعده مجلس استشارى خاص لم يكن له شأن يذكر فى الحكم . ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الأولى وتهب الحركات الوطنية فى الشرق والغرب بتأثير مبدأ تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسون قبيل انتهاء الحرب ، حتى نشبت الثورة فى مصر وإرلندة وتركيا والهند ، واضطر الهولنديون إلى إشراك الوطنيين فى الحكم فألفوا مجلساً شعبيا من ٦٠ عضواً كان نصفهم

من الوطنيين ينتخبون له بطريق الانتخاب غير المباشر. وقد قصروا اختصاص المجلس على بحث شؤون الضرائب والجمارك والهجرة داخل البلاد .

على أن هذه البُلغة من الحكم النيابى لم تشبع نهم الوطنيين للحرية والاستقلال ؛ فأخذ القادة الوطنيون ينظمون صفوفهم ويوثقون صلاتهم بقادة الحركات الوطنية فى الهند وبورما والصين واليابان ، وباتوا يترقبون الفرص لتحقيق أمانيهم . وقد سنحت لهم الفرصة أخيراً عند ما قامت الحرب العالمية الثانية . ففى ربيع عام ١٩٤٠ اجتاحت ألمانيا هولندة وغادرت ملكتها وحكومتها البلاد إلى انجلترا . ثم دخلت اليابان الحرب فأعلنت هولندة عليها الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ومنذ ذلك الوقت دخلت المسألة الأندونيسية بل المسألة الآسيوية فى طور جديد من تاريخها . فقد بدأ عهد تفوق اليابان فى شرق آسيا وجنوبها واستطاعت بعد انقضاضها على الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل وعلى البارجتين الانجليزيتين الراسيتين فى خليج سيام أن تسيطر على مياه المحيطين الهندى والهادى، وأن تكتسح أمامها وهى فى دفعتها الأولى الجارفة جميع المستعمرات الأوربية والأمريكية فى شرق آسيا وجنوبها ، فاحتلت جزر الفلبين من الولايات المتحدة ، وشبه جزيرة الملايو ، وسنغافورة ، ثم بورما من انجلترا ، وجزر الهند الشرقية من هولندة ، والهند الصينية من فرنسا ، وأصبحت اليابان تهدد الهند نفسها وأستراليا . وليت الأمر كان مقصوراً على ذلك التفوق الحربى الذى استمر أكثر من ثلاث سنوات . بل كان ذلك التفوق الحربى المؤقت حادثا بالغ الأثر فى تاريخ الشعوب الآسيوية التى أذلها المستعمرون واستضعفوها قروناً طويلة . فها هى ذى اليابان الدولة الآسيوية التى انتصرت على روسيا فى أوائل هذا القرن قد حالفتها آلهة النصر أيضاً فى هذه الحرب،فانتصرت على سادة البحر من الانجليز والأمريكان، واستطاعت أن تستولى على سنغافورة تلك القاعدة البريطانية الحصينة الواقعة على خط الاستواء تحرس لبريطانيا طريقها الامبراطورى بين آسيا وأستراليا وبين المحيطين الهندى والهادى . لذلك كان انتصار اليابان بمثابة ناقوس عظيم جلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها ، فأيقظت الشعوب المغلوبة على أمرها الصامتة على مضض ، وملأت قلوب القوم ثقة بأنفسهم ، وأملا فى التخلص نهائيا من سلطان الجنس الأبيض . ولم تكن الشعوب التى أخضعها اليابانيون وحرروها مؤقتاً من الاستعمار الأوربى لتهتم كثيراً بأسلوب الحكم اليابانى وانتسابه إلى

الطغيان النازى أو الفاشى . فالشعوب المستعمرة أو المحكومة لا تستسيغ فى كفاحها أن تبحث فلسفة الحكم وأنواعه، وإنما يهمها أمر واحد تؤثره على كل شئ آخر ، ذلك هو الخلاص من الحكم الأجنبى . وكان اليابانيون على علم بشعور الأهالى، فاستغلوه ضد الأوربيين وضد الجنس الأبيض عامة ، وجعلوا فى أثناء احتلالهم لتلك البلاد يدربون أهلها على فنون الحرب ، فألفوا منهم الجيوش والعصابات وسلحوهم بمختلف الأسلحة . حتى إذا دنت ساعة النصر للحلفاء وأحس اليابانيون باقتراب أجل احتلالهم لتلك البلاد ورّثوا الوطنيين سلاحهم ومؤنتهم وعتادهم . وقام الوطنيون من كل صوب فى الهند وبورما وأندونيسيا والصين الهندى يتّحدون ويتحفزون لقتال الحلفاء الذين قد تحدثهم أنفسهم باستعادة سيطرتهم على مستعمراتهم القديمة .

وكانت الحركة الوطنية فى أندونيسيا قد لقيت قبل الحرب الأخيرة عنتاً من جانب الهولنديين ؛ إذ اضطهدوا زعيمها الدكتور أحمد سوكرنو وسجنوه أربع سنوات ثم أطلقوا سراحه سنة ١٩٣١ لينفوه إلى جزيرة سومطرة . ولكن حكومة هولندة بعد أن شردها الألمان من بلادها وانقطعت صلاتها بأملاكها فى عرض المحيط عادت تحاول أن تجتذب إليها قلوب أهل مستعمراتها ، فأعلنت ملكة هولندة فى سنة ١٩٤٢ من منفاها بانجلترا اعتزام هولندة بعد أن يتم تحريرها على سن دستور اتحادى يجمع بين هولندة وأملاكها فى الشرق والغرب ، ويتمتع فيه الجميع بالحكم الذاتى وبنفس الحريات العامة التى يتمتع بها الهولنديون أنفسهم .

ولكن الزعيم سوكرنو لم ينتظر حتى يعود الهولنديون إلى قواعدهم، ورأى أن يضعهم أمام الأمر الواقع ، فاغتنم الفرصة عقب خروج اليابانين وأعلن فى أغسطس ١٩٤٥ تكوين جمهورية أندونيسيا برياسته ، واختار لرياسة وزارته صديقه الدكتور شاهرير وهو محام شاب درس القانون فى جامعة ليدن بهولندة وقد آثر السجن فى أثناء الاحتلال على التعاون مع اليابانين كما فعل سوكرنو . ولكنه مع ذلك لم يتردد بعد ارتحال اليابانيين فى وضع يده فى يد سوكرنو ، وتعاون الاثنان على ضم الصفوف ومقاومة القوات التى نظمها الهولنديون لقمع الثورة . وكانت هولندة تميل أول الأمر إلى الاستنجاد بالولايات المتحدة ، التى أصبح لقائدها الجنرال ماك أرثر مكانة فائقة فى آسيا على أثر استسلام اليابان.

ولكن الحكومة الانجليزية عارضت فى تدخل الولايات المتحدة ، وقالت إن أندونيسيا داخلة فى منطقة نفوذها . وعلى ذلك تقدمت انجلترا بقواتها لمساعدة حليفتها هولندة فى قمع الثورة بأندونيسيا ، بل إنها لم تتورع حتى عن الاستعانة ببقايا جيش الاحتلال اليابانى . ولكن انجلترا لم تلبث أن كفت عن مساعدة هولندة بعد أن أثارت روسيا هذا الموضوع أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ ، وكانت الحكومة الهولندية قد رتبت شؤونها فى بلادها ، فانفردت بالعمل أمام الأندونيسيين ، وعينت الدكتور فان موك Van Mook حاكما عاما للاقليم وقد فوضته فى معالجة الحالة وفق ما يراه . وفان موك من مواليد الجزر الهولندية الشرقية ومن أنصار فكرة التعاون مع الوطنيين ، فاجتمع مع زعماء الأندونيسيين واتفق الطرفان فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ على أن تعترف حكومة هولندة بجمهورية أندونيسيا فى جاوة وسومطرة ومادورا برياسة الزعيم سوكرنو ، ومقابل ذلك تعترف أندونيسيا بسيادة التاج الهولندى على الاتحاد الأندونيسى الهولندى الذى يشمل أندونيسيا وغيرها من الجزر التى لا تريد الانضواء تحت لواء الجمهورية ، وأن يترك للاتحاد البت فى مسائل الدفاع والعلاقات الخارجية والتعاون الثقافى . ويعرف هذا الاتفاق بمعاهدة « لنجاوجاتى » وقد وقع عليها السيد شاهرير رئيس الوزارة إذ ذاك ، ووافق عليها البرلمان الهولندى . ولكن يبدو أن الرئيس سوكرنو وبعض العناصر المتطرفة لم يرتاحوا إلى شروط الاتفاق ، فاستقال شاهرير ولكنه بقى إلى جانب الرئيس كمستشار له . وكأنما أرادت هولندة أن تنتهز الفرصة فتلغى الاتفاق من أساسه وتعيد البلاد إلى سلطانها القديم ، فجهزت قوة جديدة مالبثت أن أغارت على أماكن الوطنيين فى يونيه الماضى ،فأثارت بعدوانها سخط العالم أجمع ما عدا الدول التى يهمها بقاء الاستعمار كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا . وارتفع صوت الوطنيين من جوكجاكارتا عاصمة الجمهورية الأندونيسية ،وجأروا بالشكوى من الطغيان الهولندى . وكان مندوب الجمهورية قد وصل إلى مصر ، وعقد مع الحكومة المصرية فى يونيه الماضى معاهدة الصداقة ، فجاءته الأوامر بأن يرحل إلى أمريكا صحبة السيد شاهرير للاستنجاد بمجلس الأمن وسائر الدول . وكانت هولندة تدعى أن القوات الهولندية التى تحارب فى أندونيسيا ، ما هى إلا قوة بوليسية تحاول استتباب الأمن وحفظ النظام فى البلاد ، وأن أندونيسيا لا تزال قانونياً جزءاً من أملاك هولندة

وليس لها من الاستقلال والسيادة ما يسوّغ تدخل هيئة الأمم بشأنها . ولكن مجلس الأمن لم يسعه أن يتغاضى عن الحقيقة الواقعة ، وهى أن هناك حرباً تدور رحاها بين شعبين فى الشرق الأقصى ، وأن الواجب يدعو المجلس إلى التدخل لوقف الحرب ، فأذعنت هولندة ، وبحث المجلس فى القضية على عجل مستمعاً لشكوى أندونيسيا . وقد أصدر قراره فى أغسطس الماضى بمطالبة الفريقين بوقف القتال . ووصلت هذه الأوامر رسميا إلى الجهات المختصة ، ولكن الحالة عادت أسوأ مما كانت عليه بسبب حرب العصابات التى استفحل أمرها فى أندونيسيا كما استشرى خطرها فى جهات أخرى من العالم فى هذه الأيام (اليونان وفلسطين وكشمير) . وأخيراً تألفت لجنة ودية ثلاثية من بلجيكا عن هولندة وأستراليا عن أندونيسيا ومن الولايات المتحدة ، وقد قصدت اللجنة إلى اندونيسيا ، وهى الآن تحاول حسم الخلاف القائم فى هذه الأرجاء ووضع حد للقتال القائم فيها منذ ثلاث سنوات .

ويبدو أن الأمل كبير فى أن تعترف هولندة بحق الأندونيسيين فى أن يحيوا الحياة الحرة المستقلة التى يرتضونها لأنفسهم . فقد توالت النذر أخيراً بأن نجم الاستعمار قد آذن بالأفول . وها هى ذى الولايات المتحدة قد نزلت مختارة عن سلطانها فى الفلبين . بل ها هى ذى بريطانيا سيدة الاستعمار قد حررت من سيطرتها بورما والهند وهى التى كانت إلى وقت قريب قبلة الاستعمار وألمع جوهرة فى تاجه . وبذلك قدمت حكومة العمال فى انجلترا الدليل واضحاً على نهاية سياسة الاستعمار القديمة ، واقتراب عهد جديد لا تحكم فيه الشعوب ضد إرادتها ، ولاتقوم فيه قائمة لشعب يطغى ويبغى السيطرة على غيره من الشعوب .

محمد رفعت

الحج ... إلى شلالات نياجارا

الحج إلى المواطن الفريدة مختلف ألوانه .

فمنه حج دينى إلى البقاع المقدسة ، يلتمس المرء فيها شفاء النفس ، وصفاء الروح .

ومنه حج رياضى إلى ميادين الارتياض ، يطاب المرء فيها حق بدنه عليه ، ويبتغى النزهة والسلوى .

ومنه حج ثقافىّ إلى دور العلم ومجامع الرأى ومعاهد الفكر ، يتزود فيها المرء زاد المعرفة ، ويقتبس نور الحكمة .

ومن الحج أنواع تعزّ على الاحصاء ، فيها للنفوس غذاء ، وللأذهان متاع .

فأما الحج إلى شلالات نياجارا فهو — فيما أرى — حج شامل ، يحتوى دواعى الحج ومزاياه جميعاً . . . فيه من الدين قبسة ، ومن الرياضة نفحة ، ومن العلم طَرَف . . . وإنى لأسميه حجًّا إلى موطن الجمال الأصيل ، ومظهره الأسمى ؛ إذ أن الجمال هو غاية المثل العليا فى صحة الأبدان والأذهان والأرواح !

يقف الصوفىّ المتعبّد أمام شلالات نياجارا فيستشعر إزاءها روح الله ، ويؤنس من جانبها قبسا من نوره الأزلىّ ، ولا يلبث أن تتجلى له عظمة الخالق وضآلة المخلوق .

ويسرّح الباحث نظره فى تلك البقعة الشمالية من الدنيا الجديدة ، فيرى ذلك العباب تتلاطم أثباجه ، وتتخبط أمواجه ، وكأن هديره الصخّاب يقص على الكون أحداث تلك البقعة التى شهدت هنودها الحمر مقيمين على أرباضها ، يسبّحون بحمد هذه الشلالات . ويقدسون اسمها ، وينصبونها إلٰها جباراً له الطّوْع والاذعان ، فلا يفوتهم فى كل عام أن يزدلفوا إليه بقربان نفيس :

عذراء من ربات الفتنة والسحر ، يلقون بها إليه ، ليسبغ عليهم بركة الرضا والغفران .

وإن روّاد الطبيعة ليشهدون من هذه الشلالات منظراً عجبا ، فيتساءلون : كيف انخسفت الأرض فى هذه البقعة ؟ وكيف تدفق فيها الماء ، فراح يشقها شقا ، ويخلّف فيها ضروباً من الجزائر والبطائح والوهاد ؟

وأما هواة الرياضة وطلابها فحسبهم من هذه الشلالات روعة المشاهد ، وطيب الأهوية ، وسكينة المكان .

تناهىَ ذلك إلى أسماعنا ونحن فى نيويورك ، فهاج أشواقنا إلى الرحيل ، قصداً إلى الشلالات . . .

وما إن بتينا عزمنا على الرحيل ، حتى أعددنا العدّة لهذه الرحلة ، وخرجنا عند انبلاج الصبح إلى محطة سنترال ترمنال فى قلب المدينة . . .

وأنت إذا شارفت المحطة ، فلمحت بناءها السامق ، حسبت أنك دالف إليه ليحتويك قطار الرحيل. ولكن شدّ ما يروعك أن تعلم أن هذا البناء على سموقه وفخامته ليس إلا تاجا للمحطة يعتلى رأسها ، وأما المحطة نفسها فهى ساربة فى أطباق الأرض ، ضاربة فى أعماقها ، تهبط إليها فاذا أنت تتحدر فى ناطحة سحاب مقلوبة !

ما أجدر هذه المحطة بأن تسمّى مدينة وحدها ؛ فهى طبقات بعضها تحت بعض ، بكل طبقة طرقات وأبهاء ورِدَاه ، وفى كل طبقة متاجر ومطاعم وأندية ، ولكل طبقات مسالك تغدو فيها قطاراتها وتروح . . . وعلى كل ذلك طابع من التناسق والنظام يأخذ بالألباب .

تستضيفك هذه المدينة ، فيروقك أن تجوب فيها ، وترحل بين جوانبها رحلة ربما صرفتْكَ عن رحلتك المقصودة !

وأخيراً لا تجد بدًّا من أن تستَهدِىَ إلى قطارك ، فاذا دُلِلْتَ عليه دخلتَه فى سلامة الله .

ويتحرك القطار ، كأنه يَسْبُر غور الأرض ، فتحس به يشق جوفها شقا ، ويلتمس له من ضيقها مخرجا .

ويبلغ القطار مأربه ، فيخرج على ظهر الأرض ، ميمما صوب الشمال ، تستقبله أفواج الضياء . . .

ويمضى القطار لطيَّته ، وهو ما برح فى مناكب نيويورك تلك المدينة الشاسعة التى تبسط ذراعيها ، فتحتضن المرامى الفساح ، وإنه ليخيل إليك أن القطار كلما أسعن ينتهب الطريق ، أسعنت المدينة فى مجاراته ، فكأنما هما يتسابقان ، كَفَرَسَىْ رهان . . .

وبعد لأى يستخلص القطار أذياله من مخالب تلك المدينة التى تمتد ميامنها ومياسرها ، حتى لتكاد لا تدع لغيرها شبراً من المعمور !

ما ظنُّك بعشر ساعات فى القطار بين نيويورك ومدينة الشلالات ؟

إنك لحاسب لها حساباً عسيراً من الملالة والضجر ، ولكنك تدهش إذ تتواصل بك هذه الساعات وأنت رانه غير ملول ولا متضجّر . . . وربما كان مردّ ذلك إلى ما يتوافر فى القطار من جلسة رخية ، وأسباب للراحة كافلة ، وما تطالعك به النافذة من مشاهد للمدائن الصناعية الزاخرة بالحركة والنشاط .

وإن القطار ليسلمك إلى مدينة الشلالات وقد أدبر عنها النهار . فما إن تبارح المحطة إلى الطريق العام حتى تشهد مواكب الأضواء فى غير إزعاج ، وتستشعر أول وهلة ذلك الهدوء الشامل ، ويتجلى لك ما طبعت عليه المدينة من رشاقة ورقة ، فلا يلبث ذلك أن يلهيك عما قضيت من ساعاتك العشر الطوال ، وإذا أنت ماض فى المدينة تذرع جوانبها ، مستوعباً ما فيها من مباهج ومتع .

أكان خليقاً بنا ، بعد عشر ساعات فى قطار سيّار ، أن نأوى على التو إلى حجرتنا فى الفندق نبتغى لأنفسنا الراحة والدعة ؟

لعمرك ما كان لنا وقد أخلدنا إلى السكون على مقعد لا نَرِيمُهُ طوال مرحلة القطار ، إلا أن نطلق أقدامنا من عقالها ، وأن نروض أجسادنا على الحركة والانتقال فى ذلك الجو الرحيب .

بلدة الشلالات أنيقة رشيقة ، سَلِمتْ من شواهق تتسامى فتنطح السحاب ، أو تتهاوى فتدرك الأرض السابعة . . .

بلدة قوامها شارع عظيم تتفرع منه يمنة ويسرة بعضُ المسالك والطرق ، لا يعييك أن تلمّ بكل ما فيها أثناء جولة أو جولتين ، فى ساعة أو بعض ساعة .

هى بلدة سيَّاح ، يتوضح طابع السياحة الأصيل على متاجرها ومطاعمها وأنديتها وسائر مرافق الحياة فيها .

وحيثما ترجع البصر فى أطرافها تطالعك الحدائق الفساح ، والغابات الرحاب ، والجزائر والجسور ؛ كأنها لوح تفنن رسّامة فى تخيير ألوانه الزاهية .

وإنك لتسير فى مسالك هذه المدينة ، فاذا أنت تقف الفينة بعد الفينة تنصت إلى ذلك الدوىّ الذى يصافح سمعك لا تعرف له مأتى ، كأنما هو هتافات تتجاوب بها الآفاق ، من بعيد . فتحسّ لها هزة ورهبة ، ولا تملك إلا أن تمعن فى الاصغاء لتستجلى ذلك النداء الخفىّ ، ما هو ؟ وما خطبه ؟ وكأن دافعا مجهولا يثير فيك الشغف والتطلع .

وينتهى بك الطواف إلى الفندق ، فتحتويك حجرتك ، وتلقى بنفسك على مرقدك ، فاذا الصوت يلاحقك ، ولكنه يزداد من وضوح وجلاء ؛ فتجد إحساسك كله قد تجمع فى سمعك ، لتتلقى به تلك الترنيمة التى يعمر بها الفضاء ، كأنما هى صوت الطبيعة يشدو ممجّدا عظمة الله !

وتراك قد أسبلت جفنيك ، يتغشاك سبات عميق . . .

ويدركك الصباح ، فتغادر الفندق ، طوعاً لذلك الصوت الذى ما برح يناديك ، وتدع لقدميك أن تنطلقا ، فاذا بهما تحملانك إلى تلك الحدائق العامرة ، قائمة على جزر وأشباه جزر ، وقد ترامى تجاهها بساط من الماء ينحسر البصر دون منتهاه . وإنه لماء عجيب الأطوار ! تارة هو رفيق الجِرْية ، وتارة هو أهوج عربيد ، يراقص بعضه بعضا ، كأنما هو يتواثب على درج . . .

وتخترق الحدائق والغابات تملأ عينيك من مفاتن الطبيعة المتبرجة . . . تلك الطبيعة التى تتخذ لها هناك فى فصل الخريف منظراً بِدْعاً ، ورونقاً عجباً ؛ إذ تكتسى بذلك الرداء البهيج المختلفة ألوانه . . .

وأكبر ما يروعك مما ترى ذلك البحر المديد من أوراق الشجر ، يغطّى أديم الأرض كله . . . بحر ضحل لا تخشى فيه غرقا ، قدماك تخوضانه فتسمع لأمواجه خشخشة كأنما هى حديث ومناجاة .

ولا تفتأ تسير وأنت تخوض هذه الأمواج من الورق فى فرحة الطفل اللعوب ، وتشعر فى مسيرك بالشجر ينفض عليك نثار أوراقه ، فكأنما هو

رذاذ يتساقط عليك فى كل خطوة تخطوها ، فلا تنى تميطه عنك لتمضى فى الطريق . . .

وحيثما قلبت النظر استقبلتك الطبيعة بزينتها : أشجار ما برحت مخضرّة زاهية ، وأخرى نصلت ألوانها بين صفرة وحمرة ، وأشجار تعرت من أوراقها، فهى تتجمع وتتكمش أمام هبات النسيم كأنما تستخفى من أعين الرقباء . . .

شدَّ ما تتباين ألوان الطبيعة فى حدائق تلك المدينة ، وكأن النبات وهو يودّع فصل النور والتفتح يرغب قبل استكانته فى فصل البرد أن يسخو بكل ما فى جعبته من فتنة وروذق .

أليس من مفارقات الطبيعة أن تبدو الأشجار عريانة فى فصل البرد ، كاسية فى فصل الربيع ؟

أمعن فكرك مليا ، يسفر لك السر . . . إن هى إلا خطة مرسومة ، وفق نظام طبيعىّ دقيق . . .

الشتاء جهامة وأهوية ، ما أقل ساعات النور فيه ، فالناس فى مُعتَكَفَاتِهم يصطلون ، لا همَّ لهم إلا النجاء من وطأة البرد وقشعريرته، فهيهات منهم التفات إلى زهرة تتفتّر ، أو شجرة تورق . ففيم تتزين الأشجار وتتحلّى بالأزاهير ؟ ولم تتبرج الطبيعة وقد أقفرت المسالك من العيون ؟

فأما فصل الربيع ، ففيه تسطع الأضواء ، ويطول عمرها فى فسحة النهار ، وفيه تعتدل الأجواء ، ويطيب الهواء ، فلا يملك الناس إلا أن يخرجوا أفواجا يملأون الرحاب ، ويرسلون الطرف متمليا محاسن الكون ومفاتن الطبيعة ، وإذن فقد آن للشجر أن يتبرج ، ليتصيَّد الأبصار ، ويسبى الألباب . . .

ليست الطبيعة إلا غانية ، قصارى همها أن تنصب حبائلها فى أنسب الأوقات اختلاباً للقلوب واجتذاباً للاعجاب !

ها أنت ذا تمضى فى طريقك ، فتحس أن قدميك تسيران بك فى نهج معلوم ، إلى غاية مرسومة . وكلما قطعت شوطاً توضح الهدير واستبان عصْفُه ، فاذا أنت خافق القلب واجفه ، وإذا أنت تحث خطاك مخترقاً تلك الحدائق والمنازه .

وتصحو وئيداً من نشوتك ، فتعرف أنك لست فى هذا المكان بأوحد ، هنا وهنالك زوار غير قليلين ، ليسوا وحدانا ولا زرافات ، وإنما هم أزواج من

ذكر وأنثى ، كل اثنين خاليان لنفسيهما تحت عريش ، أو خلف ظُلَّة ، أو مفترشين ذلك البساط الطريف من ورق الشجر . . . وجوههم جميعاً نواطق بالطلاقة والبشر ، فهم يستمرئون أزهى ساعات العيش ، وأحلى أُوَيْقات الحياة . . .

إنهم فى مستهل أيام العرس . . .

ومن ثمَّ لُقِّبَتْ تلك المدينة بمدينة شهر العسل ، يخِفّ إليها الأزواج الجدد أفواجاً يغنمون فيها متاعاً وبهجة . وهل يجدون لأعراسهم مثابة أروع من تلك المثابة التى خلعت عليها الطبيعة أنفس هباتها ، وخصتها بأجمل نفحاتها ، وكستها صبغة من السكينة والهدوء يعزّ وجودها فى ذلك الوطن الأمريكىّ الصاخب العجّاج ؟

وأنت إذا تباطأت خطاك ، لم يلبث الصوت الهدّار أن يستحثك على المضىّ غير وانٍ حتى تبلغ المكان المقصود .

وهناك يتبين لك أنك على ربوة ترتمى دونها المهاوى البعيدة ، وعلى يمينك وشمالك تنصبّ اللجج فى تلك المهاوى غاضبة فوّارة ، وإن هذه اللجج لتقذف بنفسها قذفاً ، كَتائِبَ كَتائِبَ يزحم بعضها بعضاً فى منافسة وغلاب .

وإنك لتشهد ذلك الصراع الفريد ، إذ تحرص كل كتيبة من الموج على أن تسبق غيرها فى الظفر بتلك القفزة الرائعة على صدر النهر السحيق .

وما هى إلا أن تحس فى نفسك نزعة إلى مجاراة هذه الكتائب المتنمرة ، طلباً لتلك النشوة العظمى ، نشوة الوثب والانطلاق . . .

وإذا أرسلت بصرك ترقب تلك الكتائب ، وهى تتساقط فى حميتها ونشوتها ، بهرك منها ما تلمح من أبخرة ناصعة تتخذ منها الشمس غلائل ترسم عليها قوسها القزحىّ بأصباغه الزاهية ، وألوانه الفاتنة . . .

ولا بد أن يستبد بك الشغف ، فتطمح نفسك إلى رؤية تلك الكتائب المتحاربة فى مستقرها ، حيث يستقبلها النهر ، ويفسح لها فى مجراه طريق الخلاص .

وإذن فعليك أن تتجهز لمغامرة صغيرة مأمونة ، تتدرّع فيها بما يقيك البلل ، إذ أن مكانك هناك عن كثب من حضن النهر ، تنهمر دونه فلول من تلك الكتائب الهاوية .

وحسبك فى هذه المغامرة أن تكتسى رداء سابغاً من المطاط يشملك من

الرأس إلى القدم ، فكأنما أنت قادم على صيد بحرى عظيم الخطر . . .

فان هبط بك المصعد ، واحتواك شاطىء النهر ، فأنت من الموج المتساقط تجاه ستار غليظٍ أو غمامٍ كثيفٍ راعبٍ صوته ، كأنما هو زئير جحفل لجب من سباع ضارية فى فلاة موحشة ، أو لكأنه بركان قد ثار وفار ، وراح يقذف بالحمم ، ويرمى بالجنادل والرجم . . .

يا للهول ! أهذا يوم الحشر ؟ وتلك أصوات الخلائق فى عجيج وضجيج ؟ . . .

هذه هى الشلالات الأمريكية ، وذلك هو الشاطىء الأمريكى .

وعلى مدّ البصر يتراءى لك الشاطىء الكندى بشلالاته ، وقد لا تقنع بما شهدت من ذلك الشطر ، فتأبى إلا أن تستكمل متعتك بما هنالك ، فتعبر النهر على جسره العظيم ، جسر قوس قزح ، وبذلك تنتقل من وطن إلى وطن ، وتنفصل عن أمة إلى أمة ، أرض جديدة ، ومدينة تلقب بمدينة الشلالات الكندية ، يظللها علم آخر ، وتقوم عليها حكومة أخرى !

لقد اقتسمت بريطانيا وأمريكا هذه الشلالات ، فكانت بينهما مناصفة ، ولكن الطبيعة لا تعرف ذلك التقسيم السياسى ولا تقيم له وزنا . . .

ليست بلدة الشلالات الكندية إلا صورة من بلدة الشلالات الأمريكية ، أو هى تكملة لها . ما تجده هنا تجد مثله هنالك ، حتى رشاقة الدور ، ونظام المسالك والحدائق . . .

على أن روعة الشلالات الأمريكية لا تتجلى واضحة المفاتن إلا حيث يأخذها بصرك من الشاطىء الكندى . وأروع ما تكون إذا دجا الليل ، وراحت تكتسى من سواطع المصابيح الكهربية المختلفة الألوان حلة رفافة ساحرة .

هنا تتزاوج صبغة الطبيعة وصنعة الانسان ، فيتألف من ذلك التزاوج منظر يسمو بك من حدود الحقائق الواقعية إلى آفاق الخيال .

وكأنك وأنت ترقب هذه الشلالات تحت الأضواء الباهرة قد امتطيت الجواد الطائر المسحور ، فطوّح بك فى عوالم خفية من خلق الأساطير ، ولا تلبث أن يخيل إليك أنك تشهد جحيم دانتى وأن هذا الماء الثائر الوهاج الذى تتعدد ألوانه ليس إلا جانباً من جوانب تلك الجحيم تتلهب شعلها ، ويتصعد دخانها ، ويدوّى زفيرها . بيد أنها جحيم طيبة

مأمونة لا تشعرك خوفا ولا رهبا ، ولا يصيبك من نارها شواظ ، وإنما تملأ قلبك فتنة وروعة ، وتثير بين حناياك عبادة الجمال .

إنك لتظل فى وقفتك ، غافلا عن وقتك ، يجول بك جوادك الطائر فى مملكة الخيال الرحيب ، متنقلا من أفق إلى أفق ، يعرض عليك أفتن ما فى الوجود من مناظر وصور .

وما تزال فى غفوتك ، بل فى نشوتك ، حتى يتلطف لك نسيم الليل ، فيعابثك بلمساته ، فتصحو من أحلامك ، راجعاً إلى دنيا الواقع ؛ وتتفقد دثارك لتحكم وضعه على كتفيك ، وتدفع بخطاك إلى مستقرك ، وكأنك آيب من سفر بعيد الشقة ، جزت فيه بآماد من الحقب الخوالى .

ويستضيفك مكانك من الفندق ، فتمضى متصفحاً تلك المصورات التى تقص عليك نبأ الشلالات وتمثل لك مفاتنها ، فيسترعى بصرك منظرها تحت وطأة الشتاء .

هذه الكتائب الصَّخَّابة العربيدة من الموج يكبح جماحها البرد ، فتنقلب كُتَلا صمًّا ساكنة . . .

بينا هى متأهبة لوثبتها الجريئة ، إذا هى قد جمدت بغتة واستحال ماؤها السيال جلاميد من صخر أملس .

إنها ما برحت فى وضعها المائى مُتوَاصِل التدفق ، إلا أن كتائبها وهى فى مهطبها قد بطلت حركتها ، وتماسكت متعلقا بعضها ببعض ، كأنما قد فجَأها ما يَرُوع ، فوقفت مستسلمة ليس بها حراك .

وإن منها كتائب أدركها القُرّ وهى فى رأس الشلال على وشك الانحدار ، فلبثت معلقة على فم الهاوية ، لا هى بقادرة على أن ترتد ، ولا هى بقادرة على أن تواصل وثوبها إلى القاع . . .

هى من أمرها فى حيرة ودهش ، تتميز غيظا من عجزها وجمودها . وها هم أولاء روّاد الشلالات الذين كانوا بالأمس يرهبون سطوتها ، ويحاذرون الدنوّ منها ، تراهم اليوم يتواثبون على متونها فى غير محاذرة ولا رهب ، يسخرون من جمودها ، ويشمتون بعجزها !

وثمة كتائب أخرى ، باغتها البرد فى منتصف المَهْوَى ، فجمدت وانسدت دونها المسالك . تبدو بقوامها الفارع مصلوبة شُدّتْ رءوسها

بأمراسٍ إلى الحافة ، وجُذِبَتْ أقدامها إلى قرارة الهاوية ، فهى ماثلة فى أغلالها تلتهمها العيون !

ما من كائن حىّ إلا له وقت راحة ودعة . . . فما لهذه الشلالات تَتَأَبَّى حكم الطبيعة ، وتضيق بحكمة الوجود ؟

إن الشتاء ليتيح لها فرصة للصمت والهجوع ، تستجم وتستجمع ، متهيئة لصراع جديد .

ليس منظر الشلالات شتاءً بأهون من منظرها فى الصيف . ولكن المرء وَلُوعٌ أبداً بالحركة والصخب ، يؤثرها على الجمود والتوقف ، ومن ثَمَّ كان الصيف هو الموسم الأعظم لبلدة الشلالات .

تتوافد على هذه الشلالات ألوف مؤلفة من الخلائق، يحدوهم الشوق والتطلع، وتجتذبهم مغنطيسية عجيبة تكمن فى تلك الأمواج الزواخر ، وكأن هذه المنطقة الفريدة كعبة يتعبد لسحرها البشر من كل جنس ومن كل صقع ، ولم يعوز هذه الكعبة ما يتوافر لمختلف المعابد والمواطن المقدسة من ألوان الزلفى وصنوف القرابين .

فاذا كانت المدنية العصرية قد اكتسحت أمامها عادة الهنود الحمر الذين كانوا يزدلفون إلى الشلالات بعرائس يجلُونها لها فى الحَوْل بعد الحَوْل ، فان البشرية ما زالت تقدم من ذات نفسها قربانات لذلك المعبود العظيم .

ثمة عن كثب من رأس الشلالات جسر يلقبونه « جسر الانتحار » يتهاوى منه الناس إلى الشلالات ، فيتفانون فيها . وقد سجل الاحصاء جملة من الخلق ، يلقون بأنفسهم إلى المهوى كل عام .

ترى هل يدفعهم إلى ذلك ضيق بالحياة ، ونُوءٌ بالهموم ؟ أو هو دافع كمين من سحر الشلالات يحدوهم على أن يبذلوا أنفسهم فى سبيل الموج ، ملتمسين تلك النشوة الشائقة ، نشوة الوثبة العظمى ، والاندماج الأكبر فى تلك الكتائب العارمة التى ينطوى ركبها الجبار على ألغاز وأسرار بعيدة المرمى عصية المنال ؟

مَرَّتْ عِجَالاً أيامنا فى نياجارا ، ورجعنا من هذه الحجة قد أدينا لها شعائرها من زَوْرَة ومطاف ، تاركين لغيرنا ممن ملكتهم صُوفِيَّتُها أن يقدموا لها القربان ! . . .

محمود محمود

على قبر بتهوفن

« عزاء للبؤساء أن يعرفوا بائسا مثلهم استطاع بكل ما أوتى من قوة — وبرغم ما أقامته الطبيعة فى طريقه من عوائق — أن يرقى إلى مصاف رجال الفن ، بل الرجال فحسب ، الجديرين بالتقدير . »

بتهوفن فى « وصية هايلجنشتات » سنة ١٨٠٢

« خفف الوطء ، ما أظن إلا أنك تطرق أرضا مقدسة . صاح ! طال بك النوى ، وطوح بك الطواف حتى جاء بك أخيرا إلى الأرض التى تضم رفات لودفيج فون بتهوفن . »

بمثل هذه الكلمات ، أو فى الحالة الشعورية التى تعبر عنها هذه الجمل ، اجتزت باب المدافن المركزية Zentralfriedhof بالحى الحادى عشر (زمرنج) من أحياء فينا ، ذات يوم من صيف ١٩٢٩ باحثا عن قبر بتهوفن . وإنى لأسير يمنة أو يسرة ، وأتقدم إلى الأمام أو أعود أدراجى مسترشدا بالكتاب الدليل فى يدى ، مجتازا معابر « رحبة السلام » . « أظنك عرفت طريقك أيها الطارق . فهذه المقبرة الفخمة ، مرفوعة على عمد من مرمر هى ولا شك . . . كلا . هذا قبر باشمهندس ما لبلدية فينا . ثم هنا قبر أسرة شيخ البقالين . أو هو وزير الدولة ذو الحول والطول ؟ وهنا . . . فا . . . يجنبا . . . وم الجهايمرات . . . مستشار ملكى » . أدور بين المدافن أطالع الأسماء فوق الأضرحة الكبرى ، أسماء أولئك المجهولين العظماء ، عاشوا بين سمع الناس وبصرهم لمحض مراكزهم فى الدولة أو فى التجارة والمال ، ثم هم يختفون فى التراب ، فى تراب التاريخ ، مهما بالغوا فى تزجيج حواجب رموسهم وتزويق صدورها وأعجازها . السلام عليكم يا أهل القبور ! وعلى ذكراكم العفاء أيها الحمقى ، يا أهل الغرور . عشرات الآلاف منكم ومن أشباهكم

لا يساوون أنملة شادى الانسانية الأكبر ، ومعتصر خمر الآلهة ، لودفيج فون بتهوفن .

« خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا . . . خفف الوطء ما أظن إلا أنك تطرق أرضا مقدسة . صاح ! ولكن أين القبر الذى عبرت فينا لأقف به لحظة ؟ يا أهل فينا ، الأحياء منكم والأموات ، هل من يدلنى على قبر الرجل العظيم ؟ »

وكلما عدت إلى الكتاب الدليل أشار دائما فى اتجاه القبر رفيع العماد . . . لباشمهندس بلدية فينا . ويحك يا كبير المهندسين ! ألا نفرغ من شأن هندستك وبلديتك اليوم ؟ ويح قبرك العالى يحجب الركن الهادئ والرحبة المقدسة حيث يرقد بتهوفن إلى جانب شوبرت ، إلى جانب برامز . هكذا أرادت فينا أن تجمع الرفات من هنا وهناك لتنشئ ما أسمته ركن الموسيقيين ، وهو ركن غير جدير بهم خلف ذلك الضريح الصلف الذى أقامه لنفسه باشمهندس البلدية . وإن عزت الرفات على أهل فينا ، لا عليهم ، فالمثال يقيم نصبا وتمثالا لذلك الطفل الالهى ، مدلل أهل عبقر ، فلفجانج أماديوس موزارت . دفن بمقابر الصدقة ذات يوم مطير لم يسمح للمشيعين بالسير إلا إلى باب القرافة . ولما عاد الأصدقاء بعد أسبوع يزورون المرحوم ، كان حفار القبور ذهب للقاء ربه فلم يستطيعوا أن يعرفوا قبر موزارت . من التراب أنت يا موزارت ، وإلى التراب تعود !

أما بتهوفن فقد صحت فينا ذات يوم من شهر مارس سنة ١٨٢٧ لتعلم بأن رجلها العبقرى مات وذهب عشرون ألفا من أهلها يشيعون جنازة لودفيج فون بتهوفن . ولو قدم كل منهم دانقا أو درهما للعبقرى فى أيامه الأخيرة ، لما احتاج إلى طلب المعونة من الجمعية الفلهارسونية فى لوندرة . ولا يضايق أهل فينا إلى اليوم ، وربما كان إلى غد وبعد غد ، إلا أن تذكرهم بأن الفلهارسونية اللندنية وحدها ، هى التى خفت إلى معونة بتهوفن فى عوزه ومرضه الأخير . ونحن لا ننسى لها تلك المكرمة ، وبتهوفن فى أحاديثه وخطاباته الأخيرة يريدنا أن نكرم دائما أريحية تلك الجماعة .

نقم أهل فينا على معنى التعريض بهم ، حين التجأ رجلهم العظيم إلى الجمعية الانجليزية ، فراحوا يلوثون سمعة خاصته بمناسبة سبعة أسهم متواضعة وجدت فى خزانة المتوفى كان يحرص عليها بتهوفن حرص البخيل ، لتكون

إرث ابن أخيه الضال . فكتب صديقه شندلر إلى موشيلس فى لوندرة يرجو « الدفاع عن شرف أصدقاء بتهوفن والجمعية الفلهارمونية بمعاقبة السفلة Kanaillen Volk . يجب على الجمعية الفلهارمونية أن تذيع معرفة لوندرة بأن الحفلة الكبرى التى عزفت فيها السمفونية التاسعة والقداس الحافل لأول مرة بفينا فى مايو ١٨٢٥ لم تجلب لبتهوفن غير ثلاثمائة فلورين من الورق بعد أن دفع كل المصاريف ، ومن ضمنها ألف فلورين لادارة المسرح ؛ وأن المشتركين لم يدفعوا دانقا واحدا لمقاصيرهم ؛ وأن بتهوفن ، وقد دعا شخصيا أعضاء الأسرة الامبراطورية لم ير واحدا منهم يحضر الحفلة . وأنه لم يرسل واحد من البلاط فلسا الخ الخ . . . كل هذا يجب أن يعرف ويذاع . إن فينا ظلت تعلم بمرض بتهوفن مدى شهرين ، فلم يفكر واحد من أهلها بحالته ولا بصعوباته المالية . ألم يكن من حقه فى هذه الظروف أن يطلب المساعدة؟ فوالله لو لم تبادر الفلهارمونية إلى معونته لمات بتهوفن ودفن مثل هايدن يشيعه خمسة عشر نفسا ! »

وقفت على ضريح بتهوفن لحظات أتلو اسمه على صفائح رمسه المرمرى تعلوه مسلة قصيرة حفر عليها رسم قيثار ، وأستعرض حياته من مسقط رأسه فى بون على نهر الراين سنة ١٧٧٠ حتى وفاته سنة ١٨٢٧ بضواحى فينا . لحظات فيها من المناجاة ما يعرفه كل من حج إلى قبر عزيز .

ولقد تعقبت آثار الموسيقى الجبار بمدينته ، فزرت بعض المنازل التى سكنها فى هايلجنشتات ونوسدورف ، ومنها ذلك المنزل المتواضع ، يصعد إلى مسكنه من فناء داخلى على سلم يغطيه اللبلاب ، حيث ألف سنة ١٨٠٣ سمفونية البطولة « الارويكا » . وقضيت الظهيرة وما بعدها أتمشى فى ذلك الركن من غابة فينا الذى يعرف اليوم باسم بتهوفنجانج ، والذى كان يرتاده وهو يفكر فى وضع ألحان سمفونيته الريفية « الباستورال » . ووقفت بتماثيله العديدة المقامة فى ميادين فينا ومتنزهاتها . وفى كل روحاتى وغدواتى تتجاوب ألحانه فى رأسى ، فيختلط لحن «السونات إلى كرويتزر» بنغمات السمفونيات التاسعة والسابعة والخامسة والسادسة ، ويتألف كونشرتو الكمنجة بكونشرتو الامبراطور أو بأنغام الأباسيوناتا والكواتيور الرابع عشر .

ذلك لأن ألحان بتهوفن اتصلت بصميم حياتى الوجدانية والعاقلة اتصالا

غريبا . فكانت السمفونية السابعة أول ما سمعت من موسيقاه بل من الموسيقى السمفونية على الاطلاق ، والخامسة والسادسة أول ما فهمت ، والتاسعة أقصى ما ارتقت إليه روحى صعوداً إلى قمة المثالية ، فى جبال الفن الرفيع .

كنت أستمع ذات يوم إلى إذاعة عربية عن بتهوفن ، إذ حسبت — وليتنى ما حسبت — أن بلدى وأهل بلدى بدءوا يدركون من هو بتهوفن ، وما هى الموسيقى التى رفع من شأنها بتهوفن ، أو أن هناك على الأقل من بينهم من يبشر بموسيقى بتهوفن . وإذا صاحب الاذاعة « يمثل » حياة بتهوفن بتلك اللهجة المجوجة التى عودنا إياها ممثلو الطبقة الثالثة . . . . . . والأولى ! لهجة يختلط فيها نوح النادبات بجئير الحشاشين وردح الرادحات . لقد « مثل » الأحمق بحياة بتهوفن ، دون أن يسمعنا ألحانه . إذ يبدو أن حياة الموسيقيين هى آخر ما وطدنا العزم على معرفته هنا . أو لعل التعاسة والشقاء ، والعويل والبكاء ، هى كل ما قدر لنا أن نسمع به فى حياة الموسيقيين . أما موسيقاهم فبيننا وبينها ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، بالذى أسكر ، والحمد لرب مقتدر ، وما إلى هذا من مفالك المفلوكين ونشيج المتسولين .

كانت حياة بتهوفن حياة شقاء وتعاسة حقا ، وكانت كبتا متواصلا لجميع عواطفه النبيلة تشرئب نحو الحب والصداقة والزواج والأبوة ، فتخدع فى حبها المرة تلو المرة ويعيش الرجل وحيدا شقيا . ثم يصاب فى سمعه فيجتوى المجتمعات ، وهو محب للاجتماع فى المدينة الأرستوقراطية . وأخيرا يتبنى ابن أخيه ، فتتبلور حول هذا التعس كل عواطف الأبوة ، ثم لا يلقى من ذلك المغامر النجس إلا السفه والنكران .

بيد أن ما ينساه الذين لا يفكرون بغير حياة بتهوفن ، أو ما يجهلونه فى الأغلب ، هو أن موسيقى بتهوفن ترتفع بصاحبها وسامعها إلى مجال من التهلل والفرح لم يصل إليه موسيقى من قبل ومن بعد . ولم يجد النقاد ما يصفون به السمفونية السابعة — « تمجيد الرقص » على حد تعبير ريشارد فاجنر — غير نسبتها إلى ديونيزوس إله النشوة المقدسة ، أصل المسرحيات الاغريقية ، فيقولون بأن الجذل الصادر عنها هو « فرح ديونيزياكى » .

ليس أبعد من بتهوفن عن ألحان الألم التى تبدو فى مثل السمفونية المؤثرة « الباتيتيك » لتشايكوفسكى . حتى المارش الجنائزى فى سمفونية بتهوفن الثالثة ،

أو فى سوناتة البيانو ، لحن يستوحى جلال الموت فى رجولة ، ويحزن للميت البطل حزن الأبطال على الأبطال . ومهما صدرت ألحان بتهوفن البطيئة — والحزن من صفات اللحن البطىء غالبا — عن آلام نفسية تؤثر فى سامعها تأثيرا بالغا ، فان السامع لا تنقبض نفسه كما تنقبض لسماع بعض ليليات شوبان المريض . أريد أن أنفى عن بتهوفن أية صفة من صفات الـ morbidezza الرومانتيكية . وإنما ترتفع موسيقاه الحزينة ارتفاعا يشبه فى كثير ما أتخيله عن الارتقاء إلى الأوج الصوفى . وألحان بتهوفن تنتهى دائما برنين السرور والانتصار . والصفة الغالبة عليها هى صراع بين المشاعر المتناقضة ، ينتهى دائما بانتصار الفنان بفنه على صغائر الدنيا ومتاعب الحياة . وهذا النصر نتيجة اعتصار رجل الفن لنفسه ، وتقطير روحه تقطيرا يرتفع بها عن الدنايا ، ويستخرج من علقم الحياة والتجاريب ، خلاصة الشهد الطيب والخمر المعتقة .

أثر هذه الموسيقى فى سامعها ، وفيمن يوقعها ، لا يمكن أن يدانيه أثر موسيقى أخرى . ولقد تكلمت فى موضوع آخر عن النشوة التى أشعر بها وأنا خارج من قاعة الموسيقى السمفونية ، وجلها كان من أثر موسيقى بتهوفن . وأذكر هنا ، فيما أذكر ، أمسية بقاعات السوربون ، من تلك الأمسيات التى كان أوركستر الطلبة يجتمع فيها ليوقع شتى القطع السمفونية . والرئيس يوزع على أدراجنا موسيقى السمفونية الخامسة (دو مينور) . وإذا بذلك الأوركستر الغلبان الخائب ، المكون من ضعاف الهواة يهتز هزة رجل واحد ، ويسير فى إيقاع حركات السمفونية كلها من أولها إلى آخرها فى شبه نشوة علوية ، دون توقف أو تردد . وإذا بنا وبرئيسنا بعد آخر مازورة قد عرتنا دهشة بالغة ، فلا بد أن أمراً ما قد حدث حتى نوقع السمفونية بهذا المزاج و يمثل ذلك التوفيق .

الحقيقة أن السمفونية الخامسة من أقرب السمفونيات إلى نفوس عشاق الموسيقى . ولقد سمعتها عشرات المرات ، وأدركت تماما أثرها فى نفسى وفى نفس السامعين . ففى كل مرة أشعر بحدث جلل يمتلك على الأفئدة وعيها وإحساسها . وليس هذا شأن السامعين فى عصرنا وحده ، بل فى العصور الماضية أيضا ، وفى سنة ١٨٢٨ بالذات ، بعد مضى عام على وفاة بتهوفن . سرت فى جمهرة السامعين قشعريرة إجماعية على أثر إيقاع السمفونية الثالثة — لحن البطولة

اسما وفعلا — بقاعة كونسرفتوار باريس « كانت هزة الاعجاب بهذا الاتقان قد بلغ أقصى غاياته ، وهى الغاية التى تتعدى حدود الطاقة البشرية . . . لم تكن شبابات وكمنجات نسمعها ، وإنما هو العالم يتحرك بكلياته . . . وإنى لأسائل من شاطرونا هذا الشعور من السامعين : أكانت تلك الموسيقى من عمل البشر ؟ » قائل هذا هو الناقد والمؤرخ الموسيقى الكبير فيتس .

أما الموسيقيون فقد ترددوا فى الغيظ والكمد ، أو صرعوا بين العجب والاعجاب . وأُرتج على أستاذ برليوز فلم يحر قولا أول الأمر ، ثم عاد إلى منزله وود لو أنه لم يسمع . عاد كما يقول برليوز وهو لا يعرف مكان رأسه . ثم هو يثوب إلى رشده قليلا ويقول لتلميذه بلهجة جافيه : ليكن ما يكون ، يجب أن نتجنب تأليف مثل هذه الموسيقى !

فيرد عليه الموسيقى الفرنسى العظيم برليوز بالجملة التى حفظها له التاريخ كما حفظ موسيقاه :

« اطمئن يا سيدى الأستاذ . لن يؤلف أحد كثيرا من مثل هذه الموسيقى ! »

وصف برليوز حفلة سنة ١٨٣٤ لإيقاع السمفونية الخامسة : « والناس حيارى أمام تلك الموسيقى الغلابة التى ينهض لها الجمهور منذ مطلع حركتها الختامية ، فيغطون بحماستهم على صوت الأوركستر . هذا إلى أن شعور الآلاتية بهذه الموسيقى كان يملك عليهم وعيهم امتلاكا ، والناس ما بين ضاحك وباك . . . ومدام ماليبران (المغنية الكبرى فى ذلك الوقت) يغمى عليها فى مقصورتها . . . وضابط من ضباط نابليون القدامى يرفع ذراعيه للسماء صائحا : هذا والله هو الامبراطور . . . إنه الامبراطور ! »

قال رومان رولان : « مثل هذه الموسيقى تشع سحرا خارج نطاق العقل . لأن ذلك الأرفيسى الذى ألفها كان ، من بين جميع فنانى الغرب الحديث ، أكثر الفنانين نشوة إلهية . كان فريسة القوى البدائية ، كان رجل الالهام والتصور الدفين فى أقوى ما يصل به الوحى من عنف التركيز . وإن قوة التركيز هذى هى أولى الصفات فى عبقرية بتهوفن ، بل هى الصفة الأساسية . . .

« وأيا كان اللحن ، أينما كانت اللحظة من لحظات اللحن ، صفحة منه أو جملة ، فانك تشعر بكيان الرجل يغوص فى بحار الفكر غوصا . . .

« وهو فى لحظات التجلى كان يبدو كمن أصيب بمس ، لأنه لم يعد يملك

نفسه ، وإنما هى الفكرة استحوذت عليه ، أينما وجد ، فى الطريق العام ، أو فى المتنزه ، أو بين الناس . فالعالم يتلاشى حوله إذ ينضوى على صور مخيلته ، يطارد الفكرة حتى يأخذ بتلابيبها فيلويها بين يديه ويحتضنها حتى ليمتزج بها امتزاجا ، ثم هو لا يخرج عنها إلا وقد حولها إلى صور متعددة . . . ذلك ما يحس به السامع لموسيقى بتهوفن وهو يتابع إيقاع النغم وتواليه ، ويتأثر بتحولاته وتصويره ، ينزل إلى ظلام أغواره ، ويرتفع إلى أضواء قناته . . . بتهوفن هو اليوجى الغربى . ذلكم هو سر سيطرة موسيقاه على الناس فى كل زمان ومكان . »

O Freunde, nicht diese Toene ! sondern last uns angenehmere Anstimmen und freundvollere !

Freude ! Freude ! Freude, schoener Goetterfunken,
Tochter aus Elysium !

يا جذوة الفرح ، يا بنت وادى الهناء ! أيها القبس الالهى الجميل !

هذا هو مطلع أود (قصيدة) شيللر « الفرح » التى ختم بتهوفن بتلحينها آخر سمفونياته . وكان الفرح والتعبير عن الفرح أجلى آمال بتهوفن منذ أيامه الأولى فى مسقط رأسه على ضفاف الراين . وها هو ذا بعد أن حطمته الحياة وطحنته الآلام ، وقضى المرض على سمعه ، وهدت الأوصاب من بنيته القوية ، يضيف الصوت الآدمى إلى السمفونية لأول مرة فى تاريخ الموسيقى . كأن لم يكفه ما تخطاه طول حياته من أوضاع فى السوناتة والكونشرتو والرباعية والسمفونية ! هذا هو يلحن القصيدة لرباعى الأصوات ، ويداولها بين الرباعى والخورس حتى آخر السمفونية التاسعة . وفى ذلك يقول رومان رولان :

« عند ما يحين دخول لحن الفرح لأول مرة فى السمفونية ، يتوقف الأوركستر فجأة فيعم السكون ، مما يطبع دخول اللحن بطابع السر الالهى . أجل ! إن هذا اللحن إله يهبط من سمائه متزملا فى أردان علوية . . . يلطف الأحزان بأنغامه الرقيقة ، ويشيع البرء فى القلب المكلوم . يبدأ اللحن هادئا كظيما على صوت القرار ، ثم ينتقل على ضربات المارش إلى بقية أعضاء الخورس ، مشية الجحافل ، كأنه يصرع الآلام فى خطاه الظافرة . ثم يرتفع نشيد التنور

حارا متقطعا كأنه أنفاس بتهوفن وهو يتجول فى الآجام تحت وحى الالهام ، وصوته يرتفع بين الأغصان المتشابكة وقد أصابه مس كأنه الملك لير وسط العاصفة . ثم ينتقل لحن الفرح من ذلك الايقاع الحربى إلى التجلى الدينى والنشوة المقدسة . هذه هى الانسانية تنتفض وترفع الأكف إلى السماء تردد صيحاتها ضراعة إلى الفرح حتى تضمه إلى صدرها . »

ذلكم هو بتهوفن الذى يتمثله بعض بنى قومى ندابا محترفا ، ولعلهم يحسبونه . . . موسيقارا . إنه الفلسفة والشعر والفن اجتمعت فى رجل . قمة من قمم البشرية فى وادى عبقر . هوميروس أو أفلاطون أو شكسبير ، بل الثلاثة معا . الرجل الذى اجتمعت فيه ملكات الشعور الدافق إلى جانب الاحساس الرقيق ، إلى قوة خارقة على التأليف فى عالم النغم معبرا عن إحساساته وأفكاره فى انطلاق وتوازن ووضوح تكاتفت فى تكوين قدرته على الخلق عبقريات الأوائل من سابقيه : يوحنا سباستيان باخ وهندل وهايدن وموزارت . كما أوسعت تآليفه للأجيال التى تلته ، والعبقريات التى استنارت بنبراس موسيقاه آفاقا جديدة للخلق والابداع .

لودفيج فون بتهوفن ، الذى ولد على ضفاف الراين سنة ١٧٧٠ ، ومات بضواحى فينا سنة ١٨٢٧ ، وعاش شطرا من حياته فاقد القدرة على سماع موسيقاه بأذنه ، وإن كتبها بقلبه ، وسمعها بروحه ، وتخيلها كاملة الأداء فى جنانه .

فلننصت إليه ونحن واقفون بجدثه ، فى ركن الموسيقيين بمقبرة زمرنج ، خلف النصب العالى الذى أقامه لغروره باشمهندس بلدية فينا . ولتسمع موسيقاه أجيال من أهل الحضارة ؛ لأن الحضارة بغير بتهوفن وإخوانه من أهل الفن والفكر ليست إلا كلمة جوفاء . ولتصم آذان الرافضين والمشعوذين ، نجوم الأزقة وملاعبى القردة ، فهم يعيشون على هامش البشرية الحقة خشبا مسندة ، مزوقة ملونة ، يحسبون أنهم آدميون متحضرون ، وهم أصغر قدرا من الشعوب البدائية . فهؤلاء على الأقل ليسوا من أدعياء الحضارة .

خفف الوطء أيها الحاج إلى جدث بتهوفن . ما أظن أديم هذه الأرض إلا جديرا بالتهجد والركوع .

حسين فوزى

قبل أن يبدأ التاريخ فى مصر

طلب إلى أحد العلماء ممن يقومون بدراسة عصر ما قبل التاريخ أن يكتب مؤلفاً يستعرض فيه نشأة الحضارات الأولى فى العالم ومراحل تطورها فى الأعصر الغابرة وقبل أن يبدأ التاريخ ، فأتم مؤلفه ، واعتمد فى دراساته على ما كشفت عنه الآثار القديمة من الآلات الحجرية التى كان يستخدمها الانسان ، والأوانى الفخارية التى كان يستعين بها فى معيشته ، كما اعتمد على غير ذلك من مخلفات الانسان الأول ، فى عصر لم يكن فيه الانسان قد اهتدى إلى الكتابة وتسجيل الوقائع تسجيلا لا يخلو من غرض[1].

وبذلك قامت دراسات ذلك العالم على أساس استخلاص الحقائق من الآثار والمخلفات ، دون الاعتماد على نصوص وصف بها الأولون أعمالهم ، وسجلوا فيها الوقائع كما شاءت لهم غاياتهم ، أو كما مالت بهم أهواؤهم . وفى ختام مؤلفه وردت عبارة غضب لها المؤرخون بعض الغضب ، أو هى غاظتهم بعض الغيظ . فهو قد قال إنه انتهى من دراسة عصر ما قبل التاريخ ووصل إلى فجر التاريخ ، حيث لا يترك الناس أعمالهم ومخلفاتهم تتحدث عن نفسها ؛ وإنما يتحدثون هم عنها فى نصوص يسجلونها بأنفسهم ، ويتركونها للمؤرخين ليقرءوا فيها صورة مغرضة عن تلك الأعمال ، وليفهموا عنها ما تيسر لهم وما شاءت ميولهم الفكرية أن يفهموا ، ثم ليرتبوا عليها من النتائج ما قد يكون خالصا للحق ، ولكنه فى غالب الأحيان يأتى مشوباً بالغاية غير مجرد من الهوى . فالعصر التاريخى ، فى رأى هذا العالم ، يمتاز بأنه عصر الميول والأحكام الشخصية ، من جانب من يسجلون الوقائع ساعة تحدث ، ومن يدرسونها فى المنصوص بعد ذلك من المؤرخين . أما عصر ما قبل التاريخ

---

(١) يشمل عصر ما قبل التاريخ مراحل طويلة تنتهى باكتشاف الانسان للكتابة وتسجيله للحوادث فى النقوش والوثائق وغيرها . وبظهور الكتابة يبدأ العصر التاريخى .

فان الآثار تتحدث فيه عن نفسها وتبين عما كان هناك من حضارة بياناً صامتاً ولكنه أصدق من الكلام ، أو هو على الأقل بعيد عن الهوى والغاية . . . أو يمكن أن يكون مجرداً منها إلى أبعد الحدود .

وسواء أصح هذا الزعم من جانب صديقنا الأثرى الذى يدرس عصر ما قبل التاريخ أم لم يصح ، فان الشئ الطريف أن عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخى متداخلان بعض الشئ ، ولم يحدث الانتقال من أحدهما إلى الآخر دفعة واحدة ولا فى وقت واحد . فبداءة التاريخ ليست واحدة فى كل مكان ، وفجره لم يطلع على الناس فى مختلف الأقطار فى وقت واحد ، وإنما سبقت بعض الأقطار غيرها ، فبدأ فيها التاريخ فى عهد متقدم . ومن تلك الأقطار مصر ، التى يقال إن التاريخ المكتوب قد بدأ فيها منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ؛ وإن كان بعض المؤرخين يرى أنه قد بدأ قبل ذلك . فالأسرة الأولى قامت فيما يبدو حوالى القرن الثالث والثلاثين قبل ميلاد المسيح . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نستبينه واضحا لا لبس فيه هو أنه عند ما بدأ التاريخ فى مصر كان المجتمع المصرى قد اكتمل فى تطوره ، واستقر فى نظمه إلى حد بعيد . فالزراعة كانت فنا راقياً يقوم على الرى وتنظيم جريان مياه الفيضان فى الحيضان ؛ والصناعة وغيرها من حرف الحياة العملية والانتاجية كانت كلها قد بلغت شأواً بعيداً من التقدم بالنسبة لذلك العهد ؛ والتجارة والصلات المادية والثقافية كانت تربط بين مصر والعالم الخارجى لا سيما فى الشرق القريب وشرق البحر المتوسط ؛ ونظام المجتمع الداخلى كان قد تطور واستقر ، فحلت الوحدة الإقليمية ووحدة القرية أو مجموعة القرى المتجاورة محل الوحدة القبلية ؛ وحياة أهل الوادى كانت على الجملة قد ارتبطت بالبيئة ارتباطاً قويا فى أقاليم أو أوطان إقليمية أول الأمر ، ثم فى إقليمين كبيرين هى مصر السفلى ومصر العليا مما مهد السبيل للوحدة الشاملة ؛ ونظام الادارة المحلية كان قد اتخذ صورة تشبه من بعض الوجوه ما احتفظت به مصر خلال الأعصر التاريخية واعتزت به حتى وقتنا الحاضر ؛ والدولة كلها كانت قد انتظمت أمورها فصار لها فرعون واحد يرنو تاجه للوحدة الشاملة ؛ والديانات والمعتقدات كانت قد بلغت غاية من الكمال النسبى تمثلت فى أن المصريين منذ ذلك الوقت كانوا يعيشون ويعملون

من أجل الآخرة ، فسمت أرواحهم ، وأُشبعت نظرتهم إلى الحياة بما ارتفع بها إلى أفق يربط بين الدنيا والآخرة ويجمع بين حاجة الجسد ونزعة الروح . وهكذا كانت حياة المصريين عند مطلع التاريخ قد بلغت حدًّا من التطور والكمال يكاد لا يقل كثيراً عما صارت إليه حالهم وأمورهم فى بقية العهد التاريخى . وإذن فان اتحاد الوجهين ، وظهور مصر التاريخية بحضارتها المعروفة ، لم يكن « مطلعاً » لعهد جديد ، بقدر ما كان « خاتمة » لعهد طويل من التطور والتقدم . ولعلنا إن نحن أردنا أن نتفهم المجتمع المصرى وأسسه الأولى ونظمه التى استقرت على الزمن . . . لعلنا أن نجد سبيلنا إلى مثل هذا الفهم الصحيح إذا نحن رجعنا إلى الوراء هذه القرون العديدة ، لنتتبع تطور الحياة فى مصر خلال عهد ما قبل التاريخ .

ويقسم العلماء الباحثون هذا العهد الطويل فى مصر ثلاثة أقسام : هى العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث ، ثم عصر بداءة المعدن أو عصر ما قبل الأسرات . والعصر الحجرى القديم أطولها ؛ لأنه يشمل أغلب العصر المعروف عند الجيوجولين بالبلايستوسين . وكانت حضارات الانسان فيه بدائية ، لم تختلف فى مصر عن غيرها من جهات العالم القديم . كما كان النيل مختلفا فى جريانه وامتداده عنه فى الوقت الحاضر ؛ فكان ينبع فى بلاد النوبة وشمال السودان ، ولا تمتد منابعه إلى هضبة الحبشة ولا إلى الهضبة الاستوائية ؛ وإنما كان نيل مصر والسودان — كما يمكن أن نسميه — يعتمد على الأمطار المحلية فى حوضه الشمالى خلال ما يعرف بالعصر المطير . كذلك لم تكن صحارى مصر والسودان كما هى عليه اليوم من جفاف ؛ وإنما كانت تسقط بها أمطار متوسطة ، اكتست بسببها أرض الصحراء بالأعشاب والأشجار المتفرقة ؛ وعاش الحيوان وسعى الانسان متنقلا فى تلك البيئة المكشوفة . وقد عثر على آلات حجرية من هذا العصر فى جهات متفرقة من صحارى مصر ؛ كما وجدت بعض تلك الآلات مطمورة فى مدرجات نهر النيل ورواسبه الجانبية . والشئ الطريف أن مصر بدأت أول الأمر متشابهة تمام الشبه مع غيرها من أقطار العالم القديم ؛ ولكن حضاراتها الحجرية أخذت بالتدريج تتخذ طابعًا محليا خاصا ، ميزها من غيرها من الأقاليم . والظاهر أن الجفاف أخذ يحل بالتدريج ، فقل النبات فى الصحراء ،

وهجرها الحيوان والانسان إلى مجرى النيل أو إلى قيعان بعض الواحات ؛ وأدى ذلك إلى تطور الحضارة فى مصر تطوراً محليا ، أعطاها فى النهاية طابعها المصرى الخاص . ثم أخذ ذلك الطابع فى التطور والوضوح ؛ حتى إذا ما جاء العصر الحجرى الحديث كانت حضارة مصر والسودان قد اختلفت تمام الاختلاف عن حضارات غيرها من بلدان العالم القديم ، بما فى ذلك فلسطين والشرق الأدنى ، رغم ما بينها وبين هذا الشرق من صلات القربى فى المكان والسكان .

ويبدأ العصر الحجرى الحديث فى مصر فى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبظهوره كان الانسان قد تعلم استنبات النبات ولا سيما القمح والشعير واستئناس الحيوان ولا سيما البقر والأغنام والخنازير ؛ كما تعلم صناعة الفخار وصقل الآلات الحجرية وإتقان صنعها . وبذلك كله تقدمت الحياة والمدنية ، وخطت نحو الاستقرار والارتباط بالأرض والاقليم المحلى أول الأمر ، ثم بالوطن الكبير بعد ذلك . وقد عثر على آثار الانسان من هذا العهد فى جهات مختلفة من مصر قرب الوادى وفى منخفضات الصحراء . فعند الحافة الغربية للدلتا ، فى مكان يقال له مرمدة بنى سلامة قرب الخطاطبة الحالية ، عثر على قرية قديمة ، يقال إنها أقدم قرية عرفها التاريخ أو ما قبل التاريخ . وكان الناس يعيشون فيها فى أكواخ صغيرة من القش المغطى بالطين ، يفلحون الأرض الطيبة على حافة الوادى ، ويربون الحيوان ولا سيما الخنازير والأغنام ، ويقتنصون صيد البحر ، ويصطادون فى الماء والمستنقعات . وكان النظام الاجتماعى على شئ ظاهر من التقدم والتعقيد ؛ فالقرية كان يتوسطها طريق أو « شارع » ، أى إنها كانت « مخططة » تخطيطاً بدائيا ، ولكنه يدل على أن الأفراد لم يكونوا أحراراً يقيمون أكواخهم حيث شاءوا ، وإنما كان هناك حكم يردهم إلى شئ من نظام ؛ وتلك مرتبة لم تبلغها كثير من الجماعات إلا فى أعصر متأخرة ، بل لم تبلغها بعض الجماعات حتى الآن . وفضلا عن ذلك فقد كانت قرية مرمدة بنى سلامة قرية كبيرة تمتد إلى أكثر من نصف كيلومتر ؛ وكان أهلها على شئ من التقدم الروحى ، لهم معتقداتهم التى تقوم على الايمان بالبعث ؛ فهم كانوا يدفنون بعض الزاد مع موتاهم الذين وجدت مقابرهم بين المساكن ، وتوجه فيها وجوه الموتى نحو الشرق ، كأنما

تستقبل الشمس المشرقة أو تواجه النيل والماء والأرض الطيبة مصدر الحياة والخيرات .

وفى مصر العليا وجدت آثار هذا العهد فى مكان يدعى دير تاسا بمديرية أسيوط . ولكنها آثار أفقر كثيراً من آثار الدلتا . فالمساكن قليلة مبعثرة ، مما يدل على قلة السكان ؛ والقرى أو ما يشبهها ليست مخططة ، مما يدل على أن النظام الاجتماعى لم يكن قد بلغ من الشأو ما بلغ فى مصر السفلى إذ ذاك . كذلك كانت مقابرهم بعيدة عن أكواخ السكن ، مما يدل على أنهم كانوا مختلفين عن سكان الشمال حتى فى معتقداتهم الدينية .

وبين الوجهين هناك منخفض الفيوم ؛ وكانت تقع فيه بحيرة كبيرة أعلى كثيراً من بركة قارون الحالية ، عاشت جماعات البشر على حافاتها ، واشتغلت بزراعة الشعير والقمح ورعى الأغنام وصيد البر والبحر . ولكن جماعات الفيوم اختلفت من بعض الوجوه عن جماعات وادى النيل . فالحياة هنا لم تكن مرتبطة بماء النيل وفيضانه ، وإنما كانت الزراعة تعتمد على بعض الأمطار المحلية ؛ إذ المعروف الآن أن بحيرة الفيوم فى العصر الحجرى الحديث قد انفصلت عن النيل ، وأن الأمطار تجددت بعض الشئ بعد أن كان الجفاف قد حل بانقضاء العصر المطير بالمعنى الصحيح ؛ فكانت الزراعة فى أراضى الفيوم تعتمد على الأمطار الشتوية القليلة بدلا من الاعتماد على الرى كما هى الحال فى وادى النيل . كذلك كانت حياة الزراع فى الفيوم تختلط بحياة الرعاة الليبيين ، وتتأثر بطرائق الصيادين والمشتغلين بصيد الأسماك فى البحيرة . فهى إذن كانت حياة مختلفة ذات طابع يختلف من بعض الوجوه عن حياة سكان الوادى فى العصر الحجرى الحديث والبلاد اللاحقة به .

والحق أن الأصل المباشر للحضارات التاريخية فى مصر ينبغى أن نبحث عنه فى وادى النيل ذاته ، لا فى الواحات المجاورة كما قال بعض الباحثين ، ولا فى خارج مصر إلى الشرق فى آسيا المجاورة أو إلى الجنوب فى إفريقية الشرقية كما كان يقال إلى وقت قريب . ولئن كانت مصر قد تأثرت من غير شك بجميع هذه البلدان المجاورة والمخالطة ، فان هذه المؤثرات الخارجية إنما أضافت إلى تنوع مظاهر المدنية والحضارة فى مصر ، ولكنها لم تطمس معالم الحضارة المصرية ولم تطغ عليها . ولعل خير ما نستبين به أصول الحضارة

التاريخية ونظمها الأولية هو أن نستعرض مدنيات مصر خلال عصر ما قبل الأسرات ، وهو العصر الذى يبدأ حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد ، وينتهى بظهور الأسرة الأولى ، وتوحيد الوجهين على يد نارمر ، الذى اشتهر باسم مينا فرعون مصر الأول .

وفى هذا العصر أنتجت كل من مصر السفلى ومصر العليا لونها الخاص من الحضارة . ولكن مصر العليا كانت سبّاقة فى أول الأمر ؛ فظهرت فيها حضارة تعرف بحضارة البدارى ، نسبة إلى بندر البدارى فى شرق النيل بمديرية أسيوط . وقد امتازت بتفوق فى الصناعة ولا سيما صناعة الفخار ، حتى إنه ليقال فى غير مغالاة إن فخار هذا الدور كان أكثر إتقانا فى صنعه وجمالا فى شكله ودقة فى ذوقه من أى فخار صنع فى مصر فى الأعصر التاريخية اللاحقة (١) . وقد يبدو هذا غريباً ، ولكننا نستطيع تفهم اضمحلال صناعة الفخار بعد ذلك إذا أدركنا أنه كلما تقدمت صناعة الأوانى المعدنية حلت هذه الأخيرة محل الأوانى الفخارية فأهملت واضمحلت . وهذا هو السر فى أن الفخار تأخرت صناعته فى الأعصر التاريخية عنها قبل أن يبدأ التاريخ ، بل قبل أن ينتشر استعمال المعادن .

على أن الشىء الملحوظ فى حضارة البدارى أن سكانها يرتبطون فيما يبدو ببعض سكان شرق السودان . وأغلب الظن أنهم انحدروا من سلالة حامية قديمة ، هى التى عمرت وادى النيل أو أغلبه ، فانتشرت فيه نحو الشمال ونحو الجنوب . وقد كان لهؤلاء الأقدمين نظام اجتماعى معقد نستطيع أن نتفهم شيئاً عنه من دراسة مقابرهم وجباناتهم حيث يدفن الشبان فى قسم خاص منعزل عن مقابر النساء ؛ وهذا فى حد ذاته ربما كان معناه أن نساء الجماعة كان يستأثر بهن عدد محدود من الرجال البارزين فى المجتمع . ولا غرو ، فالنساء فى هذا الدور القديم من الحضارة كن يعتبرن ثروة عظيمة ، فعلى جهودهن تقوم الزراعة ، وعلى قدر عدد الزوجات تكون ثروة الرجل ومساحة الأرض التى يستطيع أن يفلح .

وبعد دور البدارى جاء دور آخر من الحضارة فى مصر العليا . ولكن

---

(١) المقصود هنا « الفخار » لا « الخزف » بالطبع .

حضارة الدلتا ومصر الوسطى كانت قد تقدمت إلى حد ظاهر بعيد ، تشهد بذلك حضارة جرزة فى مصر الوسطى الشمالية وحضارة المعادى قرب رأس الدلتا. والظاهر أن أهل الشمال قد ازدهرت حضارتهم وعلا شأنهم ، فتوغلوا أثناء الدور الجرزى فى الصعيد حتى وصلوا قلبه ، وأثروا فى سكانه وفى حضارته تأثيراً بالغاً ؛ وآتى تزاوج الحضارتين ثماره ، فازدهرت الحياة فى مصر ، وتقدمت صناعة المعدن ، كما تقدمت الفنون الدقيقة ؛ واحتكت مصر — ولا سيما أيام حضارة المعادن بل قبل ذلك — بالعالم الخارجى والشرق الأدنى ، فأخذت عنه وأنفذت إليه بعض ألوان مدنيتها وصناعاتها ؛ ثم ازداد الاحتكاك واتسع مداه ، حتى ليقال إن اتصالات مصر فى الدور السابق للأسرات مباشرة قد امتدت من الفرات وما وراءه شرقا إلى أرض ليبيا وما وراءها فى جوف الصحراء وشمال إفريقية غرباً ، ومن جزائر البحر المتوسط شمالا إلى قلب السودان وجنوبه ، بل إلى هضبة شرق إفريقية وبعض أطراف القارة فى أقصى الجنوب . وبهذا كله اتسع أفق المصريين ، وأخذت جماعاتهم فى داخل أرض الكنانة تستشعر وجودها كمجموعة قائمة بذاتها ، لها طابعها الحضارى الذى يجمع بينها من جهة ، ويميزها من العالم الخارجى وجماعاته وحضاراته من جهة أخرى . وكان هذا إيذاناً بنهوض الشعور الاقليمى فى مصر ، وازدياده قوة على مر الزمن ، حتى تبلور آخر الأمر ، وانتهى إلى الوحدة الشاملة بين الدلتا والصعيد .

ولكن شعور الوحدة بين سكان النيل الأقدمين يستحق المزيد من البحث ومن استقصاء مظاهر الصلة المتطورة بين الانسان وبيئته ، أو إن شئت فقل بين النيل وأبنائه ممن يعيشون على ضفافه فى أرض مصر الطيبة . ذلك أننا إذا رجعنا إلى دراسة الآثار وجدنا أن أماكن السكنى فى العصر الحجرى الحديث وفى دور البدارى وما تلاه مباشرة من أوائل عصر ما قبل الأسرات ، كانت كلها تقع عند حافة الصحارى المجاورة للوادى بعيداً عن التربة السوداء؛ فكانت كلها بمنأى عن مجارى الفيضان وأخطاره . ولم تكن الصلة قوية إذ ذاك بين هؤلاء السكان الأقدمين وبين جريان المياه فى النيل . بل لقد رأينا فى الفيوم مثلا أن الزراعة كانت تقوم على المطر بدلا من الرى . أما ابتداء من دور الحضارة الجرزية فاننا نجد الآثار فى الأرض الزراعية نفسها

(أو عند حافتها) . ويظهر أن السكان هبطوا منذ ذلك العهد إلى « قاع الوادى » وإلى جوار مجرى الماء . وهنا ارتبطت حياتهم بالمياه الجارية ، فتعرضوا لأخطارها المشتركة فى الفيضان ، مما دعاهم إلى التعاون والوحدة لكى يدفعوا تلك الأخطار ؛ كما اضطروا فى الوقت نفسه إلى تقسيم أرض الوادى إلى حياض لتنظيم ريها بمياه الفيضان ؛ وهذا فى حد ذاته زاد من ارتباطهم بالأرض والبيئة المحلية ؛ فترك الناس « الوحدة القبلية » ، وصارت « الوحدة الاقليمية » هى طابع المجتمع ؛ كما يستدل على ذلك من شارات الأقاليم وشعاراتها التى نراها مرسومة على أوانى الفخار من ذلك العهد . وكانت هذه الوحدة الاقليمية بداءة وطريقاً إلى وحدة أكبر منها ؛ لا سيما أن إلى قرب الناس من مجرى الماء قد مهد لهم سبيل الاتصال والاحتكاك فى التجارة والادارة وغيرها عن طريق هذا الشريان الخالد ، الذى تكاملت فيه قوى الطبيعة ؛ وأتم بعضها بعضاً على نسق بديع ، فجرت مياه النهر من الجنوب إلى الشمال تدفع الفلك نازلة مع التيار ، وجرت الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب تدفع الفلك مصعدة ضد التيار . وبهذا كله اتسعت الوحدة ، وتشابكت حلقاتها فى الصعيد ثم فى الدلتا ، حتى انتهى الأمر بظهور نارمر أمير طينة وحاكم مصر العليا ، الذى أتم ما مهدت الطبيعة له ؛ فأقام قاعدته فى منف ، ثم فتح الدلتا ، ووحد الوجهين فى قطر واحد .

وهكذا جاءت هذه الوحدة السياسية تسجيلا لما بين الوجهين من وحدة طبيعية . بل هكذا انتهى عهد طويل من التطور المادى والاجتماعى والادارى إلى هذه الوحدة الشاملة فى حياة المصريين ؛ وتمشى مع هذا التطور العام تطور فى ثقافة أهل مصر كان من ثمراته تلك الكتابة التى عرف بها الانسان كيف يسجل الوقائع . والظاهر أن وقائع الدور السابق للوحدة مباشرة كانت من الضخامة والأهمية بالنسبة لأبناء الوادى إذ ذاك بحيث سعوا إلى تسجيلها والمباهاة بها على نحو من الأنحاء ؛ فرأينا نارمر ذاته يسجلها على لوحته المشهورة ؛ ثم رأينا خلفاءه من حكام مصر وملوكها الأولين يستمسكون بهذا التسجيل ويتابعونه كل فى دوره ، حتى تكامل لدينا سجل الحوادث دوراً بعد دور ، واتخذت قصة التاريخ شكلا جديداً غير قصة ما قبل التاريخ ؛ وجاء ذلك العهد الذى تحدث عنه عالمنا الذى أشرنا إليه أول

هـذا الحديث ، فأشفق من أن يعالجه ، وهو لم يعتد قراءة النصوص وفهمها على وجهها الصحيح أو المقارب من أن يكون صحيحاً ، بل هو لم يعتد إلا أن يدرس الآثار التى خلفها الانسان ، وأن يدع تلك الآثار تحكى قصتها الصامتة ، التى يجد فيها أمثال هذا العالم صمتاً أبلغ من الكلام !

أرأيت معى يا صاحبى القارئ أننا إذ نتحدث عن عصر ما قبل التاريخ إنما نتحدث عن عهد سحيق ولكنه لا يخلو من روعة ؟ وأننا إذ نتحدث عن مطلع التاريخ لا نقصد بداءة القصة البشرية فى الحضارة بقدر ما نقصد نهاية عهد طويل جدا من التطور والتقدم فى حياة الانسان ؟ وأننا إذ نعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة إنما نستند فى دراستنا إلى أساس من البيان الصامت الصادق ، بدلا من أن نعتمد على نص قد يكون صادقاً وقد لا يكون كذلك ، وهو فى أغلب الأحيان منحرف عن الحق بمقدار يسير أو خطير ؟ إن كنت قد رأيت معى ذلك كله فلا شك أنك تقدر خطورة هذه الدراسات السحيقة ، التى تعالج قصة الانسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين ، بل خلال عهود أرجو ألا أزعجك كثيراً إن قلت إنها قد تمتد إلى مئات قليلة من آلاف السنين ! أو هى تمتد فى القليل إلى عشرات الآلاف فى العصر الحجرى القديم ، وتبلغ آلافاً سبعة أو تزيد منذ بداءة العصر الحجرى الحديث فى بلد كمصر . ولئن نحن عرفنا أن مجتمعنا المصرى كان مكتمل التطور عند ما بزغ فجر التاريخ وعرف الناس الكتابة والتسجيل ، برزت أمامنا حاجتنا الملحة إلى أن نعنى بهذا العهد الطويل عناية خاصة ، فنكشف عن نشأة المدنية وتطورها فى مصر قبل التاريخ ، ونحاول بذلك أن نتتبع أسس الحياة ومقوماتها فى وادى النيل ؛ ونمهد لأن نفهم نهوض الحضارة التاريخية على أساس جديد . ولئن نحن فعلنا ذلك فسنجد أن حضارة مصر الفرعونية لم تنشأ بين ليلة ويوم ، ولم تكن حضارة مستعارة دخلت إلينا من الخارج ؛ وإنما هى نشأت فى أرض وادينا ، وتطورت فى تربته الطيبة خلال أعصر طويلة ، يرجع أولها فى القليل إلى بداءة العصر الحجرى الحديث ، وتتضح معالمها المصرية المحلية فى أواسط عصر ما قبل الأسرات ، ثم تضطرب اضطراب النضوج والعنفوان قبيل وحدة الوجهين ، حتى تتخذ

صورتها الكاملة كأبدع ما تكون خليقة الأمم عند ظهور فرعون الأول وقيام الأسرات .

أيجيء يوم نعنى فيه بهذا التراث الأقدم من قصة الحضارة فى حياة المجتمع المصرى الأول ؟ لعل وعسى ! . . . بل استغفر الله . . . فلعل هذا اليوم أن يكون أدنى وأقرب مما يبدو لى ولفريق من الناس !

سليمان حزين

VOYAGE EN GRÈCE 1947

BERNARD GUYON

رحلة فى اليونان عام ١٩٤٧*

الأربعاء ١٧ : الرحيل إلى ديلوس . ها نحن أولاء على ظهر السفينة الخلفى نتطلع لأول مرة إلى منظر أتيكا ، ونضع أخيراً هذه الأسماء العظيمة على مكانها من الأرض : الأكروبول ، ليكابت ، البرنس ، البنتيليك ، القمم الايجلية Monts Egaléens ، سلامين . أشار لى شخص إلى ذلك المضيق الصغير الذى بدا فيه لأول مرة انتصار الحرية على الإستبداد فى مظهر متواضع ولكن فى معركة حاسمة . وعند مخرج الميناء يتسع المنظر ، وحين تبرز عند الأفق دور أثينا المنبسطة على الجبال ننعم النظر فى شبه جزيرة أتيكا الطويل ، ثم نلمح على بعد أول جزر السيكلاد Cyclades . ذهبت أثرثر بضع لحظات مع الأستاذ ج . . . الذى لا يمل إلقاء الخطب لمن يريد سماعها . إنه يسرد على سنواته التى قضاها فى أمريكا ، ويؤكد الأهمية التى يعلقها الأمريكيون على الدين ، ويوضح بهذا معارضتهم القوية للشيوعية السوفيتية وبالتالى موقفهم الواضح فى صف الحكومة اليونانية الحالية ضد قوات المقاومة . إنه يكلمنى ، وبالطبع يكلمنى فى هذه المسألة خاصة . هذا الرجل يحب اليونانيين حقا كما لو كان أحدهم . وقد جاء ، كما قال لى ، فى مهمة مراسلة جريدة المساء ببروكسل . ولم يكتف بمحاولة النظر فى الموقف نظراً جليا ، وإنما أراد ، وقد كوّن لنفسه رأياً ، أن يجعل من يلقاه من اليونانيين ، يشاطره هذا الرأى

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

كتبت هذه الصفحات فى آخر الصيف الماضى بمناسبة رحلة قام بها الكاتب فى اليونان . وقد دبرت له الظروف الملائمة مقابلات ومخاطرات مثيرة . فدون انطباعاته وذكرياته فى الحال فى يوميات رحلته ، وتفضل فأرسل إلينا بعض أجزائها . وعلى القارىء ألا يظن أنه سيجد هنا دراسة عميقة لحال الشعب اليونانى البائس ، وإنما سيجد شهادة نزيهة ، شهادة تساعد على فهم حالة معقدة ، تصورها لنا شهوات جامحة لاتبالى الحقيقة . (هيئة التحرير .)

الذى نستطيع التنبؤ إذا عرفنا أن صاحبه بلجيكى من أصل كاثوليكى وأن ميوله حرة . ومن ناحية أخرى ، لم يشق على هذا المؤرخ أن يكتشف فى هذا الشأن أخطاء من الجانبين ، كما يحدث فى كل عمل إنسانى . وقد أخذ على نفسه إذن أن يبسط ذلك لأناس ذوى شهوة ، أناس أضمر بعضهم لبعض بغضاً قاتلا . واعترف لى بصراحة ، أنه قد أخفق فى مجهوداته من أجل التوفيق ، واعتبر الموقف موئساً . وكان هو أول من كلمنى عن « حوادث ديسمبر » . وكنت أجهل ذلك الشهر الذى يعتبر شهراً رئيسيا فى تاريخ اليونان المعاصر . فهو بمثابة هوة : كان ذلك فى سنة ١٩٤٤ بعد التحرير بقليل . وكانت فى الحكم حكومة ائتلاف وطنى . فماذا حدث بالضبط ؟ ذلك أمر تصعب معرفته . فهل المظاهرات مدبرة ؟ هل هى محاولة ثورة من جانب اليسار ؟ أهو انقلاب من ناحية اليمين ؟ المؤكد هو أن الدم اليونانى قد جرى غزيراً طيلة أيام الحرب الأهلية وأن القوة بقيت فى الحكم ، أى إن القوة صارت إلى حكومة من اليمين لم يكن لها هم منذ ذلك الحين إلا أن تقتل الثورة .. فانتهجت سياسة انتقام ونفى وتفتيش بوليسى . وبينما كان أكثر أولئك المنفيين أو المشردين من الماكى[1] ذوى الميول الشيوعية ، إذا الذين دُعوا إلى الحكم رجال أشداء ألفيناهم — كما لو كان ذلك مصادفة — من بين مشاهير المتعاونين مع الألمان . ومن هنا نشأت الحرب الأهلية . وقد قررت عناصر اليسار أن تنظم حكومة ثورية تعتمد على جماعات مسلحة تحتل بعض المناطق الجبلية وخاصة فى الشمال فى منطقة البارناس وفى المنطقة الجبلية فى الوسط أيضاً فى البلوبونيز . وأرادت الحكومة الأمريكية أن تقف هذه الحرب الأهلية فأرغمت أخيراً حكومة تسالداريس ، وهى حكومة من أقصى اليمين ، على الاستقالة ، ودفعت إلى الحكم رجلا من الأحرار هو سوفوليس ، فأصدر فى الحال عفواً سياسيا ظهر أنه — مع الأسف — دواء مسكن فحسب ولم يؤد إلى النتائج المرجوة منه .

أثينا يوم السبت ٢٠ : علينا أن نستوفى أوراقنا لدى الشرطة . أخذنا موعدا مع ب . . . فى أمونيا . وقبل أن أصعد فى الترام الذى يوصل إليها

---

(١) الماكى Maquis اسم يطلق على جماعات المقاومة للاحتلال النازى (المترجم) .

سمحت لنفسى بشئ من الترف ، فاشتريت جريدة إذ أردت أن أختبر فى اللغة اليونانية الحديثة معرفتى باللغة اليونانية القديمة . ولما كنا قد قابلنا أمس على الباخرة صحفيا قال لنا إنه يعمل بجريدة حرة مؤيدة لسوفوليس اسمها «إليتاريا»، فقد طلبت ذلك الاسم من البائع فأجابنى أنها ليست معه، واقترح على صحيفة أخرى قال إنها من اللون السياسى نفسه ، وما كاد ب . . . يرانى حتى قال لى ، وعلى شفتيه بسمة فيها شئ من السخرية وشئ من القلق : إنى أحمل بشكل واضح جدا جريدة شيوعية (وللجرائد الشيوعية الحق فى الظهور) وإحداها تحمل أيضا اسم : إليتاريا فى عنوانها [1] فأخفيت بعناية الصحيفة الخطرة . وذهبنا إلى إدارة البوليس ، وهى مكان قذر بعض الشئ ، سئ النظام بعض الشئ ، ولكنه لا يزيد فى ذلك كثيرا عن مثيله فى فرنسا . وقد كلمنا القوم بالفرنسية ، على أن ب . . . يتكلم اليونانية بسهولة . وأنجزوا لنا أوراقنا بظرف فائق وبسرعة مناسبة . ولكن الأمر شديد التعقيد ، فعلينا الحصول على ترخيص بالاقامة ، ثم ترخيص بالخروج . (وكان من الممكن إعطاؤه لنا فى الحال) ، ثم (وهنا النقطة الدقيقة) « تراخيص خاصة » للذهاب خارج أثينا . ولم نكن قد صممنا بعد على خطة معينة ، وكنا مترددين بين نزهة فى البلوبونيز : أرجوس وألمبيا الخ . . . وبين نزهة فى دلف Delphes وكانت هذه الرحلة الأخيرة تغرينا كثيرا ولكن كان فيها بعض الأخطار ، لأن قرية دلف فى أيدى « الأندرتس » أى المقاومين . وقد دهشنا جدا لأنهم صرحوا لنا بالذهاب إلى دلف . ولا شك أن ذلك كان بصفتنا أجانب وبصفتنا علماء آثار ، وربما كان مبعثه أيضا الرغبة فى الاعتراف أمامنا بأن تلك المنطقة غير خاضعة لسلطان الحكومة . كل شئ إذن مستوف ، ويمكننا أن ننصرف إلى غير ذلك من الأمور .

السبت ٢٢ : قررنا أخيرا السفر إلى دلف وعدلنا عن زيارة أرجوس وألمبيا . لقد سافرت إلى هناك سيارتا أجرة منذ يومين حاملتين بعض الزملاء من المدرسة . وستنتظرنا إحداهما لنعود بها برا إلى أثينا. وسافرنا عن طريق كورينثه وإيتيا Itéa .

---

(١) ألغى هذا الحق حديثا ، فى أكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وركبنا القطار دون كبير جهد إلى كورينثه . وتم تفتيش أوراقنا ، وهى مستوفاة بسرعة . هناك عدد كبير من الناس ولكن الجميع يجدون مكانا لهم فى هذا القطار المتواضع ذى الدرجة الواحدة . وعند ما ذهبنا لنجلس فى ديوان خال ، أشارت لنا فتاة جذابة ، متواضعة فى مظهرها ولكنها فى الوقت نفسه تفيض حياة ، ودعتنا إلى الجلوس معها . وفهم ب . . . سريعا أنها تسافر وحيدة ، وأنها تريد أن تكون تحت حمايتنا بدلا من أن تكون تحت حماية الجنود الذين يملأون هذا القطار ، وهى حماية غير مطمئنة . وكان يصحبها والدها ، رجل ممتاز وسيم ، وقبّلت الفتاة يده باحترام ثم قبلت وجنتيه فى حب عند ما حانت ساعة الرحيل . وهذه الرفيقة الرشيقة ستتكلم طول الوقت مع ب . . . حتى كورينثه . وهو نفسه سيلعب دور المحامى بجد كثير مما سيعرضه لبعض السخرية منا . وجاء إلى ديواننا بعض المسافرين وكان شكلهم يثير التساؤل ، ثم فهمنا بعد لأى أنهم فريق من الممثلين وبينهم بضعة جنود توسط أحدهم فى ود صدر إحدى زميلاته ، وربما كانوا ذاهبين للترفيه عن الجنود الذين يطاردون الثوار فى جبال البرناس . وكان بينهم صبى حديث السن يقوم بدور البهلوان ، وأرانا وهو فخور بعض صور أخذت له أثناء القيام بحركاته . وكانت فى الممر الخارجى ممثلة الأوبرا تغنى أدوارا عظيمة ويصاحبها مغن طويل سمين يرد عليها وهو يتلوى فى بذلته الزرقاء الصارخة . لقد كنا فى عربة تيسبيس[1] Théspis . ولم تمنعنا بهجة رفاقنا من أن نتطلع إلى تعرجات الكورنيش الذاهب من ألوزيس إلى ميجار d'Eleusis à Mégare ومن ميجار إلى كورينثه ، ولا من أن نمتع النفس فى كل محطة بتناول النوار وعناقيد العنب المليئة التى يعرضها علينا عديد من الباعة الجائلين . وقد تطلعنا إلى مضيق كورينثه وإلى القناة الدقيقة التى تخترقه باهتمام عظيم . ولم يجد الألمان مشقة فى سدّها عند رحيلهم . وهى لا تستخدم منذ ذلك الوقت . ولهذا كان لابد لمن يريد السفر بحراً إلى باتراس وكورفو من أن يركب أولاً القطار من أثينا إلى كورينثه .

وتناولنا فى الميناء بعض الحلوى قبل أن نركب المركب ، ورأينا والقلق

---

(١) تيسبيس شاعر يونانى قديم ، خالق المأساة لدى اليونانيين (المترجم) .

يخامرنا طوائف من الجند تسير فى اتجاه رصيف السفرُ ، وكانوا مزودين بالأسلحة ، ويسيرون فى نظام حسن . ليس هناك شك فى أنهم سيركبون نفس المركب التى سنستقلها ، إذ ليس هناك مركب أخرى ، وهى ليست كبيرة . فلنسرع إلى اتخاذ أمكنتنا بها . وقد أبعدنا أول الأمر ، ولكنا رأينا عن بعد بعض الصيادين ينقلون المدنيين فى قوارب صغيرة تسير بالمجاديف حتى توصلهم إلى الباخرة وهى ليست بعيدة وتبدو ثابتة لا تتحرك . ولكن الريح قوية والقوارب ذاهبة آتية تتراقص فوق الأمواج الصاخبة ، وما كدنا نجتاز الحاجز الذى كان يحمينا حتى ألفينا أنفسنا نتدافع فى قفزات مخيفة . إنا لا نحس أى ضيق جسمانى، ولكننا فى خوف شديد . أمامنا بنت صغيرة لا تكف عن رسم علامة الصليب ، وأمها تحتفظ أول الأمر بهدوئها ثم لا تلبث أن ترسل صيحات الفزع . وها نحن أولاء بجوار الباخرة . وأصبحنا أكثر هدوءً لأنها تحمينا ، ولكنا للأسف لا نستطيع الصعود لأن قارباً كبيراً محملا بالجنود سد طريقنا . قارب يفوق قاربنا كثيراً فى الارتفاع ورغم ذلك لا يستطيع راكبوه أن يصعدوا إلى الباخرة إلا بمشقة عظيمة فعليهم أن ينتظروا حتى ترفعهم الأمواج إلى الارتفاع المناسب. فماذا نحن صانعون ؟ وأخيراً تصلح الأمور . فيمد لنا سلم متنقل من الباخرة، ويستطيع الكل أن يصعد بمعجزة ، وحتى حقائبنا لحقت بنا . وأسرعنا نصعد إلى عل لنجد على سلم القيادة ، المكان المفضل لدينا ، وسكنت الريح قليلا فقليلا . ثم ختم الليل البهيم . ها هى ذى أنوار المدينة تلمع بعيداً . ما زالت القوارب الصغيرة تعمل حول الباخرة . وأخيراً رحلنا . سنكون فى إيتيا بعد ثلاث ساعات ، حوالى منتصف الليل .

ورحلة الليل هذه ممتعة . البحر الهادىء يرجحنا وترتفع بجوارنا أغنيات شعبية . السماء مشرقة بالنجوم . وعلى جانبى المضيق تنبسط أنوار القرى . نزلت و ب . . . إلى قاع السفينة ، على ما فى ذلك من خطر ، لنبحث عن شىء من الغذاء . يا لها من رائحة كريهة ، ويا لها من فوضى فى الناس وفى المتاع ! وأخيراً كان صيدنا طيباً فتعشينا خبزاً وجبناً ونبيذاً ونحن جلوس على سلمنا .

ولما قاربنا نهاية الرحلة بدأ بغتة ضابط شاب الحديث معنا وكان قد أنصت لنا منذ طويل ونحن نتكلم الفرنسية . وبدا أول الأمر شديد الهجوم « فيمَ

يفكر مراسلوكم الصحفيون حين يذيعون عن بلدنا مثل هذه الشائعات ؟ لماذا يصموننا بالفاشية ؟ إنهم لا يدرون عمّ يتكلمون . إنهم يشهّرون بنا . وسيكون مصير فرنسا أن يبغضها اليونانيون أشد البغض . » وأجبناه فى هدوء ، فلفتنا نظره إلى أن الصحفيين من عجينة واحدة ، وأنه يندر أن يكون بينهم من يعطى عن الأشياء نظرة مضبوطة لا مبالغة فيها ولا تشويه . وقلنا له أيضاً إن صحف فرنسا لا تتكلم جميعاً عن اليونان بهذه اللهجة ، وأنه لو قرأ « الفيجارو » أو « ليبوك » لوجد فيهما آراء عن الحكومة الحالية اليونانية أقل إثارة من التى سبق له قراءتها . وعند ذاك هدأ وبدأنا معه حديثاً طليا . دهش وقلق حين علم أننا ذاهبون إلى دلف وقال لنا : « ستتعرضون لأخطار شديدة ، أولها الألغام التى بثها الثوار فى كل مكان فقد تعثرون بأحدها . وثانياً أن الثوار لا يتثبتون ، فسيرون سيارة تمر ولن يعرفوا أنكم فرنسيون فيصوبون إليكم الرصاص فهم قطاع طرق . » بمَ نجيب عليه ؟ قلنا له فى وجل إننا نقصد أن نرى آثار دلف القديمة . ولكننا لم نطل الكلام فى ذلك فقد أحس ب . . . أن فى ذلك ما يصدمه وما يغضبه ؛ إذ يرى بعض المحظوظين مثلنا يتنزهون ويسيحون فى وقت يعرّض فيه الناس حياتهم للموت فى الحرب الأهلية . ثم تكلمنا عن الموقف العام . ولم يخف علينا — دون أن يقول لنا وجهته بالضبط — أنه يقود فريقاً من الجنود لتقوية جيش الحكومة الذى يقاوم الثوار فى الجبال . وبين الشبان الذى يرافقوننا فريق سيذهب لقضاء فترة تعليمية بمدرسة للضباط قريبة من كورفو .

وقد بدا لنا هذا الشاب شجاعا ذكيا مثقفا (وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة إذ تعلمها فى مدارس الفرير) . وقد عبر لنا عن أسفه واشمئزازه من المهنة التى لا بد له من أن يمتهنها ، ولكنه بين لنا ضرورتها لأن الثوار فى نظره لا يدينون بشئ من الوطنية ، ولكنهم شيوعيون باعوا أنفسهم لموسكو والاستعمار الروسى ، أو لأنهم بكل بساطة قطاع طريق . ولما سألناه عما يراه أو عما يرجوه فى سياسة الحكومة الجديدة ، وعن رأيه فى قرار العفو الذى أصدرته ، قال لنا بلهجة تنم عن السخرية : إنه لم يلزم لسوفوليس أكثر من أربع وعشرين ساعة لتذهب آماله . فمن المؤكد أنه لن يستسلم أحد من الثوار ، إما تعصبا أو خوفا من الانتقام ؛ فهو لذلك يائس . وقال لنا

بمرارة إن الشعب اليونانى يحقد على الانجليز لأنه يعدّهم مسئولين عن تلك الحال (بسبب موقفهم المتناقض) ، وأنه يتعلق بالأمريكيين تعلق الغريق بالشُّمام . وبلغ به الأمر أن يقول هذه العبارة الشنيعة : « إننا نرجو أن تأتى وشيكا الحرب العالمية الثالثة . » فماذا نستطيع أن نقول لهذا الشاب الذى يسير للقاء الموت والذى يذهب إليه يائساً ؟ لقد رجونا له ، رغم كل شئ ، حظا سعيداً ، وتركناه بعد أن عبّرنا له عن حبنا لليونان وعن رغبتنا فى أن يعود إليها السلام .

نحن الآن فى منتصف الليل . هاهى ذى أنوار ميناء إيتيا الصغير . أننزل إلى الأرض ؟ لقد برد كلام ذلك الشاب حماستنا لرؤية الآثار . وسيقول لنا ب ... فيما بعد إنه فكر أن نواصل الطريق إلى مكان أكثر أمنا . ولكننا قررنا رغم كل شئ محاولة القيام بتلك المخاطرة . ولكن أيُسمح لنا بالمرور ؟ على رصيف الميناء ترتسم أشباح الجنود ورجال الجندرمة . وما كدنا نضع أقدامنا على الأرض حتى أشار لنا ضابط من « الجندرمة » بأن نبقى بعيدين . إنه سيفحص حالتنا عما قليل . وبينما نحن فى انتظار تكرمه علينا بذلك ، أرسل الله لنا العون فى صورة فتى جذاب وجدنا بسرعة وقال لنا إنه مرسل من قبل زملائنا فى دلف ليوصلنا فى اليوم التالى بالسيارة إلى المعبد ، وأخبرنا أيضاً أنه حجز لنا ثلاثة أسرة بأحد فنادق تلك المدينة الصغيرة . لقد نجونا . ثم رأيت ب . . . يخاطب شابا أمرد باحترام عظيم ، وكان ذلك الشاب يبدو لى قليل الخطر فسألت ب . . . : « من هذا الشخص ؟ » فأجابنى باختصار : «إنه شخص يحمل بندقية .» وفهمت . . . أنه شاب من « المليشيا » التابعة للجيش النظامى . وأثناء ذلك كان ضابط « الجندرمة » قد انتهى من فحص حالة المسافرين الآخرين ، فاقترب منا وسمح لنا أن نذهب لننام . وسيذهب ب . . . غدا لرؤيته قبل سفرنا . يا للعجب ! يظهر أنه على صلات طيبة مع دليلنا الآتى من منطقة الثوار . ولكنه عجب لن ينقضى .

لم نكف منذ أقمنا عن إبداء عجبنا لـ ب . . . من وجود فنادق ومطاعم ملائمة فى كل مكان باليونان ، والآن سُر ب . . . فى أعماق نفسه لأنه سيرينا فى هذه الرحلة أسرة لا يستطاع النوم بها وأطباقا لاتؤكل ، وهى أسرة وأطباق الفنادق اليونانية الحقيقية . ولكن خاب فأله ؛ إذ يجب أن نقول : لئن كانت

غرفنا بسيطة بساطة غرف الرهبان . فاننا لم نر بها أية حشرة تضايقنا أثناء ليلتنا القصيرة ، وهكذا نمنا فى فراش نظيف . لقد استفادت اليونان كلها من تطهيرها بمادة د.د.ت. وفى هذا على الأقل نعمة جنوها من وجود الامريكيين . حقا لقد كان الماء غير كاف ، ووسائل الراحة لا وجود لها . كما أن قطان هذا المنزل لم يكفوا طول الليل تقريبا عن الكلام و إثارة الضوضاء . على أن هذه مصائب هينة . وفى اليوم التالى كنا على استعداد « لاختراق الخط » بعد أن استرحنا .

الثلاثاء ٢٣ : تم ذلك الاختراق بكل سهولة . ذهب ب . . . لرؤية ضابط الجندرمة ، فقال له : لا ! «لا أستطيع منعك من الذهاب إلى دلف بعد أن سمحت لك السلطات فى أثينا . ولكنى لست مسئولا عما يحدث لك . فليست هناك سلطة حكومية ولا أية سلطة أخرى . أرجو لك حظا سعيدا . » ورحلنا وفى صحبتنا مسافر زائد ، هو أحد الأطباء ، ربما كان يريد أن يعود مريضا فى كريسو أو فى دلف . (علمنا فيما بعد أن الثوار قد اختطفوا زوج هذا البائس ولم يعيدوها إليه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة.) وصعدنا فاذا نحن فى أجمل غابة زيتون رأيتها فى حياتى . إنها أشجار الزيتون العتيقة التى تنمو فى ضيعة « الله » والتى ترافع عنها إشين Eschine طويلا فى سالف الزمن . وهى تملأ كل جنبات السهل المقدس ، وإذا رأيتها من دلف أبصرت فيضا من الخضرة الداكنة ، يسيل من سفح الجبل حتى ساحل البحر . وتوقفنا قليلا فى كريسو ، فغادرنا الطبيب دون أن يقول لنا كلمة واحدة بل لم يكد يشكرنا . أما زلنا لدى الحكوميين ؟ أم هل بلغنا الثوار ؟ لا أدرى ! فما سألنا أحد ولا أوقفنا أحد . وسرنا بضعة كيلومترات ثم اخترقنا قرية دلف . وأخيراً وصلنا المكان القديم ، فألفيته أعظم وأروع مما كنت أنتظر .

وقد أثارت الاقامة بدلف فى نفوسنا عواطف لا علاقة لها بالعلم أو بالجمال فقد أتاحت لنا أن نكمل معلوماتنا عن الموقف السياسى الراهن فى اليونان ففى مساء وصولنا حضر لنا حين كنا نتمدد لنستريح من عناء اليوم ، رسول من قرية دلف، وسألنا أنوافق على استقبال وفد من الاندراتس يرغب فى محادثتنا بعد العشاء ؟ فوافقنا طبعا . وكان زوارنا ستة : خمسة من الجنود وواحد من المدنيين .

وكان هذا المدنى القوميسير السياسى للقرية ، وهو فى الخمسين من عمره ، ينمّ رأسه عن الذكاء والصلابة ، وفى وجهه علائم الصراحة ، ولكن فى كلامه حذر واحتياط . وكان من البين أنه الرئيس الحقيقى . وبقى اثنان من الجنود وقوفا يخرجون ويدخلون ، ثم أمرهما الرئيس بالخروج . ولم أدر ما السبب،وحسبت أنه أرسلهما ليلحقا بزملائهم.ولكنه قد كان فى الواقع أمرهما بحراسة ما حول البيت حتى لا تفاجئهم زيارة غير منتظرة من قبل خصومهم ، وهذا أمر بعيد الحدوث ولكنه محتمل على كل حال . وجلس الثلاثة الآخرون فى دائرة معنا . وبدأ الحديث ونحن ندخن السجائر ونشرب نبيذ « الرتسينا » résiné فى صحة الجمهورية والديمقراطية . . . وكان الحديث هادئا . ولم يتكلم إلا اثنان : الرئيس السياسى وهو رجل مقتصد فى كلامه لا يتدخل إلا ليصحح عبارة أو يزيدها دقة فى التعبير . أما الرئيس الحربى فهو شاب فى الثلاثين من عمره تقريبا ، وجهه نقى الملامح يدل على العزم ، كلامه مؤكد ، عنيف أحياناً ولكنه مسيطر على نفسه على كل حال . وصمت الآخران ، ولكنهما كانا يصغيان بلذة إلى كلام رئيسهما . وكان أحدهما شاب حدث مغضن الوجه كالشيخ ، يلبس طاقية فوق شعره العجيب المذهب . لم تكن ملامحه مقلقة ولكنه كان يحمل على فخذيه «مترليوزاً» ألمانيا وهو مملوء بالرصاص بلا شك. وكنت أنظر فى قلق إلى ماسورته الموجهة ناحية المائدة التى نجلس إليها ! . . . وأما الآخر فكان له رأس فلاح بديع . لم يكن يرتدى ملابس الجنود ولكنه كان يلبس سترة من جلد الخروف ، ومنطقة وحزاما مليئا بالرصاص . وكانت بندقيته بين رجليه . وكان ب . . . (وهو شاب من أعضاء المدرسة الفرنسية ، يتكلم اليونانية الحديثة بطلاقة) يتبع الحديث فى يسر ، ويتدخل كثيراً ، ولكنه كان يعجز أحياناً عن فهم بعض ما يقال . أما أنا فكنت أصغى أذنى ولكنى لم أكن أفهم شيئاً تقريباً . ومن وقت لآخر كان يترجم لى أحد زملائى الحديث ترجمة سريعة مما أتاح لى أن أتتبع الحديث بعض الشئ .

كان أولئك الرجال قد طلبوا لقاءنا لا ليسألونا ولكن ليعقدوا لبعض الأجانب المسافرين مؤتمراً صحفياً بكل ما تدل عليه هذه الكلمة . كانوا يكلموننا فى ثقة وود . ذلك لأنه كان من المفهوم لديهم (وكلام ضابط السفينة يؤيد ذلك) أن كل فرنسى هو « رجل من اليسار » . كان الرئيس العسكرى يتلو علينا درسا محفوظا

ولكنه يقوله باقتناع وتأثر . وكانوا يريدون قبل أن يقنعونا أن يؤكدوا لنا أنهم يونانيون لا بلغار أو يوغسلاف ، وأن يدلونا على الصورة التى يعتقدون أن ذلك الصراع المحزن سينتهى إليها . وبعد أن أكدوا لنا أنهم غير راغبين فى هذا القتال ، كما سبق أن قال لنا الضابط الحكومى الشاب على ظهر المركب ، قالوا إن عفواً عاما قد ينهى تلك الحرب الأهلية ، ولكن ذلك العفو لابد أن يكون عفواً حقيقيا ، أى عفواً منظما ، لا تصدره أحزاب اليمين المتطرفة ، ولا يصدره سوفوليس الذى ليست به أية ثقة ، ولكن تصدره الأحزاب « التى تمثل الشعب اليونانى » أى أحزاب اليسار باستثناء من يتولى الحكم منهم اليوم . وقالوا لنا أيضاً إجابة على أسئلتنا : إنهم جمهوريون ، وأن الكثير منهم شيوعيون ولكنهم لا يمنعون أحداً من الحكم حتى الملك ، ذلك إذا ثبت حقا فى انتخابات حرة أن الشعب يريد أن يبقيه على رأسه . وأضافوا إلى ذلك أنه ليس لهم أية ثقة بالحكومة الراهنة ولا بالعفو الذى اقترحته عليهم لأنهم ما زالوا يذكرون فى هلع « حوادث ديسمبر (١٩٤٤) والخيانة التى كانوا ضحيتها حينذاك ، وأن الحكومة بين أيدى الدول الأجنبية ، وأنها تأتمر بأمر الاستعمار الأمريكى .

وأنصتنا لذلك الكلام دون أن نميل إلى أى جانب بل دون أن نحاول إفهامهم وجهة نظر خصمهم (وذلك هو الموقف الذى وقفناه مع الضابط) . ولكن كيف لا يستشعر المرء رحمة عظيمة وهو فى مواجهة هؤلاء الشبان المتحمسين ، المقتنعين ، المخلصين ، الشجعان ؟ هم أيضاً يقاتلون عن اقتناع ، هم أيضاً يقاتلون وعلى رءوسهم الموت ؛ هم أيضاً يستشعرون ما فى هذه الحرب العائلية من شناعة ؛ هم أيضاً يفهمون فهماً غامضاً أنهم ليسوا إلا بيادق فى رقعة هذا الشطرنج العظيم . ولكنهم يرون أن قدراً لا يدفع يزج بهم فى هذا الصراع ، وهم يخوضونه تدفعهم تلك الشجاعة الهادئة التى يبعثها اليأس . ثم تركونا فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن شربنا معهم نخب الحرية و بعد أن رجونا لهم أن يهب الله لهم الشجاعة والحظ السعيد . ولكن الغم يعتصر قلوبنا . فهؤلاء الذين يغادرونا قوم قضى عليهم بالقتل . فالى أين تقودهم هذه اللعبة القاسية ؟ وفيم يؤملون إذا استثنينا « تلك الحرب العالمية الثالثة » التى يتمنونها فى صميم قلوبهم كما يتمناها خصومهم ؟ إن الشتاء يقترب

وسيضطرهم لمغادرة معاقلهم فى الجبال . فماذا هم صانعون ؟ إنهم يشيعون القلق والفزع أحياناً فى القرى التى يهبطونها ليلا . وهم يضطرون الفلاحين للانضمام إليهم ، ولتقديم الطعام لهم من زراعاتهم الضعيفة . ثم يأتى رجال الجندرمة فى اليوم التالى فيحققون ويسجنون أولئك الذين اتصلوا بالثوار . . . وهذا ما قاله لنا كروسو حارس الآثار الذى عين الثوار أخاه منذ قليل عمدة لاحدى القرى فلم يستطع أن يرفض . ولكن سيأتى يوم يرسل فيه الحكوميون حملة انتقامية إلى هذه الأماكن ، وعندئذ سيضطر إلى ترك أرضه وامرأته وأطفاله . . .

الأربعاء ٢٤ : استيقظنا مبكرين لنتمكن من رؤية المكان بالتفصيل ، ثم ركبنا السيارة حوالى الساعة الحادية عشرة لنصل أثينا قبل الليل . لم يبق أمامنا إلا مائتا كيلومتر . ولكنه ياله من طريق ! . . . ورغم ذلك فان السيارة تطمئننى ؛ فهى « لنكولن » قوية جديدة من الطراز المكشوف وقد تكومنا فيها : عشرة مسافرين من بينهم أحد أهالى دلف ، اتخذ مكانه على سلمها رافعاً علما أبيض ، ومن بينهم أيضاً امرأة من دلف توسلت إلينا أن نوصلها إلى العاصمة لتعالج ولدها المريض ولم يكن بد من إجابة رجائها .

وبدأت الرحلة بدءا حسناً . والطريق جميل حتى قرية أراكوفا حيث وصلنا وشيكا بعد أن حيينا كاستالى ومارماريا ، وبعد أن سرنا حذاء سفوح البارناس المتعرجة . ويتكلم الدليل الأزرق عن هذه القرية كما يتكلم عن موقع جميل جدا . وهى حقا معلقة فوق هوة وفى وسطها قبة مبنية على صخرة منعزلة . فاذا نظر إليها من بعد بدت ظاهرة الجمال . فما إن اخترقناها حتى شعرنا بوحشة عظيمة : منازل محترقة ، محطمة ، منهوبة مكسرة .

صمت الوحدة يعم المكان . ليس هناك إلا عدد قليل من السكان على أعتاب أبوابهم يرقبوننا ، وفى نظراتهم مزيج غريب من التطلع والتهديد والقلق . ووقف سائقنا فى الميدان الرئيسى ، وتفاوض طويلا مع بعض الناس . ولم ننبس بكلمة وتركنا له الكلام . وأخيراً مررنا . واخترقنا الميدان الرئيسى للثوار . ثم سرنا إلى ليفاديا أهم مدينة فى بويسى Béothie حيث عدنا إلى الحكوميين .

ودخلناها بعد ساعات دون أية صعوبة . هناك عدد كبير من الجنود متجمعين أمام مدخل المدينة ، ولكن يبدو عليهم عدم الاهتمام بسؤالنا رغم

مجيئنا من منطقة الثوار . وهكذا نصل ببساطة إلى وسط المدينة المزدحمة ، حيث ينزل فلاح دلف الذى وضع علمه داخل العربة ، إذ لم تعد له قيمة ، ثم دخل حظيرة سيارات . . . لم نسأل إلا عند مخرج ليفاديا . أوراقنا مستوفاة . ومرّ هذا التفتيش كما مر كل تفتيش آخر تعرضنا له قبل وصولنا إلى العاصمة ، بلا صعوبة حقيقية . فكلمات « المدرسة الفرنسية » تلوح كأنها كلمة سحرية تفتح أمامها مغاليق الأبواب . وليست جنسيتنا الفرنسية هى التى تمنحنا كل هذه المزايا فى هذه المرة ، بل كان يمنحنا إياها كوننا علماء آثار . فأولئك الحمقى الذين يقضون وقتهم — فى مثل هذا الزمن — فى رؤية أحجار قديمة ، لا بد أن يكونوا مسالمين . . . ونحن حقا مسالمون ! ستستمر رحلتنا بلا عائق ولا حادث حتى أثينا حيث نصلها عند هبوط الليل .

برنار جوبوده

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

حلم ...

سارت السيارة الصغيرة سريعة خفيفة رفيقة براكبيها ، كأنها تسير على وجه الماء . فاذا اعترض سيرها وسرعتها عارض ، اهتزت فى رعشة ملؤها الحدب على الراكبين ، ثم تجلدت واستمرت فى سيرها ، تقوم بما فرض صاحبها عليها القيام به ، مخلصة جاهدة . ولم تكن تلك الرعشة لتواتيها إلا نادرا . فهى تسير فى طريق ريفية ، ولكنها ممهدة كخير ما يكون التمهيد . فتلك طرق شقت ومهدت فى أرض الحقول الايطالية التى تحيط بمدينة روما ، مهدتها حكومة تهدف إلى العمران قبل كل شئ .

كانت حرارة الجو سائغة لدى الراكبين ، وإن كان الشهر من شهور الصيف ، التى يبتدئ فيها ساكنو روما فى الرحيل عن مدينتهم الجميلة قاصدين المصايف ، ولكن الراكبين كانا من بلد إفريقى ، وقد اعتادا جوا أشد قسوة فى الصيف ، فكان الجو عندئذ لديهما بمثابة الأيام الجميلة فى بلدهما فى أواخر فبراير وشهر مارس .

وكان المنظر الذى يتجلى ويتغير أمام ناظريهما ، عجيباً فى تحوله وتغيره حتى ليبدو حلماً من الأحلام . فهما منذ غادرا شوارع المدينة الضيقة ذات الأرصفة المكتظة بالناس ، ومنذ تركا وراءهما تلك الخرائب الرومانية العظيمة وقطعا أرض شارع الامبراطورية يشرف عليهما من اليمين بناء الكوليزة ، وسارا فى طريق ألبانو ، انقطعا عن عالم الضجيج رويداً رويدا ، وانتقلا إلى أرض منبسط أكثرها ، تبدو فى جوانبها عند الأفق تلال بعيدة قليلة الارتفاع ، زرقاء اللون ، كادت تختلط بالسماء لولا أنها داكنة ، على حين كانت السماء زرقاء صافية يضفى عليها الضوء غلالة ذات بريق . ويزيد فى زرقتها قطع من السحاب ناصعة البياض ، لم تقف ساكنة بليدة ، كما يفعل السحاب فى بعض أيام الصيف حين تكون الرياح ساكنة ؛ بل كانت

على سكون الرياح تتسابق فى السماء الصافية الزرقاء ، وتتخذ أشكالا غريبة مما يزيد فى جمال المنظر ، ويحدث فيه تأثيراً هو أقرب إلى الأحلام .

كان راكبا السيارة رجلين : أحدهما فى آخر مرحلة الشباب ولم يقدم بعد على الكهولة ، والآخر قطع مرحلتى الشباب والكهولة ، وولج برأسه إلى مرحلة الشيخوخة ، فرأسه أصلع عار من الشعر فوق جبينه ، ومجلل فى جوانبه بشعر أبيض قصير . وكان الأول يقود السيارة وهو صاحبها ، وهو الدليل فى هذه الرحلة ، وكان الثانى لا يعرف إلى أين يذهبان قال الشيخ :

— إلى أين نسير ؟

قال زميله مداعبا متكتما :

— إلى نزهة قصيرة .

وابتسم الاثنان ، وسارت السيارة بهما فى الطريق التى رسمها السائق تشق سبيلها بين المناظر المتغيرة فى غير عنف ولا مفاجأة . فالأرض التى حولها ليست جرداء ، بل هى ذات زرع ، تنبت فيها هنا وهناك أشجار باسقة ، ولكنها لاتطغى على الأرض حتى تؤلف غابة أو حرشا ، وهنالك مزارع ، ولكنها ليست واسعة بحيث تكون على وتيرة واحدة ، وهنالك سهل لايخلو من المرتفعات ، وثمة مرتفعات ولكنها لاتبلغ من الارتفاع حدا يضيق مرمى النظر ، غير أن الأرض تغلب عليها حمرة تظهرها فى لون كلون الشفق ، وتحنو على الأرض السماء فى حلتها الزرقاء اللامعة . وعلى حين فجأة لاحت من بعيد فى وسط الأرض الحمراء قطعة من الزرقة اللامعة ، كأنها اقتطعت من السماء وبسطت على الأرض ، فقال صاحب السيارة :

— هذه بحيرة نيمى .

نيمى ! أية تذكارات غريبة احتفظت بها هذه البحيرة ، وكشف عنها الباحثون فى الأزمان الحديثة ! هذه هى سفينة كاملة كان يتخذها أحد براطرة الرومان مسكنا ومتنزها أخرجها الباحثون من أعماق المياه ، وهى الآن ماثلة للعيان على حافة تلك البحيرة الأبدية ، ترجع بعين البصيرة إلى ألفى سنة مضت إلى ذلك الامبراطور الشاب جاليجولا أو الحذاء الصغير ، كما كان يلقبه جيش أبيه تحببا، ذلك الذى خلف طباريوس الامبراطور الغامض ! وهو

الامبراطور الشاب الذى رحب به الشعب ، وعقد عليه الآمال الكبيرة ، وأخذ يحقق تلك الآمال ، وإذا هو يصاب بمرض يقوم من بعده وحشاً كاسراً فيقتل كل من يقع تحت طائلة ظلمه ، بل يقتل كل من كان جديراً برعايته إذا لم يراع غيرهم من الناس ؛ فقد قتل جميع من أخلصوا له أو أمرهم فقتلوا أنفسهم ، وقتل أهل بيته وزوجته ، بل قتل أمه ، وظل يفتك بمن حوله إلى أن ائتمر به جنده وثاروا عليه وقتلوه للتخلص من طغيانه .

هذه هى السفينة التى كان يقضى فيها الامبراطور الشاب بعض وقته يخلد إلى الراحة . وهل يجد راحة من مرضه الملح ! لقد يشعر المرء فى هذا السكون بالرغبة فى أن يخدع نفسه ، ويعتقد أن الامبراطور الشاب يجد حقيقة شيئاً من الراحة فى هذه السفينة تمخر به فى هذه البحيرة الوادعة وبين هذا السكون الشامل ، وفى هذه الراحة يجد أتباعه وخدامه شيئاً من الدعة ، وفيها يدخل إلى نفسه شئ من الرحمة . ويريد المرء أن يعتقد أنه كان ينسى قسوته ، وأنه كان يرى أن القسوة جزء من أعباء سلطانه فيخلعها حين يخلو إلى خاصته وصحابه وغانياته فى هذه السفينة . ولكن من يدرى ؟ ربما ذاق أجداد أسماك هذه البحيرة طعم اللحم الآدمى فى يوم من الأيام ، وعرفت أسماك تلك الأيام كيف تفرق بين لحم الشيخ ، وبين طراوة لحم الفتاة .

تأمل الزائران مليا هذه السفينة ، ثم سارا إلى المتحف الذى أقيم على حافة البحيرة لأجزاء السفينة ومحتوياتها ، فاذا أشبعا فضولهما من رؤية هذه الآثار عادا إلى السيارة ولوى صاحبها عنانها ، فعادت تسير بهما سيرتها الأولى تنهب الطريق بهما نهبا .

ولم يكونا يتحادثان إلا قليلا ، فكلاهما يقدر لذة الصمت والسكون ، وكلاهما يعرف أن ما يجيش فى خاطره فى أكثر الأحيان يكاد يكون قريباً مما يجيش فى خاطر صديقه .

كان صاحب السيارة قد رأى هذه الأمكنة من قبل ، فهى ليست جديدة عليه ، وهو قصصى وكاتب ، شأنه فى ذلك شأن صديقه ، ولكنه لاحظ صديقه ينظر إلى جهة بعيدة عند الأفق فيها أشجار متكاثفة ، تجلل رأس مرتفع عن الأرض ، ورأى على وجهه نظرة جادة كمن يفكر فى شئ . فسأله :

— فيم تفكر ؟ كأنى بك تتجه بالفكر إلى ضحايا جاليجولا ، أو إلى الإمبراطور المجرم نفسه .

فأجاب : كلا ! لقد لاحت لى هذه الأدغال المتكاثفة ، فذكرتنى بشخص آخر قد يكون مجرماً ولكنه يستحق الشفقة كل الشفقة .

الواقع أن منظر هذه الأدغال المتشابكة ذهب به بعيداً إلى تلك الصورة الغريبة التى وصفها جيمس فريزر فى كتابه الخالد عن معبد كان مقاما فى غابة على مقربة من بحيرة نيمى ، وكان كاهنه الأكبر لا يموت فى الغالب إلا قتيلا . ذلك أنه مقدر دائماً أن من يقتل الكاهن الأكبر يحل محله فاذا الكاهن الأكبر بعد أن يرتكب جريمته ويحل محل سلفه لا يستطيع النوم نهارا ، وبالأولى لايستطيعه ليلا ، فهو لايزال مختبئاً بين الأدغال ، فى يده الخنجر خائفا أن يغفى فيغفل عن حماية نفسه ، فيأتيه من يقضى عليه ليحل محله . فما أشقى هذا الكاهن بمركزه !

سارت بهما السيارة فاذا الطريق تؤدى إلى قرية صغيرة كان أهلها فى مرح وسرور وقد ارتدوا خير ثيابهم ، فالفتيان والرجال فى ملابس بسيطة ونظيفة ، والفتيات النضرات فى ثياب بيضاء مزركشة ، وإذا هم فى عيد يحتفلون بموسم فاكهة الفراوله ، وكانوا يسيرون فى موكب نحو الميدان الذى يتوسط القرية . ونزل الصديقان من السيارة ، وسارا فى الموكب مع السائرين يتحدثان إلى هذا وذاك . فلما بلغ الموكب الميدان الذى يتوسط القرية كان العمدة فى انتظاره ، وهو رجل بدين بعض الشىء وخجول ، فتقدم يحيى السائرين فى الموكب ووقعت عيناه على الغريبين ، فتقدم إليهما ، وتقدما إلى تحيته . وكان الميدان محاطا بسرادقات منصوبة فيها فتيات من جميلات القرية يبعن سلات مليئة بالفاكهة المحتفل بها ، فاشترى الصديقان سلة منها وعادا إلى سيارتهما بعد ساعة قضياها فى لذة وحبور .

عادت السيارة تسير بهما فى طريق ممهدة تشرف على سهول تقوم بينها الأشجار هنا وهناك وتظلها أحياناً صفوف من أشجار الصفصاف الباسقة ، وتكتنفها أحياناً تلال غير مرتفعة تنمو على جوانبها الأشجار . وكان النهار قد انتصف والشمس فى كبد السماء ترسل خيوطها الذهبية ، ولم تكن

فى السماء غير قطع من السحاب الأبيض تكاسلت فى بعض الأركان وكأنها تستريح من حر الظهيرة أو هى تنتظر ساعة الطعام .

وكان الصديقان قد شعرا بمثل هذه الحاجة ، أو على الأقل إلى أكل شئ مما فى السلة . وعلى حين فجأة بدا أمام أعينهما قصر عظيم من قصور القرون الوسطى تحيط به الأبراج وحوله خندق كبير يلوح كأنه بحيرة جافة صنع على الغالب ليكون القصر بمأمن من الغزاة والفاتحين . وكان لون القصر رماديا من القدم ، ولكنه اكتسى بحلة وردية من أشعة الشمس ، وأخذ منظر القصر العظيم بانتباه الشيخ حتى إنه لم يكد يفطن إلى أن السيارة وقفت على باب صغير يكاد لضآلته إلى جانب القصر العظيم لا يظهر للعين .

ونزل الراكبان ودخلا المكان ، فاذاهما فى مطعم أنشئ ليشرف من موضعه المختار على القصر وسارا توًّا إلى الشرفة حيث جلسا إلى مائدة وأمامهما القصر المنيف وهما يطلان على الخندق العميق . وعلم الشيخ من صديقه أنه قصر سان جوندلفو مسكن البابا فى مصيفه .

وكانا جائعين حقا بعد تلك النزهة الطويلة ، ووضعت أمامهما قنينة الشراب الأحمر القانى من نوع جيد من أنواع أنبذة القصور الرومانية . وجاءت صحفة الأسباجتى المطهية على طريقة نابولى والدخان يتصاعد منها ، وقد أعدت فى الحال ؛ وملأ صاحب السيارة كوبتين بالشراب ، وقال لصديقه :

– لنشرب نخبك ونخب رحلتك .

فأجاب الشيخ :

– بل لنشرب نخب ساكن هذا القصر ذى التاريخ المجيد وريث بطرس والقياصرة !

حسن محمود

الظلال فى الأدب

«وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه»
لأبى إسحاق الصابى

إلى الصديق الأكرم الأستاذ الدكتور طه حسين بك

سلمتَ وغنمت ، وزاد الله فطنتك وثباً إلى وثب ، ووصل قلمك برقة الايناس وقوة الامتاع .

عَرض لك شأن الأدب الذى عليه ينبسط ظلٌّ لطيف يوم أقبلتُ إليك بقصيدةٍ أبى إخلاصك للفن الصرف إلا أن تخرج فى هذه المجلة ، فخرجت لشهرين مضيا ، وأنت إلى سرّها غير منجذب إلا شيئاً ولأسلوبها غير مهتز . على أنك رأيت أن الأدب العربى هيهات أن تنحصر مذاهبه فى السنّة الغالبة الآن ، وأن الإنكار لما يفارق مجرى العادة ليس سوى تعنّت يُغلّب التضييق على التفريج والاقتداء على الابتداع . وأيضاً رأيتَ أن من إليه أمر النشر يجمل به أن يطرح إلى الأفهام آثار القرائح على صنوفها ويعرضها على الأذواق ، فتقعَ تحت التبصر فالتدبر فالتخير ، وأنه مسئول عما يتولد وعما يتجدد ، فان هو نظر نظره فقد يكون لسواه نظر . وأنت فى صنعك ذاك دللت على السعة التى فى صدرك ، واليقظة التى فى حدسك ، والصدق الذى فى همك .

ولستُ أولَ مرة أنتصر للأدب المظلّل ، فقد اتفق لى أن أعرض له من سنين إذ خرجت لى مسرحية تضاربت فيها الآراء ، تبعتها قصص وأشعار أثارت ما أثارت[1] . واليوم أخوض فى شأن ذلك الأدب من باب طريف طرقته طرقا يسيرا فى حديثين مطويين أذاعهما راديو بيروت لخمس سنوات خلون .

---

(١) لمن يريد التتبع والتوسع أن يراجع توطئة «مفرق الطريق» (القاهرة سنة ١٩٣٨) وما تلاها بقلمى فى «الرسالة» (خاصة العدد ٢٥١) ، وتصدير «سوء تفاهم» (١٩٤٢) و«كلمة الشاعر» فى «المقتطف» (أبريل ١٩٤٥) ورسالة فى مجلة «الفكر الحديث» (بغداد ، العدد ١ ، ١٩٤٧) .

وإنما الغرض الذى إليه أنزع هاهنا هو الافاضة فى موضوع سَنح لك ولى فى ذلك اليوم ، ودار فى ذهن كل منا دورانه ، ولم تنفسح لنا ساحته فى الحال ، ففاتنا التذاكر والتثاقف .

الناس عندنا اليوم على هذا الرأى : « التأليف بيان ووضوح » . فترى المنشئين منساقين إليه والقراء به قانعين ، ولا يشذ عن هؤلاء وأولئك إلا فئة صغيرة لا تنفر من كد التأمل ومشقة الاستشفاف . فهذا الرأى انقلب قاعدة خطيرة ينزلها المستمسكون بها منزلة المعيار الصحيح للانشاء ، قدم أو حدث .

لا بد من مراجعة هذه القاعدة السائرة .

إنها بادئ بدء مجتلبة ، فكأن أصحابها وأنصارها اشتقوها من قول الجاحظ فى «البيان والتبين» : «الغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام ، فبأى شئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان .» وقد وقفوا عند هذا الحد على حين الجاحظ يتم الكلام فيقول : « وحكم المعانى خلاف حكم الألفاظ . . . » وعلى هذا قام التفريق بين الفصاحة والبلاغة . فالأولى هى الظهور والبيان ، وهى مقصورة على الألفاظ ، وأما الثانية فتدور على المعانى وقد عبرت الألفاظ عنها . فإن وجب الوضوح على اللفظ فليس يلزم مجرى الكلام ، لأن للمجرى طرفين أحدهما عند اللفظ والآخر عند المعنى ، والمعانى على تفاوت بين القرب والبعد ، والعلو والنزول ، والخفاء والمثول . ولا غرابة أن تنضح صفة من صفات المعانى على التعبير .

وكيف لا نراجع هذه القاعدة — أمجتلبةً كانت أم غير مجتلبة ؟ فالأدب كالزمن دوّار ، لأنه من الحياة وإليها . وإنَّ نظرنا إلى الحياة وفهمنا لها يرتقيان بتدرج مطالع الفكر ، ويتبدلان مع تحول رهافات الحس ، وينصرفان إلى ما تمضى إليه وجهات الارادة . فانْ ضغط أهل صناعة النقد أساليب الكتابة فى نطاق الأصول وقيّدوها بسلاسل القواعد فانما يصح هذا لعهد معيَّن . إذ أنه من المستحيل فى أفق الفن أن يرسخ أصل وتنهض قاعدة من البداية إلى النهاية . ذلك أن الأمم جميعها تحيا ، والحياة اندفاع . فالأدب المربوط دلالة ركود مصيره إلى الفناء .

والحقُّ أن العهد الذى نكاد نخرج منه فى بلاد العربية لا يمتاز بالثقافة

الخالصة الراقية ، على ما بيّنتُ فى مبحث سابق أنا عائد إليه فى كتاب قريب ظهوره . ومن هنا كان صدّ الأفهام عن الأدب الذى يتطلب التقرى فى تلطف والغلغلة فى مجاهدة . غير أنه ليس لأحد أن ييأس من تصعيد ثقافتنا فى مدارج الصفاء والجمال . ولتعرفنّ الأدب الحىّ لأمّة حيّة ساعة يَفلق نطاق الأصول ويُفلت من سلاسل القواعد . لذلك يحسن بأهل الصناعة أن يتصفّحوا هذه ويتبصروا تلك ، حيناً بعد حين ، مستضيئين بما وصلت إليه شئون الحياة فى جانب الفكر وجانب الشعور وجانب الارادة .

وبعد ، ستراني أستشهد بآداب الفرنجة وأستظهر بمذاهبهم على سبيل التنبيه لا على جهة الاستقصاء والتفصيل ، فى الجزء الأول من هذا المبحث . علّة ذلك أنهم فطنوا قبلنا أن الوضوح والحياة لا يكادان يلتقيان إلا فى الوهم . ولا يظنّ ظانٌّ أن هذا الأمر موقوف على الافرنج ، فانما الحياة هى هى عندنا وعندهم . ثم هذا أدبنا قابل للظل الذى يغشى النور المستطير ، ففى المنقول من نصوصنا ما يؤيد ذلك ، على ما يتبين لك فى الجزء الثانى من المبحث . وأما الظل الذى أعنيه فلون من ألوان الابهام الناعم يُخرج القول مُخرَج الوحى ويدخل موضوعه فى سرّ اللطافة .

ودونك الآن جوانب الحياة الثلاثة :

أما جانب الفكر فقد بطلت أسطورة « العقل القادر على كل شئ » حتى إنه يميز الأشياء الخارجيّة فتتميز ويبين خصائصها فتتبين . ومع ذهاب هذه الأسطورة ذهبت طريقة الكتاب الطبيعيين — وعلى رأسهم (زولا) Zola — الذين حاولوا أن يعللوا جميع الظواهر اجتماعية كانت أو نفسانية أو جسمانية ، وهماً منهم أن العلم قد بلغ الغاية ، فما من محجوب يستعصى على الكشف .

وممن حطم تلك الأسطورة الفيلسوف الفرنسى (برجسن) Bergson . فانه عاد من سياحة تأمل مؤمناً بأن العقل وسيلة تنجح مرة وتخفق مرة ، وأن آلته المنطق ، وأن المنطق اصطلاح لا صلة له بجواهر الحقائق . وقد دلّت مباحثه فيما دلّت على أن العقل يحاول نظم الحياة فى حين أنها تفاريق تنساب فى تعاريج ، وأن العقل يريد أن يَلم جنبات الحياة فى حين أنها وثبات . فكيف للعقل إذن أن يوضح فيصيب ؟ فانما توضيحه افتعال واتفاق . ولكن البصيرة هى التى تستطيع أن تستشف الستائر . غير أنها لا ينتظم الوضوح بها ،

بل هى تتحسس فتقبض على حقيقة هنا وتهتدى إلى خفيّة هنا ، فتدون ما وراء المحسوس والمعقول تدويناً متقطعاً بفضل لوامع هبّت وبواده خطرت .

وقد ساير هذه الفلسفة أرفع ضروب الشعر الحديث فى فرنسة وأجملُها . فليس أحد يجهل (مالارميه) Mallarmé و (كلوديل) Claudel ومن لفّ لفّهما ممن أبعدوا المنطق عن آفاق المعانى وعمدوا إلى المشاهدة الباطنة ، فانطووا على أنفسهم بحيث اتجهت الصور إلى الضمائر واتصلت بالسرائر فاتشحت بالرمز الذى يعقد دنيا الحس بعالم المعنى ويشق شعاب الرؤى ذوات الغرائب ، لأن الخيال موصول بما لا حدّ له ولا ضابط . هذا ويبدو الشاعر (فاليرى) Valéry فى طوره الثانى مفكراً يعتمد الذكاء فى مراقبة أحاديث الوجدان. غير أن العقل عنده ليس ذلك الذى يستعمل المنطق ويقنع بالنظر فى الأعراض ، ولكنه الإدراك الصرف المنزّه عن المواضعات والملابسات ، المتقلب فى ملكوت المعانى الأفلاطونية . ولهؤلاء الشعراء الثلاثة ولأتباعهم نظم أجنبى عن الوضوح وعن التماسك . ولكنّ تنغيما مستترا وتصويرا مشتبها وتلوينا مختلفا توحى إليك بما لا يوحى به الشعر المتلاحم البيّن . وفى شعر (ريلكه) Rilke التشيكوسلوفاكى تعبير من طريق الخلجات والنفضات وحدها . ويتطرف شعراء « ماوراء الواقع » Surréalistes ومصوروه فى فرنسة وإنجلترة فى هذا الطريق فيبتدعون ويرتجلون ما شاءوا فى أفلاك غائمة .

وقد امتد مبدأ ذلك الأسلوب المستخفّ بالواقع إلى المسرح الذى يعتمد الايحاء والايهام . وامتد فى القصص الفرنسى مع (فورنييه) Fournier الذى سكب فى قصته *le Grand Meaulnes* عصارات الموهوم فى آنية المعلوم . وهو يذكرنا إذاً قولة شكسبير على شفاه مَكْبِث (الفصل الأول المشهد الثالث) : And nothing is, But what is not أى : « الموجود الحقّ هو فى الحسبان » . وعلى هذا يجرى التصوير الحديث فى جملته ، إذ هو يَعد الفن أمراً خارجاً عن الواقع بل واقعاً آخر قائماً برأسه .

وأما جانب الشعور فقد انصرف علم النفس الحديث بعد تجارب النمسوى (فرويد) Freud وأضرابه وبعد مباحث (برجسن) إلى عوالم النفس غير الواعية ، فتبين للناس أن حركات النفس إنما مجراها فى مجاهل الضمير . ومن

هنا اضطراب تلك الحركات وشذوذها . فمن العسف إذاً أن يؤلف القصاص قصة فيأخذ فى الشرح المتصل والتحليل المطرد ، كأنما أشخاص القصة عناصر كيميائية تُفحص فى أنابيب فيظهر فعلها وتفاعلها . إن علم النفس نبهنا على تضاعف الشخصية الواحدة فتبدو فى غير الصورة المعروفة بها ، وعلى وثب الحس من مكمنه فتتدافع التيارات الباطنة .

فالقصاص الوفىّ لحياة الوجدان هو من ذهب قلمه وجاء مع انطلاقات الضمير ورجعاته ، ثم من بصُر فى لحةٍ نفّاضةٍ بمشكلة من مشكلات الحس الدفين فينقلها وجوّها الخفى إلى القارىء . وعلى هذا شجبت مدرسة القصاصين المحللين مثل (بورجيه) Bourget الفرنسى ومن تقدمه من الإنجليز فى عهد الملكة فكتورية . وقامت مقامها مدرسة المعبرين الانفعاليين ، خاصة فى إنجلتره . وفى هذه المدرسة كاتبتان رقيقتان (مانسفلد) K. Mansfield و (ولف) V. Woolf وكاتب عجيب مرهِق يُرسل الحديث المضمَر على هواه هو (جويس) J. Joyce . وهل أنسى D. H. Lawrence الذى غلغل إلى زوايا النزوات والنزغات ؟

وقد سبق هؤلاء القصاصون الروس إذ تنبهوا إلى متاهات النفس البشرية وغرائبها ونقائضها قبل أن يثبت علم النفس الحديث طبيعتها . فدوستييفسكى ونظراؤه يعنون بالخفايا والملتويات والمعقدات . هذا وفى المسرح برز هذ اللون من معالجة حركات النفس على يد الايطالى (بيرنديللو) Pirandello خاصة ، فمسرحياته ميدانُ تفرق الوجدان وتقسم ضرباته . وهذا اللون من التأليف سواء فى المسرحية أم فى القصة لا يجرى المجرى الواضح ، بل هو قائم على جسّات متلاحقة وخطرات وامضة يلفها جميعا إبهام منتشر على السياق . ولتجدن هذا اللون الجديد فى التصوير وفى الرقص أيضا ، وحسبى هنا الأشارة إلى المذهب التعبيرى l'expressionnisme .

وأما جانب الإرادة فما أظن أحداً يشك أن خاصية هذا العصر هو القلق الدائم . فقد وصفه نيتشه Nietzsche حيث قال : «إن العمران البشرى محاولة وبحث لا ينقطع ، هذا هو تعليمى » .

قامت الثورة الفرنسية وعقبتها انقلابات فكرية ومادية وصناعية ، فاجتهدت العقول فحارت فى الحل وطمحت الأنفس فتوزعت بين المصاعد . هنا مذهب

وهناك مذهب ، هنا رغبة وهنـاك رغبة . وفى أواخر القرن التاسع عشر نقل (إبسن) Ibsen النرويجى منازعات الطبيعـة الشمالية على خُشُب المسرح ، فأنشأ ذلك المسرح الرمزى الغـامض بعض الغمـوض ، الزاخـر بالاضطربات الدالة على حقيقة الطبيعة . ولـكنّ خيرَ من عبر عن ذلك القلق هو (مان) Mann الألمانى و(جيد) Gide الفرنسى . أليس (جيد) الذى يصرح فيقول : « الاقلاق ، ذلك دأبى » Inquiéter, tel est mon rôle . نترى أشخاص قصصه تصرعهم مآسى الضمير فترتاب بين أيديهم فى حقوق الارادة وحقيقة الشهوة . وفى فرنسة أمثال (كوكتو) Cocteau و(أراجون) Aragon ترى أبطالم تختـل موازينهم وترتبـك حركاتهم وتتردد نيّـاتهم كأنهم أعقـاب (هَمْلِت) Hamlet الذى ابتكره شكسبير من قبل وجعله متذبذباً أبداً . وهذا D. H. Lawrence فى انجلترة ظل ينشد بعث الروح الحائرة من طريق بعث الجسد الجائش .

وطبيعى أن ينشئ هذا القلق فى اتجاه النزعة واستمرار الشخصية قلقا فى مجرى القصة نفسهـا ، إذ ينعقد غيم على جولات الأبطال وحلقـات الموضوع .

هذا ، والذى زاد فى انهزام الاطراد الجلى أن أسرار الـكون أصبحت تعجز النظر المطلق ، إذ كل مايجول فى جنباب العـالم يقع تحت مبدأ « الاضافة » أو « النسبيّـة » على حدّ اصطلاحنا ، وهى التى أبرزها (أينشتين) Einstein . فلا إطلاق فى الخير ولا فى الشر، على ضد ما تصيبه فى قصص (ديكنز) Dickens الانجليزى . ويقابل (ديكنز) أحسن مقـابلة الفرنسى (بروست) Proust الذى وجّـه كثيراً من الـكتاب الفرنسـيين والانجليز . والخَـلق بين أيدى (بروست) وأتبـاعه لا تقـاس صفاتهم بمعيار ثابت ولاترد أهواؤهم إلى مرجع صريح : إنهم فى تقلقل دائم بالاضافة إلى الحوادث ، والحوادث تتموج ولا تنتهى .

وليس خروج العالم من الحرب الأخيرة إلا دخولا فى مشكلات جديدة سينشأ عنها غضب الأدباء والفنانين على السياسة ، ويأسهم من رجالها ، وإقبالهم على القيم البشرية ينتقدونها من جديد ويحكون معادنها فيراجعونها فى حيرة ورجفة . فهذا (سارتر) Sartre الذى راجت فلسفته من سنتين يميّز بين الموجود لذاته l'être pour soi والموجود فى ذاته en soi فيرى أن الموجود لذاته لا يطابق نفسه على التدقيق لأن العَـدَم يتطرق إلى كيانه ، ونتيجة هذا أن

الانسان — بما هو موجود لذاته — لا يقع تحت التعريف الواضح المعقول .

هكذا ترى أن الأدب الرفيع لهذا العهد فى بلاد الافرنج منصرف عن الوضوح فى غالب الحال ، مجاراةً لجوانب الحياة الثلاثة : الفكر والشعور والارادة . وفى تآليف من كان سيد شعراء العصر (رابندرانات تاجور) مايجعل الشرق يشارك على طريقته فى ذلك الأدب الموفور الظلال ، وتحت الظلال رموز وخطفات .

لا جَرَم إن فى استطاعة الأدب العربى أن يميل هو الآخر عن الوضوح بحذق و براعة . بل إنه لا يليق به ، فى وقت اجتاز معه طور النشوء فاستوى وتمكن ، أن يبدو أدباً تعليمياً فحسب ، يستبد به التصريح ويثقله التطويل ، فيتخلف عن تسيار آداب الأمم الراقية ، مستهيناً بثمار القرائح فى العلم والفن .

وفى تراثنا ما يردّ على الذين يحصرون أسلوب الأدب العربى فى الوضوح ، لأن فى هذا التراث ما يدل على قبول الانشاء للابهام .

ويحسن بى أن أحدّ المراد من الابهام الذى هو فى الأداء ثم فى موضوع الكلام . فبديهى أنى لا أريد البتة ذلك النوع المقصود لوجه التورية أو التعمية أو الاغلاق . ومن ضروبه المتوارثة : الملاحن والألغاز والأحاجى والمغالطات المعنوية — فهذا النوع دون مرتبة الفن الحق . ولكنى أعنى ، باختصار ، ما بعُد مداه ودق مرماه ، فى عبارة مستطرفة لماحة على غير تعقيد واضطراب وعلى غير خشونة واشتراك ، فى مركب اللفظ وفى مفرده :

إن دواوين الفصاحة والبلاغة حافلة بالكلام على « الحذف والقصر والتقدير والاضمار والكف » . ومن الاملال أن أعدو التذكير ها هنا .

وإذا دخل المجاز — وما أوسعه ! — فى جانب التعبير فانى أحب أن أنقل إليك رأى صاحب كتاب « الطراز » وهو من الفحول . قال : « إذا عُبّر عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه ، وإذا عُبر عنه بمجازه لم تعرف على جهة الكمال ، فيحصل مع المجاز تشوق إلى تحصيل الكمال ، فلا جَرَم كانت العبارة بالمجازات أقرب إلى تحسين الكلام وتلطيفه » . والمجاز عنده « كلام غير تام » ، فهو كما جاء فى كتاب « العمدة » لابن رشيق ، « أبلغ من الحقيقة لاحتماله وجوه التأويل » .

وهناك باب آخر يدخل فى التعبير ، وهو مشهور ، وهذا الباب هو الايجاز . والايجاز حذف فضول الكلام ، كما قالوا : ويرى ابن المقفع أنه قائم على الوحى والاشارة ، وأن ذلك هو البلاغة . وفى هذا الباب يدخل كثير من « جوامع الكلم » . ومما جاء فى « العمدة » أن « الاشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتى بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر . . . وهذا النوع من الشعر هو الوحى عندهم .» وقد فصل علماء البلاغة الاشارة ، فمن فروعها المستحسنة: الايماء والتلويح واللمحة والتمثيل والرمز. وقالوا ، على ما جاء فى «العمدة»: «أصل الرمز الكلام الخفى الذى لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الاشارة . . . كقول أبى نواس يصف يوماً مطيراً :

وشمسه حرّة مخدَّرة ليس لها فى سمائها نور

فقوله : حرّة ، يدل على ما أراد فى باقى البيت ، إذ كان من شأن الحرّة الخفر والحياء .» ومن هنا يتبين أن الرمز الذى عليه مدار الكثير من التعبير الحديث فى الشعر الافرنجى دار ، على نحو آخر ، لخواطر العرب وطاب لأذواقهم . وهو غير الرمز بالمعنى المدرسى السائد عندنا ، فالغالب على الافهام أن الرمز إقامة شئ بدل شئ آخر من باب التخييل ، كقولك «العلَمَ» عنواناً للوطن و«البياضَ» عنواناً للطهارة . فالرمز بهذا المعنى المدرسى هيّن ، وأما الرمز الذى عرفوه قديماً فأوغل فى خطف اللمحات وأوفر استثارة للدفائن .

وليس أسلوب الاشارة بالمستغرَب أو الشاذ فى لغة العرب ، فهذا إمام النقاد عبد القاهر الجرجانى يقول فى « دلائل الاعجاز » : « وإذا تأملتَ كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدتَ العبارة فيه أكثر من الاشارة والتصريح أغلب من التلويح . والأمر فى علم الفصاحة بالضد من هذا ، فانك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدتَ جلّه أو كله رمزاً ووحياً وكناية وتعريضاً وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفىّ . . . حتى كأن الافصاح بالمعانى حرام ، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ . »

ولو لم يكن الوحى فضيلة ما مدحت العرب شعراءها به ، كما جاء فى « البيان والتبيين » . ومن الغريب أن نرى البحترى وهو من شعراء الافصاح يقول :

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

بل هذا القرآن عمدة التعبير وقدوة المنشئين . فأكثر القُدامَى ، كما ذكر صاحب « سر الفصاحة » ، يستحسنون منه ما كانت صفته الايجاز والاختصار . وزاد صاحب « كتاب الصناعتين » : « وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الاشارة والوحى ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً . »

والبسط فى العبارة له مواقعه عندهم . فانه يحسن فى المواعظ والخطب ، ويجب إذا قصد المتكلم إلى إفهام العامة أو أصحاب العقول البليدة أو الأعاجم . وهيهات أن يقوم التطويل مقام سنة . ألا ترى إلى صاحب «المثل السائر» إذ يندد بالذين «يطولون حتى تفهم العامة» لأن « نور الشمس إذا لم يره (السجين) لايكون ذلك نقصاً فى استنارته وإنما النقص فى عجز (السجين) ». وقرر صاحب كتاب « الطراز » : « وما زعموه من ترك الايجاز البليغ لأجل إفهام العامة ليس شرطاً معتبراً ولا يعول عليه . »

وأختم هذا الباب برأى صاحب «ديوان المعانى» فى أسلوب الشعر ، قال : «والايجاز بجميع الشعر أليق . . . ولا أعرفه إلا بلاغة فى جميع الشعر لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحى» .

والآن نبلغ « التعريض . والتعريض كما فى « الطراز » : « المفهوم من القرينة دون دلالة اللفظ ، وهو كثير الدور فى الكلام ، وله مدخل فى البلاغة وموقع عظيم . »

ويلى التعريضَ الابهامُ نفسه . ففى « الطراز » أيضاً : « اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد فى الكلام مبهماً فانه يفيده بلاغة ويكسبه إعجابا وفخامة ، وذلك أنه إذا فرغ السمع على جهة الابهام فان السامع يذهب فى إبهامه كل مذهب . والابهام يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام . »

وإنى أتمهل عند قوله : « إن السامع يذهب فى إبهام المعنى كل مذهب »

وأردفه بما أورده الجرجانى فى « دلائل الاعجاز » إذ جعل المزية والفضل فى احتمال الكلام أكثر من معنى ، مما يثير أريحية السامع على شرط أن يكون من أهل الذوق والمعرفة . ومثل هذا مر بك فى معرض المجاز . تلك لطيفة من لطائف العبقرية العربية تصادف فى الثقافة الافرنجية الحديثة ما ينظر إليها : فالشعر والمسرح والقصص متى ارتفعت هنالك لا تكون غذاء للضمائر وللألباب ذخراً إلا إذا اقتضت التفكير والتأمل واستدعت التأويل والتمثل .

فمن الظلم أن يقول قائل ساهٍ أو مغرض بأن أدبنا الغابر مثل الغالب من الأدب الحاضر فى قرب المعنى وسهولة التعبير ، أو يقول بأن قارىء الأمس كأكثر قراء اليوم فى بطء الذهن وجمود الخاطر ، أو فى الفزع من نشاط الروية والكلف بالتسلى والتلهى . أمَا سمعتَ أن البصراء من النقاد أكبروا المعنى الذى يجهد سامعه فشبهوه بالجوهر فى الصدف لا يبرز إلا للخاطر الذى يسعى فيفلح فى شق الصدفة ؟ قال الجرجانى فى « أسرار البلاغة » : « ما كان من المعنى ألطف كان امتناعه عليك أكثر وإباؤه أظهر واحتجابه أشد . ومن المركوز فى الطبع (وأنا أضيف : المرهف) أن الشئ إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق له كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل . »

لعمرى ما فضل الشعر الذى يحلو لفظه ويبين « فاذا أنت فتشته لم تجد هنالك طائلا » على ما يقول ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ؟

ولو كان اليسر أشرف من العسر والجلىّ أرهف من الخفىّ فى رأى المستبصرين من العرب والمستعربين ما ذهب الراسخون فى علوم القرآن مذهب المهرة فى فنون النقد . ألا ترى إلى أولئك وهم بين يدى الآية الكريمة : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ . . . » (سورة آل عمران) ؟ قال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير : « واعلم أن العلماء ذكروا من فوائد المتشابهات وجوهاً ، الوجه الأول : أنه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب . قال الله تعالى : « أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولما يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهدوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » . وللفن كذلك جنة ، ومتعتها نورانية .

ولتجدن الأمثلة على تلك المعانى المبهمة فى القرآن والأثر وكلام الفصحاء . قال صاحب « الطراز » : «وروده (أى : الابهام من غير تفسير) فى القرآن كثير » . وقال ابن فارس فى « الصاحبى » : « العرب تشير إلى المعنى إشارة وتومى إيماء دون التصريح وهو فى أشعارهم كثير . »

ولو انفسح المكان لاستشهدت على كل ذلك بآيات من القرآن يرد الكلام فيها من مسلك تعريض وبأحاديث نبوية تدق فيها الرموز ، على ما قد بيّن صاحب « الطراز » . ثم بأشعار كالتى ابتكرها أبو تمام الذى عرف كيف يُعمل الفكر ويُذكى الحس فيستخرج العويص ويستنبط الطريف حتى كلّف الناس الغوص ، وحتى قيل له : لم تقول ما لا يُفهم ، فقال لِمَ لاتفهمون ما يقال ؟ ثم بأشعار قالها ابن الرومى يصحّ فيها قوله :

نار الروية نارٌ جِدُّ منضجة وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتها لكنها سرعة تمضى مع الريح

ثم باشعار لأبى الطيب المتنبى مثل التى قال فيها الخفاجى فى « سر الفصاحة » : « إنها مما يسأل عن معناه ويفكر فى فهمه » . ثم بفصول من « الفصول والغايات » لأبى العلاء الذى تطوحت فطنته إلى الغاية القصوى وتلطفت إشارته فى رهافة مُثلى .

وبعد الاستشهاد كنت عرجت على آثار الصوفية شعرها ونثرها ، ووقفت عند دقائقها ورقائقها من مكاشفات ومنازلات هى خلسات من مُطَّلع نور الحقيقة الثابتة . وما كنت وقفت عند مستغلقاتها ومداوراتها ، ذلك لأن الابهام الذى أرفُّ له ليس مأتاه طلب الالغاز بوساطة التلبيس تارة وتارة بالعمد إلى المصطلحات الخاصة .

والخلاصة أن الابهام واسع الخطو فى الأدب العربى الموروث ، شأنَه فى الأدب الافرنجى الحديث . وإذا اختلف هذا عن ذاك لتباعد العهدين ، وتباين الثقافتين ، وتغاير نتائج العلوم ، وتفاوت تجارب النفوس فانه يواطئه فى ألوان من المجرى لاتفاق الأساليب فى اللطافة : وليس غرضى من هذا المقال أن أقرن إبهام أدبنا السابق بابهام أدب الفرنجة لهذا العهد فى جوانب

الحياة الثلاثة : الفكر والشعور والارادة ، وقد توسعت هذه الجوانب ودقت وغارت . ولكن وجهى الاحتجاج بأن سر لغتنا لا ينكر الابهام من جهة الأداء أو من جهة موضوع الكلام ، فليست به حاجة واجبة إلى الضوء الذى يغمر الانشاء أى غمرة حتى إنه لا يدع للنظر فرجة للاجتلاء وللفؤاد سبباً للاتقاد وللوهم مدى للانسراح .

وعلى هذا إن تطلب الوضوح فى الأدب الرفيع الذى ينشئه المنشئ على غير رغبة فى التعليم والتقرير والجدل والسرد وأشباهها إنما هو عدوان على شق جليل من عبقرية العربية ذات الافتنان الخالد .

واليوم يمهد لنا الطريقُ القديم المشىَ فى منعرجات له جديدة . ثم لِمَ لا يتهيأ لنا الجرى فى مسالك مستأنفة بفضل التوليد والاختراع ، مع ما يغذوهما من ثقافة العهد ، ويُطريهما من رفاهته ، ومع ما يلونهما من أسرار الروح الشرقية ، العربية أصلاً أو فرعا .

وسلام الله عليك من أخ يجل فضلك ويقدر ودك .

بشر فارس

تاسيتوس المؤرخ الرومانى

ورأى نابليون فيه

كان نابليون بونابرت فى بعض المواقف يرى من موجبات السياسة ودواعى الحذق والكياسة أن يلقى رجال الأدب والشعراء والفلاسفة والعلماء ويجاذبهم الحديث ويخوض معهم غمار المشكلات الفكرية والبحوث النظرية . ويروى تاليران فى مذكراته أن نابليون كان يعد العدة لأمثال هذه المجاذبات والمقابسات ، ويعنى عناية خاصة بأن ينتصر فى حومة المناقشة ، ولذا كان يتسلح بالمعلومات الكافية فى الموضوع الذى سيتناوله الحديث ويعبئ الحجج والبراهين ويعمد إلى طريقة الهجوم المفاجئ التى ألفها فى ميادين الوغى ، وبهذه الطريقة كان كثيراً مايوفق فى التغلب على محادثيه ، ويقتحم حصون المعارضة ، ويظهر أمام الحاضرين مظهر العالم المتفوق والمفكر النافذ النظر ! وكان لا يرتبك ولا يتخاذل منطقه إذا ثبت له محدثه ورماه بحجة تنقض رأيه من أساسه ؛ لأنه كان يستطيع فى يسر وسهولة أن يجد الأسباب لقطع طريق المحادثة أو تحويلها إلى الناحية التى يريدها ، وكانت ثقته بنفسه فى هذا المجال عظيمة لا حدود لها ، ويؤكد لنا تاليران أنه « ما كان ليهز هذه الثقة حضور مونتسكييه أو فولتير » .

واتفق فى سنة ١٨٠٦ أن هزم نابليون البروسيين فى معركة ينا الشهيرة ودخل برلين دخول الظافر المنتصر ، ولقى المؤرخ الألمانى الأستاذ جوان فون ميللر ، وكان ميللر من غلاة المتعصبين للمؤرخ الرومانى تاسيتوس ، وكان يحتذى أسلوبه ويسير على طريقته فى تصوير الحوادث والرجال وتبكيتهم والنعى عليهم . ودار الحديث على تاسيتوس ، ولم يترفق نابليون بالأستاذ المؤرخ ، وهاجم تاسيتوس هجوماً عنيفاً ، وتخاذل المؤرخ أمام قوة نابليون الخطابية ، وزكانته التاريخية ، ولمحاته الكاشفة وهجماته المباغتة ، فأعطاه القيادة ، وسلم له على طول الخط ، وأخذ الرجل بنابليون ، وسحر بجلاله وعظمته ، وترك

فى وقدة حماسته خدمة الحكومة البروسية ودخل فى خدمة الحكومة الفرنسية وغالى بعد ذلك فى الاعجاب بنابليون ، فقال مرة فى إحدى خطبه والامبراطور فى أوج قوته : «إن نابليون هو الرجل الذى تلتزم الدنيا الصمت إزاءه لأن الله قد وضع زمام الدنيافى يديه . » وقد عقب على ذلك أحد الأمراء الأوربيين بقوله : « لو أن نابليون أنصت ولو أنه أجاب لكان أعظم رجل عاش فى الدنيا . »

ولعل هذا الانتصار فى محاربة تاسيتوس كان أول انتصار أغر أحرزه الامبراطور فى ميدان التاريخ ونقد المؤرخين .

وفى سبتمبر سنة ١٨٠٨ اجتمع الامبراطور نابليون بالقيصر الأسكندر عاهل الروس فى مدينة إرفرت الصغيرة القريبة من ويمار فى الأراضى الألمانية . وفى هذه المناسبة استقبل الامبراطور دوق ويمار وجيتى وويلاند النقادة الألمانى الذائع الصيت ورحب بهم ، وخاض مع جيتى وويلاند فى أحاديث الأدب جريا على عادته فى محاولة اكتساب إعجاب المفكرين وتقديرهم .

وفى أثناء إحدى حفلات الرقص فى ويمار دارت مناقشة أو وقعت مناوشة بينه وبين النقادة ويلاند ، وكان موضوعها المؤرخ تاسيتوس ، ولم يلق نابليون فى هذه المرة انتصاراً هيناً ليناً كانتصاره على المؤرخ ميلر ؛ فقد ثبت له ويلاند ، وأخذ عليه المسالك ، وضيق الخناق ، وكاد يهزمه لولا ما أوتى الامبراطور من بديهة حاضرة وحيلة واسعة .

وكان سبب احتدام المناقشة ونشوب الجدل بين الامبراطور وويلاند قول نابليون إن المأساة مدرسة للرجال المستنيرين ، وإنها من بعض الوجوه تفوق التاريخ . وتجمع فى اللحظة التى ألقى فيها نابليون بهذا التصريح جماعة من المفكرين فى أحد أركان الحجرة ، واسترسل الامبراطور يقول مخاطباً ويلاند : « أؤكد لك أن المؤرخ تاسيتوس الذى تكثرون من الاستشهاد به لم يعلمنى قط شيئاً ، وهل تعرف أعظم منه تنقصاً للرجال وتنكيتاً عليهم وهو مع ذلك ظالم لهم ؟ وهو يعزو أبسط الأعمال إلى الدوافع الاجرامية ، هو يصور أباطرة الرومان جميعهم أشراراً سفلة لكى يكسب الاعجاب للعبقرية التى هتكت سترهم . وسنوياته أولى بأن تسمى ملخصاً لسجلات الأباطرة من أن تسمى تاريخاً للامبراطورية ، فهى لا تخبرنا بشئ سوى الاتهامات والمتهمين وأخبار الذين فتحوا شرايينهم فى الحمام ، وهذا الذى لا ينى يتحدث عن الجواسيس هو نفسه

أعظم الجواسيس . وأى أسلوب ؟ وأى غموض لا يلمع فى ظماته ضوء ؟ ولست من كبار المتمكنين من اللاتينية ، لكن غموض تاسيتوس واضح فى عشر تراجم أو اثنتى عشرة ترجمة قرأتها فى الفرنسية أو الايطالية ، ومن ثم استنبطت أن الغموض أصيل فيه ، وأنه ليس مقصوراً على أسلوبه ، و إنما يشمل كذلك تفكيره . ولقد سمعت ثناء عليه من أجل الخوف الذى يوقعه فى نفوس الطغاة ، فهو يجعلهم يهابون الشعب ، وهذا نكبة على الشعب نفسه ، ألست على حق يامسيو ويلاند؟ »

وهنا توقف نابليون عن الحديث معتذراً بعض الاعتذار ، واسترعى نظر الجماعة إلى براعة القيصر الاسكندر فى الرقص ورشاقة حركاته ، ولكن جماعة الحاضرين كانت أكثر اهتماماً بمشاهدة المبارزة الفكرية منها برؤية الرقص البديع والحركات الرشيقة .

وشجعت صراحة نابليون ويلاند على قبول التحدى ، فبدأ يقول : إن تاسيتوس لم يعمد إلى فضيحة الأباطرة والتنديد بهم لرعيتهم السافلة الوضيعة فحسب ، وإنما كشف كذلك مساوئهم للانسانية جميعها فى مختلف الأجيال . وختم حديثه بقوله : إنه يأمل أن يسيطر العقل على الناس بدلا من العاطفة والهوى.

فأجاب الامبراطور : « هذا ما يقوله فلاسفتنا جميعهم ، وبالرغم من أنى أبحث عن قوة العقل هذه فانى لم أجدها فى أى مكان . »

فتجاسر ويلاند على أن يقول : « إن من علامات نموها الاهتمام المتزايد بتاسيتوس أقدر مؤرخى العصور القديمة على التلوين كما سماه راسين . ولقد كانت الامبراطورية فى عصره يحكمها هولات قباح وقد سلقهم تاسيتوس ببيانه ونال منهم ، وقد كان مضطرا إلى أن يحصر نفسه فى سجلات روما على حين أن ليفيوس عنى بأمر الجيوش ، وفى كتابة تاسيتوس تنعكس صورة ذلك العصر البائس الشقى الذى وقف فيه الأمراء والشعب وجها لوجه ، ولكنه حينما يصف العهود التى تحالفت فيها الامبراطورية مع الحرية فانه يعتبر ذلك أنظم الكشوف التى اهتدى إليها الانسان . »

وهنا طن دوى الاستحسان ، واعترف نابليون بأنه تلقاء خصم عنيد ، وبأن موقفه محفوف بالأخطار ، ولكن براعته المعهودة لم تخذله فى هذا الموقف ، والتف حول جناح خصمه قائلا : « هل راسلت مصادفة الهر ميلر الذى لقيته فى بوتزدام ؟ إنى لا أسلم بأنى هزمت . »

فارتبك ويلاند ، واعترف بأن الأمر كما قدر نابليون ، وأدهش ذلك الحاضرين وأمتعهم ، وشجع ذلك نابليون على استئناف المناقشة مؤكداً « أن تاسيتوس لم يكشف عن الأسباب الداخلية المستسرة للحوادث ، وأنه يترك علاقاتها الخفية الغامضة غير واضحة » ، وأوجز غرضه بقوله : إنه يجب الحكم على الحكومات حسب البيئة ، وأنهى المناقشة فى هذا الموضوع وقد أبلى فيها بلاء حسناً لخصمه الجرى ، وحول مجرى الحديث إلى نواح أخرى . وكان نابليون يحترم الرجل الذى يعرف ما يقول ويحسن التفكير ، فأهدى وسام الشرف الفرنسى لجيتى وويلاند فى ١٤ أكتوبر قبل أن يبرح إرفرت هو والقيصر الاسكندر .

وقد ظل نابليون إلى آخر أيامه وهو يكره تاسيتوس ولم يغير فيه رأيه . ففى جزيرة سنت هيلانة عاد فأكد رأيه فى أن تاسيتوس لم يفسر الدوافع التى تؤثر فى أعمال الرجال ، وأن القصص التى رواها عن تيبريوس سخيفة ، ولماذا يحرق نيرون روما وهو الذى كان يحبها حبا جما ؟ لم يقدم تاسيتوس سبباً يدعو إلى ذلك . وسخر نابليون من فكرة عزو كراهته لتاسيتوس إلى معارضة تاسيتوس للطغيان .

وما من شك فى أن لتشديد تاسيتوس النكير على الطغاة والمستبدين أثراً فى تحامل نابليون عليه . ففى الفصل الخامس بعد الثلاثين من الكتاب الرابع من سنوياته بعد أن روى دفاع كريمتيوس كورديوس عن نفسه حينما وجهت إليه تهمة مدح كاسيوس وبروتاس فى سنوياته قال : « إن العبقرية تقوى وتنمو بالاضطهاد والضغط ، واضطهد الكاتب تزد قيمة عمله . والطغاة الأجانب وجميع من اتخذ سياستهم الوحشية قد جربوا هذه الحقيقة ، وقد سجلوا على أنفسهم العار بمقاومتهم الموهوبين وذوى العقول وأعطوا الكتاب جواز المرور إلى الخلود . » ويقول كذلك فى عرض كلامه عن هذا الموضوع : « السباب الذى يهمل أمره سرعان ما يموت ويخمد . ولكن إذا أظهرت أن السباب قد جرحك أعطيته مظهر الصدق . »

على أن الحق يقتضينا أن نقرر أن تحامل نابليون على تاسيتوس مهما كانت أسبابه كان له تأثير حسن فى الدراسات التاريخية ؛ فقد أثار الشكوك فى صدق الصورة التى رسمها تاسيتوس لتيبريوس وغيره من ساسة عصره وأعيان زمانه . ويرى كثير من الباحثين الآن أن صوره الحزينة الشديدة النكر مبالغ فيها .

وليس أدل على زكانة نابليون من أنه كان فى طليعة الذين لحظوا ذلك وأشاروا إليه ونبهوا عليه .

ويأخذ عليه بعض نقاده المحدثين ضيق أفقه وشدة تعصبه وتحيزه ، وأنه لكى يزيد التأثير ويبالغ فى وصف سوء الأحوال واكفهرار الجو وليكثر من كيل الشتائم القاسية والمثالب الجارحة ، كان يضحى بالحق ؛ وكان يزيده تورطاً فى ذلك أنه كان لا يعرف بعض من كتب عنهم إلا معرفة ناقصة على حين كان يكرههم كراهة شديدة . ومتى اجتمعت المعرفة الناقصة بالكراهة الشديدة ضل الرأى واضطرب ميزان الحكم واختل التقدير . وربما كان تاسيتوس لايتعمد ذلك تعمداً ، ولا يقصد إليه قصداً ، وإنما كان عقله الملىء بالاستنكار والتحزب لا يمكنه من أن ينظر إلى الحوادث والرجال نظرة بريئة نزيهة خالية من شوائب الهوى وتلاوين العاطفة ، يضاف إلى ذلك حرصه على تضمين أحكامه إلى الناس جملاً موجزة جامعة يسهل انطباعها فى الذاكرة وبقاؤها على الأيام . ومثل هذه الجمل القصيرة الملمومة قد تشرق منها أنوار البلاغة ، ولكنها كثيراً ما تجور على الحقائق التاريخية ؛ لأن تلك الحقائق فى بعض الأحيان أو فى كثير من الأحيان تتأبى على البلاغة وتستعصى على الديباجة المشرقة والكلمات الوثابة النابضة الجامعة .

على أن الكثير من تاريخ الرومان وغيرهم من الأمم يقوم على وثائق ليست فوق منال الشبهات ، وقد اشترك الاهمال والاغفال والتحيز والهوى والكذب الصريح والتلفيق والتزوير والوهم والخيال فى جمع هذه المادة الضخمة ، والكثير مما يظن أنه تاريخ هو فى الواقع من الأساطير الموضوعة والأكاذيب الملفقة والأباطيل المنمقة .

وقد صور تاسيتوس تيبريوس مستبدا فظاً وطاغية جباراً ، واستطاع بأسلوبه الفذ وتصويره الرائع أن يفرض هذه الصورة التى رسمها خياله القوى المشبوب على الأجيال المتعاقبة . وقد أثارت بحوث العلامة سيفرز وفريتاج وجيروم الشك فى تلك الصورة وأيدت ما أدركه نابليون بالبداهة الصادقة وإلهام العبقرية . ويعلل [1] توماس سبنسر جروم ذلك بأن ثقافة تاسيتوس كانت قائمة على البلاغة

---

(١) وقد وفى الأستاذ جيروم هذه الناحية من البحث فى كتابه القيم *Aspects of the Study of Roman History.*

وموقوفة عليها ، وأنه ظل طوال حياته ولوعاً بالجمل الرنانة ، وبأن الكذب كان من صفات الرومان التى لا يرون فيها غضاضة ولا كبير عيب ، ويضاف إلى ذلك عدم تعويلهم على مبادئ علمية فى تسجيل التاريخ ، وأنهم كانوا لا يفطنون إلى ما فى سردهم للأخبار من المتناقضات الصارخة ، وكانوا لا يتورعون عن المغالطات والسفسطة والتلاعب بالألفاظ ، وكانوا يعتبرون الكذب فناً جميلا ، وقد ألحقوا التاريخ بفنون البلاغة واتخذوه وسيلة لتأكيد الحقائق الأخلاقية . وكان التاريخ عندهم يناظر الشعر إلا أنه طليق من قيود الأوزان والقوافى ، وكما يجوز فى الشعر الكذب فكذلك يجوز فى التاريخ الكذب .

وقد لا يكون من حقنا أن نسرف فى لوم تاسيتوس على أخذه هذا النهج ، فالكثيرون من المؤرخين المحدثين ليست لهم براعة تاسيتوس التصويرية ولا بلاغته المتألقة الرائعة ، ولكنهم مع ذلك لم يتخلصوا من العيوب التى أخذت عليه . وقد أثبتت الطبيعة الانسانية فى أوقات كثيرة أنها أقوى من تحفظ المؤرخين واحتياطهم وتحريهم الموضوعية وجريهم وراء الحق التاريخى . وقد يبدءون وفى نيتهم التجرد التام والتزام النزاهة ، ولكن بعد قليل يستميلهم سحر الموضوع ويخلب لبهم صوت يرسله البطل من وراء القبور أو إعجاب يوحيه نظام قديم قد أصبح بالياً متهدماً ولكنه مع ذلك يملك القوة على إثارة الاعجاب وإشعال الحماسة . وقد تحملهم الحماسة على أجنحتها فيمعنون فى البلاغة . وقد تسئ البلاغة وعلو البيان إلى الحق الصراح . والظاهر أن أكثر المؤرخين يشعرون بأن المؤرخ الذى يكتفى بالحق والحق وحده يشيع فى كتابته الجفاف والفتور والاملال .

والمؤرخ الشديد التنطس والتدقيق قد لا يظفر بقراء ، ولا يجد شيئاً يخلو به سوى الحق الكالح والوقائع البشعة ! وقد حمل ذلك بعض المؤرخين الذين لا يشك فى أمانتهم على ألا يخجلوا من القول بأن الميل إلى حد ما لازم فى كتابة التاريخ . وقد كان الأستاذ بيورى المؤرخ الانجليزى المعروف يعتقد أن المنهج التاريخى فى حدود خاصة يجب أن يكون علميا ، ومع ذلك فانه مما يؤثر عنه قوله : « لا أظن أن التحرر من النزعة والهوى من الأشياء الممكنة ، ولا أظن أنها من الأشياء المرغوب فيها ، والذى يبرأ فى كتابته كل البراءة من الهوى والتحيز يقدم لنا عملا مملا لا لون له . » وأعظم كتاب التاريخ فى

القرن التاسع عشر لم يبرءوا من الهوى والميل والتأثر بالنزعات السياسية أو الدينية أو القومية وما شابه ذلك من النزعات والاتجاهات والميول والأهواء . ولا يتيسر للمؤرخ كتابة التاريخ إذا سحق شخصيته سحقاً تاما مهما تحرى الحق وأطال التدقيق والتمحيص ، ولكن الميل نافع إلى حد ما ، ولا يلزم الاسراف فيه والتطوح فى متاهته ؛ لأن الاسراف فى الهوى يجعل المؤرخ يشوه الحقائق وينتقص بعضها و يتزيد فى البعض الآخر ويظهرها جميعها فى ضوء خادع مضلل . ومن كلمات كولردج الجامعة فى نقد المؤرخ الكبير جيبون قوله : « أسلوبه من الأساليب التى لا يتيسر فيها ذكر الحق . »

والمشكل الذى يواجهنا هنا هو أن الاكتفاء بتسجيل الحوادث وسرد الأخبار لا يعطى لنا سوى نظرة جزئية للأشياء وصورة شاحبة للماضى لا نستطيع الاعتماد عليها ولا الاكتفاء بها . والمؤرخ الذى يجعل الماضى حياً لا بد أن تكون له قدرة أخرى فوق قدرته على تمحيص الوثائق ومراجعة الأسانيد وغربلة الأخبار والروايات ؛ وهذه القدرة هى الخيال الملون الوثاب والاحساس المرهف الحاد ، ولكن إذا كان المؤلف فناناً فهل يلزم أن يكون متحزباً وله ميل وهوى ؟

يرى بعض النقاد أن هذا ضرورة لا فكاك منها ، والتاريخ بدون تحزب — فى رأيهم — وهم من الاوهام . ولكن لحسن الحظ — أو لسوء الحظ — أن كل الناس — والمؤرخين بضرورة الحال جزء من هؤلاء الناس — لهم تعصباتهم وأفكارهم السابقة ومعتقداتهم ومذاهبهم ، وهذا لا يدل بحال على فقدان الأمانة وضياع النزاهة ، ومن الطبيعى أن نستدل بالماضى على وجهة نظرنا الخاصة بالحاضر ، والمؤرخ الذى لا يكون متحرباً إلى حد ما يكون إنساناً لا آراء له ولا معتقدات ولا وجهة نظر ولا مقاييس خاصة يقيس بها الأمور ويقدرها . وكبار المؤرخين لم يسلموا من نزعاتهم الخاصة ووجهات نظرهم الفلسفية ، فجيبون تبدو فى كتابه العظيم عن سقوط الدولة الرومانية نزعة القرن الثامن عشر الفلسفية وتنكرها للديانة المسيحية . وقد تأدى به ذلك — كما يرى بعض نقاده — إلى تشويه بعض الحقائق : من أمثلة ذلك روايته الساخرة عن القديس جورج حامى انجلترا ؛ فقد أثبت البحث أنها لا أساس لها من الصحة .

وما كولى كان لذلك متحزباً مثل جيبون ؛ فقد كان ينظر إلى التاريخ من

وجهة نظر الأحرار الانجليز ، ويحاول أن يستنبط من التاريخ الأدلة والشواهد على أصالة آرائهم وصدق نظراتهم . وهو لا يخفى الحقائق وانما يثير حولها ضجة مدوية ويلقى عليها ضوءاً خاطفاً، ويضيف إليها من عنده تعميمات عريضة لامعة ويضفى عليها ألواناً براقة أخاذة .

وقد كان كارلايل مؤرخاً فناناً من الطراز الأول ، وكان له فلسفة خاصة فى تمجيد الأبطال وإكبار شأنهم ، فبالغ فى تصوير فضائل كرومويل ، وجعل من فردريك الأكبر بطلا من أبطال الأمم ، وكتابه عن الثورة الفرنسية مزيج من الشعر الرائع والتاريخ .

فلا يجمل بنا إذن أن نقسو على تاسيتوس لعيب قد لحق أكثر المؤرخين ويكاد يكون شديد الاتصال بفن كتابة التاريخ . وقد وجه المفكر الفيلسوف كولنجوود نقداً شديداً إلى تاسيتوس ، ولكنه على شدته لا يخلو من الاصابة والسداد ، وذلك فى كتابه القيم « فكرة التاريخ » الذى طبع بعد وفاته . وقد ورد هذا النقد فى أثناء كتابته عن فن كتابة التاريخ عن الرومان، وهو يقول عن تاسيتوس ما يأتى : « تاسيتوس باعتباره أحد من شاركوا فى تزويد الأدب التاريخى علم من الأعلام الشامخة ، ولكن من المسموح به أن نتساءل هل هو مؤرخ على الاطلاق ؟ وهو يحاكى مؤرخى القرن الخامس اليونانيين فى نظرتهم الضيقة المحلية ولا يحاكيهم فى مزاياهم وفضائلهم . وهو مأخوذ بتاريخ الأحوال فى روما ، ويهمل أحوال الامبراطورية، أو لايراها إلا كما تنعكس فى مناظير الرومانى الملازم لبلده . ونظرته فى تلك الأحوال الرومانية البحتة نظرة ضيقة للغاية . وهو شديد التعصب لمعارضة مجلس الشيوخ . وهو يجمع بين احتقار الادارة السلمية والاعجاب بالغزو والفتح والمجد الحربى ، وهو اعجاب قد أعماه جهله الفاضح بحقائق الحرب . وكل هذه العيوب تجعله غير صالح لأن يكون مؤرخا لعهد الأباطرة الأوائل . ولكن هذه العيوب فى أعماقها ليست سوى علامات لعيب عام أشد خطورة وأكثر شمولا ؛ فالنقص الحقيقى فى تاسيتوس هو أنه لم يفكر قط فى المشكلات الأصيلة لمحاولتها ، وموقفه حيال أساس التاريخ الفلسفى موقف طيش ورعونة . وهو يتعلق بالرأى البراجماتيكى الشائع عن غرض التاريخ تعلق الكاتب المولع باصطناع البلاغة لا تعلق المفكر الجاد . وقد تأدى به هذا الموقف إلى تشويه التاريخ تشويها منظما ،

إذ عرضه على أنه فى جوهره تصادم الأخلاق والطبائع الخيّرة المبالغ فيها بالأخلاق والطبائع الشريرة المبالغ كذلك فى تصوير شرها . ولا يمكن كتابة التاريخ كتابة علمية إلا إذا استطاع المؤرخ أن يستعيد فى عقله ويمثل لنفسه تجربة القوم الذين يسرد أعمالهم . وتاسيتوس لم يحاول قط أن يعمل هذا ، فأشخاصه لا تُنْظَر من الداخل بالعطف والفهم ، وإنما تنظر من الخارج كمجرد مشاهد للفضيلة أو الرذيلة . وقلما تقرأ وصفه لأجريكولا أو دوميتيان دون أن تذكر ضحك سقراط من صور جلوكون الخيالية للرجل الكامل الخير والرجل التام الشر . وقد أغدق المدح على تاسيتوس لقدرته على رسم الأخلاق ، ولكن المبادئ التى يتبعها فى التصوير مبادئ فاسدة فى جوهرها وهى تجعل تصويره للأشخاص وصمة للحق التاريخى . ولا شك فى أنه وجد فى فلسفتى عصره الرواقية والأبيقورية مايسوّغ موقفه ، وهما فلسفتا تردد وهزيمة ، يبدآن من فرض أن الرجل الصالح لا يستطيع أن يغزو العالم الشرير أو أن يسيطر عليه . ولذا كانتا تعلمانه كيف يحتفظ بطهارة نفسه من أرجاس الدنيا وشرها . وهذا التعارض الزائف بين أخلاق الفرد والبيئة الاجتماعية يسوغ فى معنى من المعانى طريقة تاسيتوس فى إظهار عمل بعض الشخصيات التاريخية كأنه صادر من أخلاقه الشخصية وحدها ، وعدم قبوله الطريقة التى قد تكون أعمال الانسان فيها مما تفرضه عليه ظروف البيئة إلى حد ما وتحتمه أخلاقه جزئياً ، ولا الطريقة التى قد تشكل فيها الأخلاق القوى التى قد ترغم البيئةُ الانسانَ على الخضوع لها . والأخلاق الفردية إذا نظر إليها منفصلة عن البيئة فهى محض تجريد لا شئ له وجود حقيقى . وما يعمله الانسان متوقف إلى حد محدود على نوع شخصيته ، ولا يستطيع أحد أن يقاوم قوى البيئة والانسان إما أن يغزو الدنيا وإما أن تغزوه الدنيا . »

وواضح أن رأى نابليون فى تاسيتوس ورأى كولنجوود يتلاقيان فى نقاط عدة . وقد يشككنا هذان الرأيان فى نزاهة تاسيتوس وصدقه ، ولكنهما لا يزحزحان من مكانته باعتباره مؤرخاً فناناً للحوادث والشخصيات التاريخية فذّاً قليل النظير فى تواريخ الآداب .

على أدهم

الشعر الذى أريد

[جاء الكلام على صيغ من الفخر فى كثير من الأبيات ، لم أقصده لذاته ، بل إن ما أرمى إليه ؛ هو أن يجىء الشعر فيما يجىء به من مقاصد على غرار ما توخيته من أغراض عددت منها ما عن لى على سبيل المثال لا التحديد . ولى من حسن القصد وأريحية القارئ ما ينفى عنى تهمة الغرور ويكفينى التماس المعذرة .]

مطامح نفس تغتدى وتروح ... أعالج فيها الشعر وهو جموح

أجاذبه حبل القوافى أروضه ... فينصاع منه بارع وفصيح

يفيض على عضب اللسان بلاغة ... يرفّ عليها من كيانىَ روح

إذا كان آمالا تفتح باسماً ... كما افترَّ زهر بالعبير يفوح

يمس شغاف البائسين بلطفه ... فيجلو هموماً ما لهن مزيح

وإن يك آلاماً سكبت عواطفى ... أكاد بها أبكى أسى وأنوح

وإن يك عشقاً فالفؤاد خلاله ... صريع هوى قد أثخنته جروح

يشير ويومى لا يبين وتارة ... يهم بمكتوم الغرام يبوح

ويعرب عن شكواه أخرى ، فانه : ... حليف ضنى مما اعتراه طريح

وإن يك إيقاظاً هببت أصوغه ... وفى كل بيت وازع ونصيح

إذا استنهض الوانين قمنا جميعنا ... خفافاً وما بالناهضين طليح (١)

يشدد من عزم الأناسىّ عزمه ... فيشجع فيهم هائب ومليح (٢)

---

(١) المعيى .
(٢) الخائف والمشفق .

ويبعث فى نفس القنوع تسامياً — فيحمد منه همة وطموح
وفى معرض الشورى حكيما أريده — يسود له رأى أغرّ رجيح
وينقد أغراض الزمان وأهله — متون له ما تنقضى وشروح
يروعك كالبحر الخضم مهابة — فليس به إلا الضليع سبوح
وتنزل منه المكرمات بعامر — على أنه للمفسدين ضريح
وإن يك تنديداً نفضت كنانتى — وفى هدفى مما أريش قروح
ويمحق كيد الماكرين بنفثة — لها فيهمو كالأفعوان فحيح
فما هى إلا أن ينالوا جزاءهم — وينأى بهم أنىّ تحلّ نزوح
ويكبت من بأس الخصوم عرامه — وعنهم إذا زال الخصام صفوح
وتلقاه عند الغوث كالسيل جارفاً — يعجّ ، بوجه المعتدين يصيح
فأنى تبدى الحق فهو نصيره — ولو غمرته فى الخطوب سيوح
ويدعو المسمى باسمه ونعوته « الـ — جميل جميل والقبيح قبيح
فكان جواداً ذو المكارم والندى — وكان خسيساً سافل وشحيح »
ولوع بتبيان الحقائق نصّعاً — لتندك فيها للضلال ذريح (١)
أتحت له صدق الشعور وفاتنى — بدنياى من صدق الحظوظ متيح
وما همى فوت المنى وقريحتى — بكل مجال للقريض تشيح (٢)
فلله شعر لم يسعه زمانه — وبعض دناه للزمان فسيح
عزوف عن الإقذاع ، عفّ ، مهذب — وفيه لخير العالمين جنوح
له من بديع القول وشى وحلية — كذاك له بيض الخلال مسوح

---

(١) جمع الذريحة وهى الأكمة والهضبة .
(٢) تجدّ .

قوافيه كالعقد النظيم تألقت فما هن إلا رائع وصبيح
ويعض المرامى كامن فى غضونه غموض يماشى كنهه ووضوح
رقيق الحواشى نسجه ، وسياقه قوىّ وأما سمته فمليح
وتمتلك الأسماع نبرة جرسه تخر لها طير الربى وتطوح
مطالعه والخاتمات جليلة ومغزاه فى كل الشؤون سجيح
دقيق المعانى والمبانى رصينها له فى ميادين الكلام فتوح
ومنه يطل الأصغران كلاهما على الدهر : عون ثابت وصريح
فأرسله والخفض والرفع طيّه تدكّ حصون أو تشاد صروح
وأطلقه كالباز ينقضّ قانصاً وفى مخلبيه ما دآه صحيح
يحلّق حتى يستجيب له العلا وإن حط هانت ذروة وسفوح
وما عاقه عاوٍ إذا أمّ وجهة ولا أخرته فى سراه نبوح
محيط بأسرار اللغى وفنونها ويمنع من أسبابها ويبيح
عجبت له فى السعد والنحس عاملا على جانبيه سانح وبريح
وإن شئت لم أعجب وغيرت وضعه فقلت لديه بارح وسنيح
قدير على ضر الرجال ونفعهم وبين يديه مزعج ومريح
بعيد عن النقصان فى كل ما يرى نزوع إلى المجد الأثيل طموح
رفيع ، عزيز ، ما أسفّ وما وهى! عليه كمال النابغين يلوح
فما أخذته فى المدامة سورة يطيب غبوق أم يروق صبوح
أنزهه عن أن يكون بضاعة مداه هجاء أو مداه مديح

[بغداد] على الخطيب

نحن خمسة فى هذا العالم

نحن خمسة ليس لنا سادس ، قد افترقنا منذ أكثر من مليون أو مليونى سنة . ولكنا ما زلنا نذكر قرابتنا وندل عليها بالوجوه وسائر الأعضاء ، وكذلك بالأخلاق والاتجاهات الذهنية أو العاطفية .

نحن البشر ، ثم الشمبنزى ، ثم الغوريلا ، ثم الأورانج ، ثم الجيبون .

وليس لنا سادس . نحن خمسة نتسم بوجوه بشرية وبأذناب متقلصة قد اندغمت فى ظهورنا حتى صارت لا تبرز كأننا لم نكن قط بأذناب . وقد عشنا آلاف القرون على الأشجار . ونحن البشر مع الغوريلا قد تركنا الأشجار ونزلنا على اليابسة . ولكن صغار الغوريلا لاتزال إلى الآن ، إذا أظلم الليل ، تصعد إلى غصون الشجر وتنام عليها . أما آباء هؤلاء الصغار فتبقى على الأرض تحت جذوع الشجر ولا تصعد . أما الشمبنزى فلا يزال يساوى بين الشجر والأرض ، ساعة هنا وساعة هناك . أما الجيبون فلا يزال يتعصب للشجر ولا يكاد يتركه . ولكن الأورانج ينزل من وقت لآخر ويسير على الأرض .

ونحن والجيبون طرفان . نحن نتعصب للأرض ولا يكاد أحدنا يفكر فى الصعود إلى أغصان الشجر سوى صبياننا للعب والعبث . وفى الطرف الآخر الجيبون الذى يتعصب للشجر . وهو بهلوان يذرع الغصون بذراعيه بنفس السهولة التى نسير نحن بها على الأرض . حركته تتبلور فى ذراعيه كما تتبلور حركتنا فى ساقينا .

والجيبون هو صرخة نائية فى قرابتنا التطورية . ولكن هناك ما هو أنأى.

ذلك أننا قبل أن نكون خمسة كنا عشرات بل ربما كنا مئات نتفرق فى القارات القديمة ونعيش على الأشجار . وكانت أجسامنا صغيرة ؛ لأن الحيوان الضخم يجد أن الغصون لا تتحمله ولذلك سرعان ما ينزل إلى الأرض . ألا ترى أن اثنين من هؤلاء الخمسة ، وهما الانسان والغوريلا ، قد تركا الشجر

واستقر أحدهما على الأرض وكاد الثانى أن يستقر ؟ والأورانج يكاد يساوى الانسان فى الثقل ، ولكنه لا يزال يلتزم الشجر لأن قدميه لا تليقان للمشى ، كما سنرى .

قبل نحو عشرين أو ثلاثين مليون سنة كنا قد بدأنا حياة جديدة على هذا الكوكب . وكنا قد اهتدينا إلى اختراع جديد نمتاز به على تلك الزواحف الضخمة التى كانت وباء على العالم . ذلك أننا كنا نلد ولا نبيض . فكانت الحراسة ثم العناية بالأطفال كبيرتين . وفى الوقت الذى كانت تنقرض فيه الزواحف لأن بيضها لا يجد الحراسة كنا نحن نعيش وننازعها البقاء لأننا كنا نعنى بالأطفال ونحرسها .

وكنا صغاراً فى الحجم نترجح من وزن الفأر إلى وزن الثعلب . وقد لجأنا إلى الأشجار كى نفرّ من هذه الزواحف الضخمة . وكانت خفة أجسامنا تساعدنا على الفرار . حتى إذا بدأت هذه الزواحف فى التناقص ثم الانقراض ، شرع بعضنا يجد أن الأرض مأمونة وأنه يستطيع النزول حيث يسعى فى حرية والطلاق ، فكانت أسلاف الحيوانات الجديدة المتخصصة كالفيلة والخيل والكلاب والبقر .

أما نحن فبقينا صغاراً فى حجم الفأر أو القط . ولا يزال الليمور فى أيامنا ثم الطرسير ، يصرخان بنا عبر الملايين من السنين إلى الأصل الوضيع الذى نشأنا منه . وكلاهما من حيوانات الليل التى تفتح أعينها فى الظلام وتحاول النظر فى الغبشة والعتمة . ولذلك تجمعت العينان عندهما فى الوجه دون الصدغين كما هو الشأن فى سائر الحيوان . وإلى الآن نرى أن البومة والوطواط قد اجتمعت العينان لكل منهما فى الوجه . فكل منهما ينظر بعينين فى وقت معاً ، فى حين أن سائر الحيوانات النهارية ، أى التى تسعى فى النهار طيراً كانت أو لبونات ، تقنع بالرؤية بعين واحدة فى الصدغ .

ولهذا السبب نجد بيننا وبين البومة وكذلك الوطواط شبهاً مزعجاً نكرهه وننفر منه . وأصله هو هذا الجمع بين العينين فى الوجه . فنحن الخمسة وكذلك الطرسير والليمور ثم كذلك البومة والوطواط ، من حيوانات الليل ، قد احتجنا إلى الدقة و إحكام الرؤية ، فجمعنا العينين فى الوجه حتى ننظر الأشياء بهما معاً لا بعين واحدة .

والاقامة على الشجر تستدعى اليقظة فى الليل كثيراً . ويبدو أننا أسرفنا فى هذه الاقامة حتى صار السعى فى الليل دون النهار عادتنا . فكان هذا التخصص فى النظر ، فى حين أن سائر الحيوانات ، أسلاف الكلاب والقطط والفيلة والبقر ، تركت الشجر قبل أن تتخصص . فبقيت عيونها جانبية أى بقى كل منها « أعور » ينظر بعين واحدة كما كانت تفعل الزواحف الكبرى . أما نحن فلم نترك الشجر إلا بعد أن تخصصنا . ومع ذلك لم يترك الشجر تماماً غيرنا نحن البشر . أما سائر الأربعة فلم تتركها تماما إلى الآن . حتى الغوريلا لا تزال تسمح لأولادها بالتسلق والنوم على الغصون فى الليل .

وهناك ما يرجح أن جميع اللبونات (التى ترضع أطفالها) نشأت أولا على الشجر ، وكانت صغيرة الأحجام تتحملها الغصون فى تنقلها ووثبها . ولم يكن مفرّ من هذا ؛ لأن الزواحف الكبرى ، التى كان العالم موبوءاً بها فى كل مكان ، كانت تحول دون ظهور اللبونات على الأرض . ولا تزال الأحافير القديمة التى ينتمى إليها الفيل والفرس صغيرة الحجم . فالفيل القديم، وقد وجد فى الفيوم ، لا يزيد على حجم الحمار . والفرس القديم ، وقد وجد فى أمريكا ، لا يزيد على حجم الفأر . أى إن اللبونات الضخمة كانت فى الأصل صغيرة لأنها كانت تعيش على الشجر . ولكنها لم تبق ، مثلنا ، المدة الكافية لأن تجمع عينيها فى وجوهها ولأن تتخصص أيديها للتناول .

ونزلنا صغاراً من الشجر ، وقد كسبنا من الاقامة عليه عينى الوجه وكذلك اليد . فلما استقر بنا المقام على الأرض كبرت جثتنا كما كبرت جثة الغوريلا الذى لا يصعد على الشجر سوى صغاره . وأيضا ، لأننا صرنا نتناول باليد ، استغنينا عن الذنب . بل ربما كنا استغنينا عنه قبل النزول إلى الأرض ؛ لأن هذا هو الشأن حتى فى الجيبون الذى يسلك سلوك البهلوان على الغصون ، والذى نظن أن لذلك كان يجب أنه يحتاج إلى الذنب . ولكن المرجح أن الأيدى قد قامت مقام الأذناب حتى ونحن على الشجر .

والفرق بيننا وبين الأربعة الأخرى أننا لم تتخصص مثلها على الاقامة فى الشجر ، حتى الغوريلا التى تركت الشجر الآن قد تركته متأخرة ؛ لأن قدميها لا تصلحان للسير كما تصلح أقدامنا ، ولأن إبهام القدم يواجه الأصابع ولا يستوى معها فى صف كما هى الحال عندنا .

وأبعد الخمسة منا ، وهو الصرخة النائية لحياة قديمة اشتركنا فيها ، هو الجيبون . وهو آسيوى يعيش فى الأقاليم الشرقية الجنوبية من آسيا وكذلك فى سومطرة وبورنيو . وهو يختلف عن الأربعة الأخرى من حيث إن له صوفاً بدلا من الشعر الذى نتسم به . وكذلك يتسم هو بتضخم استى كما هو الشأن فى بعض القردة . ولكن من الباحثين من يقول إن هذا التضخم الاستى عام بين الخمسة حتى الانسان . وإن الفرق بينها درجى فقط . وبشرته سوداء مثل الزنوج . ومن هنا يجب أن نشك فى قيمة الضوء من حيث إنه الأصل فى البشرة السوداء . لأن هذا الجيبون يكسو بشرته صوف يحميها من الضوء . ومع ذلك هى سوداء . ولا بد أن هناك أسباباً أخرى لسواد البشرة عند زنوج البشر وعند الجيبون .

والجيبون هو أصغرنا جميعا من حيث الوزن والقامة . فان قامته لا تزيد على تسعين سنتيمتراً . وهو ضامر البطن . ونحن الأربعة ، بالمقارنة به ، نعدّ مستكرشين . وهو أبرعنا فى الانتقال بذراعيه كما نحن أبرع الخمسة فى الانتقال بالساقين . وهو حين يتعلق بالغصون لا يستعمل إبهامه ، بل أحيانا يقنع باستعمال إصبعين للتعلق كأن إصبعه خطاف . ولذلك هو لايقبض على الغصن ولكنه يتعلق بانحناء خطافى فى الأصابع . وأنيابه طويلة مؤللة بخلاف الحال عند الأربعة الأخرى ؛ لأن الأنياب عندها قصيرة مسحاء لاتنتهى بابرة حادة . وهو ألوف ، ولكنه عند ما يعاشرنا لا يتمالك من الاختلاس لأن ذكاءه يتجاوز أمانته .

ووطنه الأعم هو الشجر الذى لا يتركه سوى ساعة أو ساعتين فى النهار . وهو حين يمشى ينتصب على قدميه .

أما ثانى الخمسة فهو الأورانج الذى يعيش فى سومطرة وبورنيو فى الأقاليم التى يعيش فيها الجيبون . هو الحيوان الانفرادى بيننا نحن الخمسة ؛ لأننا اجتماعيون نعيش كلنا جماعات إلا الأورانج فانه يتفرد على الشجرة . وأنفه وفمه يبرزان ، وشعره أحمر ، ولكن لحيته بطريركية سابلة برتقالية اللون . وهو يسير على الأرض فى بطء وحذر . وهذا لان إبهام قدمه الذى يخلو من الظفر أحيانا يواجه أصابعها أى إن قدمه مثل يده . وذراعاه طويلتان وساقاه قصيرتان بعكس الحال عندنا نحن البشر . وبين قواعد أصابعه أغشية .

وأصابعه لا تقبض على الغصن ولكنها تتعلق به كالخطاف كما يفعل الجيبون . وصغار الأورانج كصغار البشر تتعلق وتتدلل وتصيح وراء الأم . بل هنا يجب ألا يفوتنا أن صغارنا نحن الخمسة تتشابه كثيراً فى تفاصيل الجسم والوجه والأخلاق .

وكل من الأورانج والجيبون يتناول الماء بيده ثم يشرب من يده أى إنهما لا يلعقان . ودماغ الأورانج لا يختلف عن دماغ الانسان إلا من حيث الحجم .

أما ثالثنا فهو الغوريلا . ووطنه هو أفريقيا ، فى الأقاليم الغبياء من الكونجو. وهو أثقلنا ، إذ يبلغ وزنه ٥٠٠ أو ٦٠٠ رطل . وهو شجرى ما دام فى طفولته وصباه ، فاذا كبر لم يكد يعرف الشجر . وهو فى الوجه من حيث حركة الأعضاء ولحظ العين بشرى السحنة . وقدمه مستوية . وهو حين يعدو يتساوى مع الانسان فى السرعة أو يكاد يسبقه . وهو حين يقعد يأكل كل ما حوله من أوراق الشجر . ولذلك كان بطنه ضخما كأنه بهيم. وهو يسير جماعات كل ٢٠ أو ٣٠ معاً . وعند ما يقعد ليستريح على أليتيه يضم ذراعيه مكتوفتين على صدره . وهو ينام على ظهره أو جنبه ويتوسد ذراعه . وهو مثل الأورانج يثبت للخصم ولا يفر .

أما الشمبنزى ، وهو أقرب الخمسة إلينا نحن البشر ، فيستوى عنده الشجر والأرض . إذ هو يتسلق كما يمشى . وهو أفريقى مثل الغوريلا . وهو ينتصب فى القامة أو يكاد . ولذلك يتعلم الانزلاج ويمارسه فى طرب وخفة . ويعيش مثل الغوريلا فى غابات أفريقيا الغربية . وهو يسير جماعات كل منها نحو ثمانية أوعشرة . ويأكل الفواكه ، ولا يبالى أن يعيش بجوار القرى ، ولكنه إذا أحس أن أحداً يتجسس عليه ترك مكانه إلى آخر . ولا يزيد وزنه على مائة رطل. وهو بالمقارنة إلى الأورانج يعد انبساطيا يفرح بالاجتماع ويلعب وينشط إلى المرح بخلاف الأورانج الذى يعد انطوائيا يعيش منفرداً ولا يكاد يعرف معنى للمؤانسة . والشمبنزى سريع إلى التعلم ؛ فهيم يتناول طعامه بالملعقة ، وعند ما يعاشرنا يكتسب منا أخلاقاً بشرية ؛ فان الندم يبدو عليه عند ما يخطئ عمداً أو عفواً . ولكنه عند ما يسن يؤثر الانفراد ويتجنب المزاح . وكثيراً ما يصلع ، فيتخذ سحنة بشرية بهذا الصلع .

أما نحن البشر فنختلف الاختلاف الأكبر عن هذه الأربعة المتقدمة من حيث إن حجم الدماغ عندنا أكبر مما هو عندها . وأيضاً من حيث إن ابهام اليد تواجه الأصابع ولذلك نحسن القبض والتناول أكثر منها . وقد تركنا الشجر تركاً تاما ، ولا يقاربنا فى هذا سوى الغوريلا . والقدم عندنا مقنطرة نمشى على أرساغنا ثم نندفع فوق أصابعنا ، فى حين أن أقدام الأربعة الأخرى مسطحة . ولذلك لا يسهل عليها المشى كما يسهل علينا . لكن أذرعتنا لا تزال طويلة ، مما يدل على أننا عشنا كثيراً على الشجر . ودماغنا يكبر دماغ الغوريلا بثلاثة أضعاف . ويجب ألا ننسى أن القامة المنتصبة العمودية عندنا هى التى هيأت لنا حمل هذا الدماغ الثقيل ؛ لأننا نحمله حملا عمودياً فلا يرهقنا . ولم نكن نستطيع أن نحمله لو كنا نمشى على أربع . والفم والأنف يتراجعان عندنا ؛ لأن اليد تقوم بالتناول بدلا من الفم . والأنف أصبح صغير القيمة لأن العين جعلتنا نستغنى بالنظر — أو نكاد — عن الشم . وزيادة الحجم فى نظر الطبيعة ليست ذات قيمة كبيرة ، كما ترى هذا إذا اعتبرت الكلاب ؛ فان بينها كلب سان برنار الذى يزيد وزنه على ثلاثين رطلا ، وكلب لولو الذى قد لايبلغ رطلا أو رطلين . ودماغنا ، وهو أعظم ما يميزنا من هذه الأربعة الأخرى ، يزيد ثلاثة أضعاف ما هو عند الغوريلا أو الأورانج أو الشمبنزى . وليس هذا شيئاً عظيما ؛ لأننا والأورانج سواء من حيث التشريح المخى بلا أدنى اختلاف .

ولنا جميعاً وجوه متشابهة . فنحن الخمسة نبدو للعالم بوجوه تتشابه لأن العينين تتقاربان ، ولنا أيد للتناول . وجميعنا قد استغنينا عن الأذناب ، ولكن ما تبقى من الذنب عندنا أكبر مما تبقى منه عند الأربعة الأخرى ، وجميعنا نمشى على أقدامنا بفروق . بعضنا قد ترك الشجر بعض الوقت ، وأحدنا (نحن) قد ترك الشجر كل الوقت .

قال هوكسلى : « إن الانسان يشبه هذه الأربعة الأخرى ، كما يشبه كل واحد منها الآخر . وهو يختلف عنها كما يختلف كل واحد منها عن الآخر » ثم يقول : « إن الفروق الجسمية التى تفصل الانسان من الغوريلا والشمبنزى ليست عظيمة إلى الحد الذى تبلغه الفروق بين القردة العليا والقردة الدنيا » .

والفروق بين البشر كبيرة ؛ فان أنف الزنجى الأفطس وأنف السويدى

الأشم يختلفان اختلافا عظيما . وكذلك بشرة الزنجى السوداء وبشرة الأوربى البيضاء قد أحدث الاختلاف بينهما استعباد الثانى للأول آلافاً من السنين . والصينى أملط أو يكاد ، والأوربى شعرانى . وأحياناً نجد على بعض الأجسام البشرية زغبا صوفيا ، يكثر فى فرنسا وإيطاليا بين الفتيات له لمسة حريرية جاذبة وحبذا الانسان يعود فيكتسى بهذا الصوف الناعم ويستغنى به عن الملابس . وبعض هذه الفروق يمكن تعليله بالمناخ . مثال ذلك أن السويدى أو النروجى الذى يعيش فى مناخ بارد بالقرب من القطب يجب أن يكبر أنفه وتضيق المسالك الداخلية فيه حتى لا يفجأ الهواء البارد رئتيه . أما الزنجى الذى يعيش فى أفريقيا الحارة فينفطس أنفه وتتسع مسالكه الداخلية حتى يجتازها الهواء بسرعة وبلا عائق . والهواء الحار يتمدد فيحتاج الزنجى كى يحصل على حاجته من الاكسيجين إلى مقدار من الهواء يزيد على المقدار الذى يحصل عليه الأوربى .

ولكن مع جميع هذه الاختلافات بيننا نحن البشر ما زلنا نوعاً واحداً يتفرع إلى سلالات عدة يتم بينها التلاقح ولا يؤدى إلى نسل من « البغال » العقيمة .

والفروق بيننا و بين القردة الأربعة الأخرى كبيرة . وأهمها بالطبع هو المخ . ولكن هذا المخ ما كان ليصل إلى ضخامته الحاضرة بل ما كان لينمو فى الذكاء لولا اللغة التى جعلت التفكير الدقيق ممكناً ولولا اليد التى جعلت الحضارة ممكنة بما لها من إبهام يجيد التناول . فميزتنا الكبرى على القردة الأربعة الأخرى هى اللغة ، واليد .

سلامه موسى

الحبيبة فى الغزل العربى

كان الانسان ، ولا يزال ، يخفق قلبه بضروب من الحب تبتدئ أولا بنفسه، ثم تتدرج إلى ذويه ومعارفه ، ثم ترق حتى تشمل أكبر عدد من الناس وتتناول أوسع رقعة من الطبيعة .

فاذا كان الحب بين رجل وامرأة ، فانه الحب العائلى الذى يؤدى إلى تخليد الجنس بالنسل ، أو الحب المادى الذى يقصد منه العبث فى نطاق اللذة الحسية ، أو الحب العذرى الذى يسمو عن الحس إلى العاطفة فيدرك فيه لون من ألوان الفضائل يتصوره المحب فى حبيبه ، ويرخص نفسه من أجله .

وعاطفة الحب ، مهما بسطت ، والى أى أنواعه ردت ، مركبة من عواطف متعددة متساوقة متلازمة ، قد تبلغ الثمانى (1) . ودرجات الحب تتفاوت بتفاوت أنواعه ، وتختلف باختلاف الناس وأعمارهم وبيئاتهم . فاذا انقلبت عواطف الحب إلى أضدادها ، لم يكن البغض والحقد والحسد أقل تفاوتا وأضعف اختلافا . على أن الحب يكاد يكون العاطفة الوحيدة التى شعر بها الناس مشاعر قوية ومرنوا عليها مرونة كثيرة فصاحبتهم مصاحبة متلازمة شديدة، لا تضاهيها عاطفة من العواطف الأخرى إلا عند بعض الأفراد . ويكاد الحب يستغرق الكثير من فنون الأدب العالمى قديمه وحديثه، مما حمل ناقداً إنجليزيا فكها على القول : « إن الحب تسعة أعشار الأدب فى حين أن حظه من الحياة اليومية لا يتجاوز واحداً من عشرة . » ولعل استغراقه يعود إلى اشتماله على معظم خصائص الأدب ؛ ففيه منه الحس والعاطفة ، وله فيه الجمال والمثال على أروع صورة ، وبه يبلغ الخيال والالهام شأوا بعيداً .

أما العرب فقد عالج شعراؤهم الحب ، ووضعوه فى مكان الصدارة من

---

(1) H. Spencer, *Psychologie*, 218

قصائدهم ؛ فكان الاستهلال به فى المعلقات وفى غيرها مما جاء بعدها من شعر الاسلاميين حتى شعراء النهضة الأولى ، على ما بين هؤلاء وأولئك من زمان ومكان وأجناس وأديان . بل إننا لنراه حيناً الباب الوحيد الذى قصر بعض الشعراء فنهم عليه من دون سائر أبواب الشعر : كجميل بثينة ، وعمر بن أبى ربيعة . ونراه أحياناً يدخل فى جملة شعر من لم يسيطر الحب على أهوائهم ، كالمتنبي والمعرى وغيرهما .

ولا يتسنى لباحث الحب عند العرب أن يفهمه على شئ من حقيقته -- فقد ضاع بعضه وعبث العابثون ببعضه — ثم يحله محله من الآداب الأخرى إلا إذا جمعه من الاستهلال ؛ ومن ثنايا الشعر ، وضمه إلى القصائد التى استقل بها ، فألف وحدة متينة غنية ، صالحة للبحث ، خاضعة للموازنة ، ثابتة للحكم .

١ — الاستهلال

أول ما يطالعنا من الاستهلال المستمر من الجاهلية إلى اليوم نوعان : أحدهما فى وصف الأطلال ، والثانى فى التغزل بالنساء . أما الأول فكناية عن الوقوف للبكاء على :

(ا) مسكن مهجور أو متهدم أو عاف : كسقط اللوى بين الدخول فحومل لامرئ القيس ، وكحومة الدراج فالمتثلم لزهير ، وبرقة شماء للحارث ، ورامة الاطلال لجرير ، والجزع لبشار ، واللوى للمعرى . وقد يكون المبكى عليه مسكناً أو وادياً أو بلاداً .

(ب) ويتوسع آخرون فى هذا المسكن فيقفون يبكون على مسكن ما فى مكان ما ، وقد يكون لصاحبة ما :

كقول عمر بن أبى ربيعة :

عوجا نحيي الطللا المحولا والربع من أسماء والمنزلا

وقول كثير عزة :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

وقول أبى تمام :

على مثلها من أربع وملاعب . . .

وقول المتنبى :

بليت بلى الاطلال ان لم أقف بها . . .

وعلى هذين النمطين من تعيين المسكن أو إطلاقه ، وذكر اسم المرأة أو إهماله ، لا يعدو أن يكون فيه خيط يشد الشاعر إلى ماض حبيب إليه عزيز عليه مقلد فيه ، فيقف ليبكيه ويقضى حقه عنده . ويتراءى له الهودج الذى غيبها فى الأفق ويسعى إليه فينقطع الخيط فيمحى المسكن ، ثم يختفى الهودج فيعفو الأثر . ويرتج على شاعرنا ، فلا هو يغزل الخيط من جديد فنتمسك به ونجوس خلال ماضيه ، ولا هو ينشط للحاق بالهودج فيكشف لنا ستائره عن تلك التى وفرت له الحب فوقف وبكى ودعانا إلى الوقوف والبكاء ، بل يترقب أن يثوب إليه رشده ليصف الأطلال الحبيبة أو أطلال الحبيبة ببيت أو بثلاثة ، ثم يتابع سيره إلى الفخر والمدح والوصف ، ويعنى بهذه الموضوعات وبغيرها عنايته بالأطلال إن لم تكن أشد وأوفى .

ومن أجل هذا لا نستطيع أن نكوّن فكرة صحيحة عن نظر شعرائنا إلى الحب كعاطفة مدركة مشعورة بينة [1] ولكننا نستطيع أن نتذوق ما فى هذا الاستهلال من شعر ؛ ففى العاطفة ذكرى أو ما يشبه الذكرى ، وأسف عليها أو ما يضارع الأسف ، وكلاهما صدى لخفقات من قلوب وتموجات من نفوس مسها الشاعر مسا رفيقاً كمس الطائر الماء بقادمة من قوادمه ، فخلف على صفحته صدى وتموجاً . وفى الطبيعة التى تتجمع حولها الذكرى ، ويبعث عليها الأسف مسكن مهجور ومتسع ومجهول لا يتمثله المتمثل إلا ويضيف إليه ما يعرفه عنه وما لا يعرفه عنه ، ويضفى عليه ما يوحيه به إليه كل سحيق بعيد مكانا كان أو زماناً ، وفى لغة الشعر الكلمات الايحائية ، وموسيقى الوزن

---

(١) جمع ابن خلدون الاستهلال فى الصفحة ٥٧٠ من مقدمته وجعله صورة واحدة لأسئلة مختلفة .

والقافية ، جميع هذا مسح الاستهلال مسحة من الكآبة الهادئة الشفافة الموحية ، فحببه إلى النفوس المحبة وساوى بين أثرها على تباين مصدرها فيكتئب الناس لقول امرئ القيس : قفا نبك . . . — ولقول عمر : عوجا نحيى . . . — ولقول كثير : خليلى هذا ربع . . . — ولقول المتنبى : بليت بلى الأطلال . . . يكتئب الناس لهؤلاء جميعاً محبين ماديين كانوا أو عذريين أو مقلدين ، ويعجبون بصناعة الشعر التى أخرجت المعنى الواحد مخارج متعددة . وقد يشتد عجبهم عند ما ينتهون من قراءتها ولا تخفق قلوبهم وتجف حلوقهم وتندى مآقيهم .

هذا ما يتراءى لى . وقد أذهب فى تأييده إلى حد أبعد ، فأظنه يقوم قيام رأى القائلين : ان هذا الاستهلال قد كسب الغزل العربى نغمة حزن وارتفع به إلى مستوى عال من النبل والصفاء فأثر فى الآداب الأوربية .

وذلك بأن نتلافى ما أهمله الشعراء أنفسهم فنغزل الخيط ونصله بالمسكن المهجور قبل الذكرى والأسف ، فما نجد؟ نجد أن الحب لم يشغل عند بعضهم جزءاً كبيراً محترماً من شعرهم ، فما فضله بعضهم على دابته وصيده وحربه ، وما ارتفع به غيره إلى منزلة الفخر والمدح والهجاء ، ووطأ به غيرهم فعالجه جرياً على سنة متبعة . ومن أجل هذا لم يرجع إليه معظم الشعراء الذين استهلوا به قصائدهم وأكثر الذين قلدوهم فيه . أما الذين عاودوه فكثرة من الغزليين الماديين ليصفوا عبثهم ومجونهم ويتفننوا فيهما ، وقلة من الغزليين العذريين ليبكوا حرمانهم ؛ وسنرى تفصيل ذلك . وإذا نحن تركنا الخيط إلى الهودج ورفعنا ستائره عن تلك التى أوحت النبل والصفاء فقد نلقاها كما تصورناها ، وقد نلقاها على غير ما أحب لها المحبون . وفى كلا الحالين من وصل الخيط وكشف الهودج مواطن للشك واليقين يترجح بينهما الباحث ، وقد يشق عليه الجزم بأحدهما جزماً قاطعاً .

أما الاستهلال الثانى (فى وصف النساء) فهو أفصح وأطول ، وقد يتجاوز أغراض القصيدة كاستهلال الأحوص ، وقيس الرقيات ، ومسلم وغيرهم ، وهو يتصل بالغزل المبثوث فى ثنايا القصائد ، والمستقل بها اتصالا وثيقاً ، يؤلف منها وحدة متينة غنية متساوقة فى ضربيها : المادى والعذرى .

٢ — الغزل المادى

قوام المادى اللذة الحسية وما يبعث عليها ويلازمها . وعماد العذرى اللذة العاطفية وما يسببها وينشأ عنها — وسيأتى الكلام عن كل منهما فيفصله تفصيلا مستوفى . والغزلان عرفا فى أيام العرب المختلفة ، ولكنهما لم يستقلا إلا فى العصر الأموى ، فانتشر المادى فى الحاضرة وفشا العذرى فى البادية . وقد شذ العباس بن الأحنف فانه كان يمثل العفة البدوية فى حاضرة الدولة العباسية ، كما شذ ابن الطثرية فانه كان يصور العبث الحضرى فى البادية العفيفة .

ولازم المادى الشعراء فى جميع عصورهم وأمصارهم ، فلم يستطع أحدهم أن يبرأ منه . وغالب الغزل العذرى فغلبه بعد حين ، كما نبه إلى ذلك عميد الأدب العربى (١) .

ولو قدر لباحث أن يقرأ الغزل المادى أو القسم الوافر منه ، مما يذكره بعض كتب الأدب ومما يتغاضى عنه بعضها ، لاستخرج أموراً أشهرها :

(ا) أن هذا الحب لذة حسية : لمسية فى جس الندامى ، ذوقية فى ريقها البارد ، شمية فى مسكها الفائح ، سمعية فى صربر سريرها ، بصرية فى بان قامتها وكثيب ردفيها . وإن وصف هذه اللذة على هذا النحو قمين بأن يخلق جواً من العبث والمجون والاباحة تضل بينها العاطفة النبيلة الصافية السامية . ويرجع ذلك إلى الغزليين الماديين الذين ردوا الحب إلى أبسط عناصره ، إلى الأنثى وما تقدمه بين أيديهم من لذة حسية . وكيفما قلبت غزلهم وجدت اللذة الحسية عائمة على صفحاته ، وكيفما وقفتها أو حركتها استقرت فى أعمق قراراته .

وإن هذه اللذة متفاوتة عند الشعراء بين كثافة وشفوف وشذوذ . وقلما اشتدت كثافتها فى شعر الجاهليين لأنهم لا يؤثرون لذة الحب على لذة الصيد ، ولا يفاخرون باستحواذهم على المرأة فخرهم بشجاعتهم ، ولا يفضلونها كثيراً على ناقتهم . أما من شذ منهم كزهير وعنترة فيمرون باللذة مروراً كريماً

(١) الدكتور طه حسين بك : «حديث الأربعاء» .

ليبلغ الأول إلى المدح ، وينتهى الثانى – بعد حب عفيف – إلى الفخر . وأنت عند ما تقرأ وصف الجاهليين للمرأة لا تشعر بأكثر مما تشعر به عند رؤيتك تمثالا من الرخام يصور امرأة بعض أعضائها عريان .

ولكنك حين تتجاوز العصر الجاهلى إلى العصور التالية ، تلقى ما يبعث على اللذة الحسية ويلازمها قد اشتد وتفرع وتنظم ، بفضل عمر وجماعته ، وعلى يد والبة وعصابته ؛ إذ كانوا طلاب لذة حسية وعبث ونكاية ، فأغرقوا فى التشبب بالمرأة وبالغوا فى وصف الأمرد ، وتزيدوا فى وصف المحصنات نيلا من خصومهم فى العصبية ، حتى ليسأل باحث الأدب نفسه : هل تقاضى هؤلاء الشعراء مالا على ذلك ؟ . . .

وهكذا لا يتهيأ لنا أن نضيف الغزل المادى الذى عرف بعد الجاهلية إلى غزل الجاهلية المادى ، إلا إذا درسناه على أنه مستقل عما لازمه من فسق وفجور لم تذكر أشعارها الكتب التى توضع فى متناول الطلاب ، فأضعفناه ، أو إذا درسناه على مذهب التطور نأدغمنا به ما تفرع عنه كالغزل بالمذكر فأثقلناه . ولكنه يتهيأ لنا أن نقسم الغزل المادى إلى كثيف وشفاف وشاذ .

(ب) ويستنتج الباحث أن صورة المرأة التى تقدم هذه اللذة بين أيدى هؤلاء الشعراء واحدة :

يقول طرفة : وفى الحى أحوى . . . – فيردد جميل : سبتنى بعينى جؤذر . . . – ويكرر جميل : لها من الريم عيناه . . . – ويقول أبو تمام : وهى كالظبية . . . – ويعيد المتنبى : ورنت غزالا . . . وإذا انتقلنا من العين إلى الفم وقعنا على مثل هذه الوحدة التى لم يفصمها الزمان أو يعدلها المكان . فالفم عند عنترة : عذب مقبله . . . – وعند مسلم : وريقى ماء غادية بشهد . . . – وعند البحترى : تنبى عوارضه عن بارد شبم . . .

كذلك الحال فى الطيب المنبعث منها ، فهو فارة تاجر فى الصحراء ، ومسكة عجنت ببان فى المدينة ، وتحمل المسك عن غدائرها فى حلب ، وعطرت الآفاق فى الأندلس ، ثم يعكس فتعطر الآفاق فى الصحراء وبغداد ، ويبيعها التاجر فارة فى الأندلس . هذا عدا ما اشترك فيه الشعراء من قد البان ، وردف الكثبان ، وما يدخل فى هذا الباب ويعد ذكره إطالة ، وخلا ما لا يجوز ذكره .

ولكن هذه الخطوط العريضة المتشابهة لا تؤلف صوراً واضحة لنساء سويات ، ولا لامرأة واحدة كاملة ؛ لأن الشعراء الذين تغزلوا بها لم يصفوا منها إلا ما له بحواسهم صلة ، وما يبعث على اللذة الحسية . ولئن هم شعروا أمامها بعاطفة كريمة ، ورأوا عندها جمالا رائعاً ، وتمثلوا فيها مثلا سامياً ، غلبت عليهم اللذة الحسية . فاذا انحلت هذه اللذة تداعت العواطف والجمالات والمثل ، وضاق الخيال الفسيح ، وقصر الالهام المبدع ، وحل محل هؤلاء جميعاً فتور وقنوط حيناً ، وتقليد وصناعة أحياناً . ولو أراد مصور أن يرسم صورة لامرأة الشعراء لما احتاج إلى كبير عناء ؛ فشعورها فى حواسها ، وجمالها فى أعضائها كالعين والريق والقوام . وخيال شعرائها يتسع إلى ما يناسب جمالها كعين الغزال وطعم الشهد ، وقضيب البان ، مما كان يراه الناس فى كل خطوة يخطونها ، ومثالها فى مناعتها أو تمنعها وإلهامها نادر لا يعتد به .

(ح) وإذا لم يكن ثمة فرق فى الصورة ناسب ألا يكون هناك فرق فى الاسم . فالمرأة فى مطلع القصيدة هند ، وهى بعد أبيات عبلة ، تسكن فى الاستهلال الحاضرة وتنتقل ببضع أبيات إلى البادية ، ويضيع بين الزمان والمكان عمرها فلا هى عذراء ولا ثيب ، ولا هى عانس ولا أرملة ، كما يضيع مركزها ؛ فربة القصر تشبه قينة الحانة وراعية الابل إلا فيما ندر . وعى الشعراء فى الكلام الذى يتحدثون به إلى حبيباتهم وتتحدث به حبيباتهم إليهم ، فتتميز الحليلة من الخليلة والغنية من الفقيرة ، فكأنما المرأة قد نحتت للشعراء من قديم الزمان فى تمثال هاموا به جميعهم وانحصروا فيه كلهم ، وإن هم تفاوتوا فى وصفه فتفاوت لا يزيد على رؤية هذا التمثال فى وهج النهار أو تحت ضوء القمر ، ولا يعدو ترقى الأسلوب من السذاجة إلى المحسنات البديعية ، وتظل المرأة فى تمثالها ذات رسم واحد لا يتغير خلال عشرين قرناً من الزمان وفى أثناء عشرين موضعاً من الأماكن إن لم يكن أكثر .

(د) ما وراء هذه الصورة ؟ إن المرء عند ما ينظر إلى صورة ما ، يبحث عن المعنى الذى قصد إليه الرسام من رسمها . فما هى المعانى التى أرادها الغزليون للحبيبة ؟ ليس ما وراءها من المعانى بأكثر مما فيها من الخطوط ؛ فهى فى نفسيتها أفقر منها بصورتها . والا فأين المعانى المستمدة من غريزتها وقلبها وعقلها ومن عشرات الأسباب التى يلون كل واحد منها المرأة بلونه ويصبغها

بصبغته لتخرج صورة جديدة مستقلة ؟ ومن هذه المعانى تختلف صور النساء ، فهذه نمرة وتلك نعجة هذه عذبة مرحة مدللة ، وتلك حزينة جادة مدبرة . وتظهر نفسياتهن فترى الساذجات الطاهرات الكريمات والشريرات الفاجرات ، وتوضح إرادتهن فتجد منهن من تلتهب بنظرة وتضحى بالعالم من أجلها ، ومن تقصر حبها على رجل فاذا تصرت يده عنها أحبت الرجال جميعاً ، ثم ما يقابل ذلك عند نساء يحببن ويكتمن حبهن حتى الفقر ، ويواصلنه إلى ما بعد القبر . ثم أولئك اللواتى يستسلمن للحب رغبة فى الفضول والعادة أو هرباً من ضجر الماضى وخوفا من ضياع المستقبل .

إن الكثير من هذه المعانى معدوم فى غزل شعرائنا . وأحر بهم أن يفقدوا وصف العواطف الملازمة له ، تلك العواطف الدقيقة اللطيفة التى لا يكاد المرء يضع يده عليها ويحاول التعبير عنها ، حتى تتضعضع وتتفرق أشبه ما تكون بفقاقيع الصابون الملونة . فاذا عاود الكرة عثر على ما لم يكن يعرف أنه موجود فى نفسه وفى نفوس الآخرين ، فيصفه الشاعر وقد شرع بالابتداء أو أشرف على الانتهاء متخذاً شكلا ولوناً وقيمة ليست للعواطف العادية .

ما لنا ولكل هذه الصور ، ولجميع هذه المعانى ولسائر هذه العواطف ؛ فقد كنا نود أن نلتقى صورة امرأة واحدة ، يمر فى خاطرها أفكار وفيرة ، وتنعكس على وجهها عواطف متباينة ، وهى تمر بمراحل الحب كالكبرياء والخوف والفضيحة والهم . فتشعر بعواطفها وتعبر عنها فلا تقل العاطفة عن أختها قوة وعمقاً وصدقاً ولا أسلوباً معبراً عنها . مثال ذلك أن لراسين اثنتى عشرة امرأة لاثنتى عشر حبا لا تشبه الواحدة الأخرى ، ولا ينسخ الواحد الآخر ، ولا يجمع بينها إلا الغزل والقوة والعمق والصدق . ومن نسائه فدر Phèdre فهى حذرة آملة ، مفضوحة ، موبخة تائبة ، تشعر بهذه المشاعر شعوراً قويا عميقاً صادقاً وتعبر عنه تعبيراً متيناً خاصاً واضحاً ، فى خلال أربع وعشرين ساعة . وإذا قيل : إن المسرح يقتضى ما لا يقتضيه الغزل المطلق قلنا : إن المسرح — ولاسيما فى القرن السابع عشر — كان يجمع الشخصيات من العالم ويضع بعضها تجاه بعض لتتفاعل ، وما كان يخلقها من عنده . أفما وجد شعراؤنا نساء شعرن ببعض الذى شعرت به نساء المسرح ؟

وقصارى القول إن صورة المرأة الخارجية ليست سوية ، ومعنوياتها مفقودة

فى معظم هذه الصورة ، وعواطفها قليلة وضئيلة ، وليس لها إلا صورة واحدة ترسمها حبيبة ثم لا صورة لها ، وهى أم وشقيقة وزوجة وميتة ، حتى إن صورة الحبيبة لا يشترط أن تحوى تكويناً خلقيا وخُلقيا مستقلا بها يميزها من غيرها ويجعلها محبوبة من أجله دونهن ومفضلة ولو على واحدة منهن .

وعليه لو وضعنا خولة التى لطرفة موضع فاطمة التى لامرئ القيس ، وأحللنا عبلة عمر محل عبلة بشار ، ما فقد الغزل شيئاً من صحته وقيمته . ولو أن الله بعث شعراءنا وبعث عشيقاتهم بأوصافهم لما عرفوهن ، على أغلب الظن .

نجيب العقيقى

شهرية السياسة الدولية

المسابقة بين الجبارين

تضافرت عناصر السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى فى سبيل إبراز ما نستطيع تسميته بالتسابق بين الجبارين : الولايات المتحدة ونظامها التمويلى المتطرف إلى أقصى اليمين ، والاتحاد السوفيتى ونظامه الاشتراكى المتطرف إلى أقصى الشمال . وإذا كان هذا التسابق قد لاحت بوادره منذ وقفت رحى الحرب العالمية الثانية بل قبيل وقوف رحاها ، وإذا كانت عوامل هذا التسابق قد توالى ظهورها طوال السنتين الأخيرتين ، وقد تجسمت بخاصة إثر إخفاق مؤتمر وزراء الخارجية الذى انعقد بلندن فى شهر نوفمبر الماضى ، فان الشهر المنقضى قد سجل اتساع الرقعة التى يمتد ظل التسابق إليها ويحاول الانتشار فوقها ، وقد شملت القارة الأوربية كلها وراحت تشمل الشرق الأوسط إلى جانب ما كانت تقف عند حدوده الضيقة فى القارة الآسيوية ، فى تلك المناطق الواقعة بين الأراضى الروسية والأقاليم الصينية واليابان .

المناطق الألمانية

أما فى أوربا فقد تجلى التسابق حين أعلنت الولايات المتحدة بموافقة بريتانيا ضم المنطقتين الألمانيتين المحتلتين بالجنود الأمريكية والقوات الانجليزية وإدارتهما إدارة مزدوجة. وقد قابل الاتحاد السوفيتى هذا الاعلان بالاحتجاج إذ اعتبره خارجا على الاتفاقات المقررة فى مؤتمر « بوتسدام » ، وهى تقضى بأن ترجع الادارة فى المناطق الألمانية كلها إلى لجنة رباعية مقرها برلين تتمثل فيها السلطات السوفيتية والفرنسية والأمريكية والبريتانية ، وتكون معها السلطات المحتلة بمثابة الهيئات التنفيذية ليس إلا .

وكان من شأن ذلك الاحتجاج السوفيتى أن شاعت شائعة أن الحكومة الروسية ستطالب بخروج القوات الانجليزية والأمريكية من برلين ذاتها ؛ لأن العاصمة الألمانية القديمة واقعة فى منطقة الاحتلال الروسية ، وكان وجودها فيها إلى جانب اللجنة الرباعية رمزا للادارة الرباعية المنبعثة من اتفاقات بوتسدام . فما دامت انجلترا وأمريكا قد خرجتا فى نظر الاتحاد السوفيتى على هذه الاتفاقات بضمهما منطقتيهما وخصهما بنظام مميز ، فان حكمة قيام اللجنة الرباعية قد انتفت ، وبقاء هذه اللجنة وما يتبعها من قوات فى برلين ذاتها غير مستساغ .

وليس يدرى أحد حتى ساعة كتابة هذه الشهرية مدى التطور الذى سيترتب على الاحتجاج السوفيتى والمطالبة السوفيتية ، ولا سيما أن الدلائل لا تدل على اتجاه الولايات المتحدة شطر النزول على الرغبة السوفيتية ، بل إنها لتذهب إلى عكس هذا الاتجاه ؛ إذ لا تفتأ الحكومة الأميريكية

تطالب السلطات الروسية بتقديم الحساب عن تصرفاتها فى المنطقة الألمانية التى تحتلها بالنسبة للنشاط الصناعى ، وما اتصل منه بالانتاج الحربى بخاصة .

اليونان والبلقان

وقامت فى تلك الأثناء مضاعفة هى إقدام قائد الثورة فى اليونان على إعلان قيام حكومة يونانية مستقلة عن حكومة أثينا ، بل خارجة عليها ومحاربة إياها قصد إقصائها عن الحكم والاستيلاء عليه فى التراب اليونانى جميعه .

وكان من شأن هذا الاعلان أن خشيت انجلترا وخشيت الولايات المتحدة أن تعترف روسيا السوفيتية وأن تعترف دول البلقان بالدولة اليونانية الجديدة ، وأن يتسرب عن طريق هذا الاعتراف المدد إلى الثائرين فتتكرر فى جنوب أوربا الشرق مأساة جنوبها الغربى يوم تلاحمت القوات المستترة الفاشية النازية من ناحية والروسية الفرنسية من ناحية ثانية عند ما كانت الحرب الأهلية قائمة فى أسبانيا .

وقد دعت تلك الخشية الدولتين الانجلوسكسونيتين إلى إبلاغ الدول البلقانية تحذيرهما من الاعتراف بالدولة اليونانية الجديدة ، لكنهما لم تحاولا التحدث إلى الاتحاد السوفيتى فى ذلك الشأن .

وكانت الخطوات فى سبيل توثيق العلاقات بين دول البلقان قد امتدت إلى حد توقيع المعاهدات المهيئة لأسباب إقامة تحالف « صقلبى » ، فشجع ذلك على الوقوف من التحذير السكسونى موقف عدم الاكتراث ، فلم تتوان يوجوسلافيا فى الاعتراف بحكومة الجنرال ماركوس ، ولم تلبث لجنة الأمم المتحدة المشرفة على شؤون البلقان أن تسجل فى تقرير بعثت به إلى مجلس الأمن ما لاحظته من تقديم ألبانيا المعونة للدولة اليونانية الجديدة عن طريق الأسلحة والذخائر وعن طريق القوات المحاربة التى ترتدى الملابس العسكرية الألبانية بالذات .

والقول أنه لن ينقضى وقت قصير حتى يعلن الاتحاد الصقلبى وهو يضم يوجوسلافيا وبلغاريا وألبانيا فيصبح اعتراف يوجوسلافيا عاما شاملا الاتحاد الجديد كله ، إلى جانب ما يصبح مدعوما به من المواثيق التى عقدت أخيراً بين يوجوسلافيا ورومانيا والمجر .

وكان من شأن هذا التطور بل من شأن هذه المضاعفة ، أن أقدمت الولايات المتحدة على زيادة المدد الذى ترسله إلى اليونان ، وعلى احكام التنظيم العسكرى فيها بالتعاون مع القوات البريتانية التى تقرر خصها بمنطقة سلانيك خشية أن تصل جنود الحكومة الثائرة عن طريقها إلى مياه البحر الأبيض المتوسط .

والشرق الأوسط

وشاءت الدبلوماتية البريتانية أن تنتهز الفرصة لتسويغ سعيها لدى الدول العربية فى سبيل عقد محالفات عسكرية معها فقالت أن هذه المحالفات يحتمها ذلك التكتل

البلقانى الذى ينبغى أن يقابله تكتل مشرقى.

وقد انتهت بالفعل إلى عقد معاهدة تعاون عسكرى مستند إلى فكرة الدفاع المشترك مع حكومة العراق القائمة تعديلا لمعاهدة التحالف العراقية البريتانية المبرمة سنة ١٩٣٠ ، واستعدت لعقد معاهدة مماثلة مع شرق الأردن ، وللسعى فى سبيل عقد معاهدات على غرارها مع العربية السعودية واليمن . ويقال إنها ستحاول التعاهد مع سوريا ولبنان دون سابق ارتباطهما بمعاهدة أو اتفاقية . وكذلك فان المساعى الحثيثة مبذولة فى سبيل التغلب على العقبات القائمة فى وجه التفاهم مع مصر على فض النزاع القائم بين البلدين حول الجلاء ووحدة وادى النيل .

ولم يكد يذاع نبأ توقيع المعاهدة العراقية البريتانية فى بغداد حتى قوبل فيها وفى سائر العراق بالاحتجاج ؛ إذ أضرب الطلبة والعمال وقامت المظاهرات ، وكذلك أذيع أن الحكومتين السورية واللبنانية قد قررتا التريث وعدم إجابة الحكومة البريتانية إلى عرضها التحالف معها والتعاهد قبل أن يسوى النزاع المصرى البريتانى ؛ فقد تقضى أحكام التحالف الجديد بمساهمة قواتهما فى خلاف تكون فيه مصر فى جانب و بريتانيا فى جانب آخر ، وهو مالا ترضاه الدولتان الشرقيتان ، بل مالا ترضى عنه أوضاع الجامعة العربية ولا روابط الأخوة التى تربط بين مصر وسائر الأقطار العربية والشرقية .

مشروع مارشال

ويتصل مشروع مارشال بالتسابق بين الجبارين الذى تنتابه تلك المضاعفات التى أشرت إلى بعضها فيما تقدم .

ومشروع مارشال قد انتابته هو الآخر مضاعفات . فقد كان مفهوما أنه سيتقدم بالمعاونة السخية لست عشرة دولة من دول أوروبا قصد إنقاذها من شلل الانتاج الذى قد يعرضها للارتماء فى أحضان الشيوعية أو للاستجداء من الاتحاد السوفيتى . لكن مجلس « الكونجرس » الاميريكى لم يتقبله التقبل الذى كان يأمله وزير الخارجية وكان يدفع إليه رئيس الجمهورية . فقد نقصت أرقام الاعتماد المطلوب لتحقيقه بنسبة كبيرة ، وقد كان من شأن نقص هذه الأرقام أن تقتصر الاعانة الجدية على بريتانيا وفرنسا وإيتاليا واليونان ، وأن يطالب لهذه الاعانة بمقابل يذهب إلى حد النزول للولايات المتحدة عن قواعد بحرية أو جوية فى مياه أو أراضى هذه البلاد .

وقد كانت تركيا أسرع تلك الدول الست عشرة إحساساً بشدة وطأة المضاعفة الجديدة ، فبادرت الى الشكوى من حرمانها من استمرار مدها بما مدت به حتى اليوم من وسائل التسليح وأدوات الانشاء ، وهى التى تعتبر نفسها معرضة قبل غيرها لما تحسبه تهديدا جديا من جانب الاتحاد السوفيتى الذى لا يزال يرنو الى «المضايق» ولا يزال يفكر فى «قبرص وأردهان» .

ولا يزال «الكونجرس» حتى كتابة هذه السطور يناقش أمر الاعتماد اللازم لتحقيق مشروع مارشال على صورته الجديدة المتواضعة . ويقابل ذلك من ناحية الاتحاد السوفيتى إحكام الصلات الاقتصادية بينه وبين سائر الدول الواقعة إلى شرق الخط

الواصل بين «ميمل وشتتين» إلى «تريستا» والساحل الألبانى، وإقدامه على دعم نظام النقد فى داخله، بل تفكيره فى ضمان هذا النقد بمعدن «البلاتين» المتوافر فى مناجمه، وهو لا يقل قوة وثباتاً عن الذهب الذى يستند إليه الدولار الأميريكى .

لكن الخطر غير داهم

تلك هى المضاعفات الطارئة خلال الشهر المنقضى على أوضاع السياسة الدولية، وهى مضاعفات غير مطمئنة لانها تزيد من أسباب عدم الاستقرار فى العلاقات بين الدول . لكنها مع ذلك لا تنذر بخطر داهم كما يود بعض المعقبين أن يذهبوا إليه فى تنبؤاتهم . ذلك أن العالم لا يزال يئن من أهوال ما أصابه طوال الحرب، وذلك أن الناس غير مستعدين لاستئناف استقبال هذه الأهوال من جديد . ولعل القادة والرؤساء يعرفون هذه الحقيقة ويلمسونها فيقفون عند حدود «السلم المسلح» ولا يتجاوزونها .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الموسم الأوربى فى دار الأوبرا

ابتدأ فى شهر ديسمبر الماضى الموسم الحقيقى لدار الأوبرا الملكية، حين ظهرت فيه فرقة الشانزلزيه للمسرحيات الراقصة. وإذا كنا نعتبر ظهور هذه الفرقة مبدأ لموسم الدار، فذلك لأننا نريد أن نرى فى موسمها الحقيقى ما ينطبق كل الانطباق على الغرض التى أقيمت من أجله.

فاسم الأوبرا يطلق على نوع خاص من المسرحيات ليس فيها التمثيل وحده، ولا التصوير وحده، ولا الموسيقى وحدها، وإنما هى جماع لهذه الفنون. وكلمة الأوبرا نفسها فيها مدلول هذا الجمع بين الفنون المختلفة؛ فهى كلمة ليس لها معنى إذا ترجمت إلى لغتنا إلا كلمة العمل. فالذى يقصد بها إذن أن التمثيل وحده ليس بعمل، وتصوير المناظر وإبرازها على أحسن صورة كما يحدث فى المسرح ليست بعمل، والموسيقى وحدها على ما بها من تأليف لجوقة تجمع شتات الآلات العازفة ليست بعمل، وإنما العمل أن تجمع بين هذه الأنواع جميعاً فى مسرحيات فيها التمثيل وفيها الغناء والموسيقى، وفيها المناظر البارعة. وهذا هو العمل الذى يحتاج لمجهود فنى كبير.

ليس هذا موضع شرح الأطوار التى مرت بها الأوبرا؛ فنحن إنما نعرض لموسم خاص بذاته، هو موسم هذا العام، وإنما نريد أن نعرض بكلمة لصيحة مترددة نسمعها أحياناً فى هذا البلد هى التساؤل عن قيمة هذا الموسم. فبين حين وآخر نرى واحداً أو اثنين أو أكثر، من المتعلمين، بل أحياناً من المثقفين، يقررون أن هذا الموسم لا يفيد البلاد فى شئ. ولهؤلاء نريد أن نوجه كلمة بسيطة صغيرة لا نتوسع فيها، هى التساؤل: ما فائدة أى شئ نتصل به من مبتدعات الغرب؟ ما فائدة الكتب الأوربية مثلا؟ ما فائدة الثقافة الأوربية؟ إذا كان هؤلاء يقرون أن للثقافة الأوربية والابتداع الفكرى الأوربى قيمة، فيجب أن يعترفوا بنوع يعد من أكبر مظاهر الفن الأوربى. وحينئذ يعلمون أن ذلك العظيم الذى أنشأ هذه الدار فى وسط عاصمة البلاد، إنما كان رجلا يشعر بالثقافة الحقيقية، ويعمل لترقية بلاده وأخذها بأسباب الحضارة.

لسنا نريد أن نتوسع فى هذه الناحية فان لها مجالا آخر، وإنما نريد أن نعرب عن سرورنا، إذ نرى أن هذا الموسم كالموسم الماضى قد دبر فكرته وأشرف عليه رجال من مواطنينا، يفهمون حق الفهم رسالة هذه الدار، ويعملون رغم الأقوال للنهضة بها بدلا من أن تكون أعمالها فى يد الأجانب.

ولقد أثنينا فى ملاحظات على الموسم الماضى، على ما بذله القائمون بأعمال دار الأوبرا الملكية فى تدبير الموسم رغماً من الصعاب التى أشرنا إليها. ونحن اليوم يزيد إعجابنا بما دبروه لهذا الموسم من تنوع فى الفرق التى نراها فى هذا المسرح، مما يدل على ذوق سليم وحماسة. فلا شك فى أن الادارة المصرية التى يشرف عليها الأستاذ سليمان نجيب بك مدير دار الأوبرا،

والأستاذ عبد الرحمن صدقى وكيلها ، جديرة بالتهنئة على فهمها التام لعملها ، وعلى مجهودها فى سبيل تحقيق الأغراض التى أنشئت من أجلها هذه الدار . فهى التى قد أرادت التنويع ، فأتت بهذه الفرقة للمسرحيات الراقصة كما أنها أتت بفرقة الأوبرا الايطالية، فضلا عن الفرق التمثيلية الأخرى .

أما فرقة الشانزلزيه للمسرحيات الراقصة فانها فرقة من الدرجة الأولى لهذا النوع من المسرحيات الذى ثبتت أقدامه فى الزمن الحديث . ولسنا نريد أن نقول إنها خير من فرق عدة من فرق الرقص الروسى رأيناها منذ عشرات السنين ، ولكننا نقول إنها بلغت درجة كبيرة فى فنها . وإنا لنرجو أن ترى القاهرة فى المواسم القادمة بعض الفرق الشهيرة الآن بهذا النوع من المسرحيات التى تعمل بنوع خاص فى لندن .

لقد أظهرت هذه الفرقة فنها فى عدة من المسرحيات الراقصة الشهيرة . ولكننا رأينا لها مسرحيات أخرى لم نكن شاهدناها من قبل ، ولعلها خاصة بهذه الفرقة . وقد أبدت فيها مهارة فى التمثيل بالاشارة والرقص كما هو الشأن فى هذه المسرحيات مع موافقة هذا التمثيل للتعبير الموسيقى .

فمن المسرحيات الراقصة الشهيرة التى رأينا فيها هذه الفرقة مسرحية « لعبة الورق » . وقد وضع موسيقى هذه المسرحية المؤلف الموسيقى الروسى الكبير فى هذا العصر سترافنسكى . وهى قصة الحظ وانتقاله فى تلك الألعاب التى تقوم عليه ، ممثلا فى الورقة الكبرى التى إذا وجدها اللاعب بين ورقه كان له أكبر مكسب ، وكانت الخسارة على غيره من اللاعبين .

وفى هذه الرقصة نرى الراقصين والراقصات يمثلون أنواع الورق المختلفة ، وهم يتنقلون فى رقصهم من جانب إلى جانب ، فى حين تلعب تلك الورقة التى تعين على الربح ألاعيبها . كما يقضى الحظ ؛ فهى تنتقل طوراً إلى هذا الجانب وطوراً إلى ذاك .

وقد أظهر الراقص جان بابيليه براعة فى دور الورقة الكبرى ، وكان رقصه بديعاً للغاية ، فى عنف يناسب الدور الذى يقوم به ، وهو ذلك الحظ الذى يواتى إنساناً ، ثم يدير له أكتافه ويتركه بلا شفقة .

ورأينا الفرقة أيضاً فى مقطوعات من مسرحية « العصفور الأزرق » للموسيقى تشايكوفسكى ، حيث أبدعت الراقصة أندريه ليلييفر ، والراقص جان جيل . كما رأيناها فى مقطوعات من « بحيرة البجعة » للموسيقى ذاته حيث ظهر فن الراقصة إيرين سكوريك والراقص يولى ألجاروف ، ولعلهما أبرز أعضاء الفرقة . ورأينا أيضاً تلك المسرحية الراقصة الشهيرة المسماة « خيال الوردة » وهى التى بنيت على ألحان الموسيقى الألمانى فيبر وقد ظهر فيها فن الراقصة نتالى فيليبار وجان بابيليه . وهما من خيرة الراقصين فى الفرقة .

أما المسرحيات الراقصة الجديدة التى أظهرتها الفرقة ونجحت فيها نجاحاً بعيداً فمن أولها « الفنانون المتجولون » . وهى تمثل حياة فرقة من تلك الفرق التى تقوم بأعمال بهلوانية . وهى تعرض فنها لا فى المدن الكبيرة ، فهى لم تبلغ بعد من الثبات والمال ما يمكنها من ذلك ، وإنما تعرضه فى أسواق القرى متنقلة من قرية إلى قرية . وما مسرحها فى هذه الحالة إلا بعض أخشاب تجرها على عربة ، فتنصب أخشابها وخيامها للتمثيل . وبعد أن تقوم بدورها قد لا يكون نصيبها إلا بضعة دريهمات لا تسد الرمق ، كما حدث فى هذه المسرحية ذاتها . وقد وضع

لها الموسيقى الفرنسى هنرى سوجيه ألحانا بديعة ملائمة للموضوع . وكان اتقان الفرقة فى هذه المسرحية كبيراً.

ومن مسرحياتها الجديرة بالذكر مسرحية «بنت الغاب» . وهذه فى الحقيقة وضعت منذ زمن بعيد لمسرح الأوبرا بباريس وضعها الموسيقى شنايتزهوفر فى سنة ١٨٣٢ وظلت تمثل إلى سنة ١٨٦٠ . ثم رفعت من البرنامج وتناساها الناس ، حتى رأت الفرقة إعادة بنائها من جديد . ولا شك أنها أحدثت فيها من التحسين ما يقضى به تقدم المسرحيات الراقصة منذ ذلك العهد ، لا سيما بعد ظهور فرق الرقص الروسى التى أخذت أوربا الغربية على حد تعبيرنا الحديث ، على غرة ، فأحدثت تطوراً عظيما فى فن المسرحيات الراقصة .

وقد حاولت الفرقة إحياء هذه المسرحية فوفقت فى ذلك توفيقاً كبيراً . وعادت المسرحية إلى احتلال المكان الذى كان لها عند ما وضعها تليونى واضع المسرحيات الراقصة الشهيرة فى أوائل القرن التاسع عشر .

ولقد شاهد رواد تلك الحفلات تصويراً بديعاً فى رقصة « الغسالات » مع ألحان فرنون ديوك . وهى قصة طريفة هزلية فيها الكثير من الرقص العنيف الذى ترقصه تلك الطبقات .

وكانت «صورة دون كيشوت» قصة طريفة أيضاً نشأت فكرتها من بطل سرفانتز الخالد. وكانت ألحان بتراسى مناسبة لها كل المناسبة .

ولعل خير ما أظهرته الفرقة من مسرحيات راقصة ، بدا فيها جمال الفن الحقيقى ، تلك القصة التى أبدعتها مخيلة الكاتب الفرنسى الكبير جان كوكتو . وهى قصة « الشاب والموت » . وقد اقتبست لها موسيقى من ألحان جان سبستيان باخ من أعظم الموسيقيين الألمان فى القرن الثامن عشر، ومن أعظم موسيقى العالم فى كل وقت ؛ ووضع رقصاتها رولان بتى . وقصة هذه المسرحية فى كلمة أن شابا يسكن غرفة حقيرة فى أعلى منزل ، يحب فتاة . وقد واعدها على زيارته فتزوره فى غرفته حيث يبوح بحبه لها ويتوسل إليها ، وهى تمتنع عليه وتوجه إليه الاهانات ، ثم تغادر غرفته بعد أن تشد فى جدار الغرفة حبلا وتدعوه لخنق نفسه إمعاناً فى إهانته . فاذا وجد نفسه وحيداً منبوذاً أقبل على الحبل فشنق نفسه . وحينئذ يدخل إلى الغرفة الموت وهو مقنع ويستصحبه سائراً به فوق سطوح منازل باريس . فاذا هم بأن يسير به فى الفضاء خلع قناع نفسه وألبسه للفتى . فاذا الموت فى مظهر الفتاة التى أحبها وأدت به إلى الموت .

وترى من ذلك أن فكرة القصة بديعة ، ومن أصلح الفكر للمسرحيات الراقصة كما كانت موسيقى باخ العظيمة تملؤها حياة وروعة .

لقد انتهت فرقة المسرحيات الراقصة من موسمها بالقاهرة، وانتقلت إلى الاسكندرية العاصمة الثانية للبلاد لتعرض فنها فى مسرح محمد على . وبدأت فى دار الأوبرا فرقة المسرحيات الغنائية « الأوبرا » وهى فرقة مختارة من أكبر المسارح فى إيطاليا وفيها الكثير من المغنين والمغنيات الذين سمعناهم فى الموسم الماضى .

وسنرجىء الكلام عن موسم الأوبرات إلى الشهر القادم حيث نكون قد شهدنا أكبر عدد منها . ولئن كان أكثرها قد شهدناه مرة ومرات فان ذلك لا يحول دون

التمتع به ، فالفن الحقيقى تزيد لذته ومتعته بكثرة المشاهدة .

وكل ما نريد أن نقوله ونكرره فى هذا الشهر هو أننا جد فخورين إذ نرى مستوى الموسم فى هذه الدار العريقة لا يقل تحت الادارة المصرية عنه فى أيام الادارة الافرنجية ؛ بل قد يرتفع هذا المستوى إذا راعينا الصعوبات التى يلقاها القائمون على دار الأوبرا بالنسبة لصعوبة الاتصال بين بلاد العالم والظروف التى لاتزال قائمة فيه .

حسن محمود

شهرية السينما

تمتاز الأفلام التى عرضت فى هذا الشهر عامة بتفاهتها قصة وإخراجا ، هذا إذا استثنينا فيلماً أو فيلمين عرضا فى الأسبوع الأخير . وهذه الظاهرة التى نلمحها فى الانتاج العالمى الذى يعرض فى القاهرة تعود لا إلى ركود سائد بين فنانى العالم ، وإنما ترجع إلى نوع الأفلام التى يتاح لشعب مصر أن يشهدها . وقد قلت فى مقال سابق إن السينما الأمريكية تعانى أزمة شديدة ، ودرست مظاهر هذه الأزمة وأسبابها ، وقارنت بين الانتاج الأمريكى والانتاج الأوربى ، وانتهى بنا الرأى إلى أن أوربا قد تفوقت على أمريكا فى هذا المضمار فى السنوات الأخيرة . نحن نعلم أن انجلترا وفرنسا وإيطاليا جادون فى الارتقاء بالفن السينمائى ما وسعهم ذلك . فاذن كيف لم يتح لنا أن نشهد هذا الانتاج حتى الآن ؟ ولا نستطيع الاجابة على هذا السؤال إلا إذا اقتحمنا ميدانى السياسة والاقتصاد فى العالم ودرسنا سيطرة أمريكا على دول أوربا اقتصاديا . وبما أن هذه الشهرية لا تعنى بالمسائل الاقتصادية ، وإنما تعنى خاصة بالفن السينمائى من حيث هو فن ، فلن أقتحم الميدان السياسى أو الاقتصادى ، بل سأكتفى بأن أكرر ما قلته سابقاً : وهو أن أمريكا ، لكى تتيح لأفلامها الرواج ، قد فرضت على الدول الأخرى فروضاً تحد من إصدار إنتاجها . وقد يكون هناك سبب آخر بعيد كل البعد عن الاقتصاد والسياسة ، سبب يعود إلى الفكرة السائدة فى الغرب عن بلاد الشرق وتقهقرها ثقافيا ، مما يجعل المنتجين يعتقدون أن بلاد الشرق ميدان صالح لعرض أتفه الأفلام . وهذه الفكرة قد أوحاها ما يعرض من أفلامنا المصرية فى أوربا بين حين وحين وما يقال عن تهافت المصريين عليها .

وقد اخترت بعض الأفلام التى عرضت أخيراً لأتحدث عنها . فقد سعى إلى بعضها الجمهور ليشهدها راضياً مطمئنا لما يبعثه عنوانها وأسماء ممثليها من رضا واطمئنان ، وسعى إلى البعض الآخر وهو يعرف ما ينتظره من ملل وسأم ، وإنما دفعه الفضول ليشهدها فيدرك ما وصلت إليه بعض الجهات الفنية من تقدم إن كان هناك تقدم يلتمس ، أو من تقهقر إن لم يكن هناك تقدم يلتمس . ومن اليقين أن جمهورنا مع ما يعرف عنه من ثقافة عالية وذوق مرهف لم يرض عن هذه وتلك ؛ لأنه ليس ثمة ما يدعو إلى الرضا .

أفلام الرعب

فى الواقع أننا لم نشهد إلا فيلمين من هذا النوع ، وهما من انتاج فرنسا . وهذا ما يجعل لهما شأنا عند النقد ؛ لأن المنتجين الفرنسيين لم يحاولوا قبل ذلك أن يصنعوا أفلاماً مخيفة . وكان هذا النوع من الأفلام وقفا على أمريكا . وقد وجد مخرجو هوليوود وسائل كثيرة لاثارة الرعب فى قلوب الشاهدين ، واكثروا من هذه الوسائل ثم

أسرفوا فيها حتى انصرف الجمهور عن تلك الأفلام . نحن لم ننس أفلام « فرانشكتين » و « دراكولا » و « زومبى الأبيض » و « شبح الأوبرا » ولم ننس ممثلى هذه الأفلام بيلا لوجوزى ولون شانى فى عهد الأفلام الصامتة . فنحن هنا إزاء نوع جديد من الأفلام الفرنسية يهمنا أن نعلم إلى أى مدى نجح المخرج فى إنشاء الجو الملائم لها واختيار الممثلين الصالحين . وأول هذه الأفلام هو « القاتل يخاف ليلا » *L'assassin a peur la nuit* وهذا العنوان الطريف يدفع وحده الشاهد إلى أن يسعى إلى السينما ليشهد هذا الفيلم معتقداً أنه سيمضى ساعات عذبة تنسيه الحياة واضطرابها ، لما سيكون فى القصة من مواقف مثيرة تستأثر بحواسه وتجعله فى لهفة متصلة مدة عرض الفيلم . ولكن ما يتخيله الشاهد شئ وما أنتجه المخرج الفرنسى دلانوا شئ آخر . فالقاتل أولا ليس بقاتل وهو لم يخف مطلقاً سواء أكان فى الليل أم فى النهار . والقصة تسير فى هدوء تام ؛ فلا إثارة ولا لهفة ولا أى شئ من ذلك الذى كان يعده به العنوان .

وقد أعلن عن شريط آخر من النوع نفسه عنوانه « فونتوماس » وقد كثرت الشائعات حول مناظر هذا الفيلم المرعب ونصحت إدارة السينما للعصبيين ألا يشهدوا هذه القصة . فاعتقدنا أن هذا الفيلم سيصيب من رضانا أكثر مما أصاب الفيلم الأول فاذا هو لا ينال إلا سخطنا . فالممثل الذى كان يقوم بدور فونتوماس لم يكن يوحى الشر مطلقاً بل كان وجهه من تلك الوجوه التى تبعث الاطمئنان فى النفوس . والقصة خيالية من هذا النوع الذى كنا نشغف به أيام طفولتنا . والاخراج لم يوفق فى إنشاء هذا الغموض الذى يسود فى قصص الرعب ولا هذا الجو الذى يجعل الشاهد ملهوفاً حيناً وخائفاً مضطرباً حيناً آخر ، ولم يثر فيه الفضول وحب الاستطلاع ، بل مرت حوادث الشريط وعلى شفتى الشاهد ابتسامة سخرية واستهزاء لهذا العبث الذى يشبه عبث الأطفال .

فيلم ساذج

وهذا الفيلم هو « الأب الهادئ » أذكره لأنى استحسنت ممثله الأول نويل — نويل خاصة ، ولأنى أعجبت بممثليه الآخرين عامة مع أنهم لم يصيبوا شيئاً من الشهرة . ونويل — نويل هو الذى وضع السيناريو وأشرف على تحقيقه وقام بدور بطل القصة التى تجرى حوادثها فى فرنسا أثناء الاحتلال . وهى تحاول أن تعطينا صورة عن حركة المقاومة أثناء الحرب الأخيرة ، ولكنها لم تصل إلى أن تصور لنا حال تلك الحركة تصويراً صادقاً واقعيا .

فمن المعلوم أن أعضاء حركة المقاومة قد عانوا صعاباً كثيرة وذاقوا عذابا مريراً وكافحوا كفاحاً عنيفاً ، وأن الالمان كانوا أكثر دهاء وأوسع حيلة مما جاء فى سيناريو نويل — نويل . ولكن إذا استثنينا هذه الناحية من القصة فنحن نجد فيها صورة صادقة لشعور الفرنسيين وحياتهم لم يفلح الامريكيون فى إعطاء مثلها فى أفلامهم عن المقاومة .

والأب الهادئ هو رب أسرة يبدو أن ليس ثمة شئ يشغله عن أزهاره ، ولكنه

فى الحقيقة رئيس فرقة من فرق المقاومة . فهذه الأزهار التى يبذل لها جهده ويشملها بعنايته ما هى فى الحقيقة إلا ستار يخفى وراءه نشاطه السياسى والحربى . وهذا الهدوء الظاهر يتيح له أن يتقرب من قوات الاحتلال وأن ينبئ المركز الرئيسى فى لندن عن حركاتها ونياتها . ويدوم نشاط الأب الهادئ إلى أن يشتبه فيه الألمان فيقبض عليه ، ولكن الحظ لم يخنه فينقذ من قبضتهم.

وقد نجح نويل—نويل فى تصوير شخصية هذا الرجل الهادئ ، كما أنه نجح فى أن يعرض هذه الحوادث الخطيرة دون تلك المغالاة التى أسرف فيها الأمريكيون فى جميع أفلامهم عن الحرب .

مأساة موسيقية

والمأساة الموسيقية التى أريد التحدث عنها هى « خيبة أمل » Deception ثالث الأفلام الموسيقية التى عرضت فى هذا الموسم. ولا يسعنا إلا أن نشكر الأمريكيين على هذه السياسة الحميدة التى يتبعونها ، وهى نشر الموسيقى الكلاسية وتعميمها بين أفراد الجمهور . ولا أريد هنا أن أدرس قيمة ما اختير من قطع موسيقية فى هذه الأفلام، فاختيارها عامة موفق كل التوفيق ، إنما أريد أن أدرس فيلم « خيبة أمل » قصة و إخراجاً وتمثيلا .

وعنوان هذا الفيلم اختياره موفق ، فهو ينبئك بما ستكون فيه من حال بعد شهود القصة . إن الأمريكيين قوم لا تنقصهم المهارة ليهيئوا لأتفه أفلامهم نجاحاً كبيراً. فحين تكون القصة ضعيفة يحشدون لها أرفع الممثلين فنا وأوسعهم شهرة ليجتذبوا إليها الجمهور . وهذا هو ما حدث فى فيلم «خيبة أمل » الذى مثله ثلاثة من كبار الممثلين الأمريكيين ، وهم بيت دافيز وبول هنريد وكلود رينز ، فلم ينقذ تمثيل هؤلاء هذه القصة ولم تغر الجمهور هذه الأسماء ذات الشهرة العالمية ، و إنما غادرنا قاعة العرض ونحن ندهش لجرأة منتجى هوليوود واستخفافهم بجمهور الشاهدين وعبثهم بالفن السينمائى . نعم ! إن هذه القصة مقتبسة من مسرحية للويس فرنوى ، وإن هذا المؤلف فرنسى لا أمريكى . ولكن ألا يوجد فى الأدب الفرنسى كاتب آخر غير لويس فرنوى إن أراد منتجو أمريكا أن يستمدوا أفلامهم من الأدب الفرنسى ؟ إنى لا أنكر على هذا المؤلف قيمته الفنية وقدرته على إيجاد المواقف الطريفة المضحكة ودعاباته المحببة . غير أن مسرحه قد فقد كثيراً منذ أنشئ ، ثم إن فيه تكرارا للمواقف ، حتى إنك لا تجد فيه إلا موقفاً وحيداً يعاد بأساليب مختلفة . وهكذا تجد فى « خيبة أمل » قصة حب أبطالها ثلاثة لا اثنان كما هى العادة فى مسرحيات لويس فرنوى . والشاهد يلحظ كلما تقدمت حوادث القصة أن الشخصيات قد رسمت اعتباطاً دون عناية بنفسياتها ودون أى ملاءمة بين تصرفاتها وطباعها التى وضعها المؤلف لها . تجد مثلا امرأة كل ما حولها ينبئ بأنه كان لها عشيق . ومع ذلك فهى تكذب على زوجها وتمعن فى الكذب . إنها امرأة شريفة مخلصة لزوجها وتعلم أنها تهدم بهذا الكذب زواجها الذى لا تريد أن تهدمه . وتجد أيضاً زوجا غيورا تكاد غيرته تكون مرضا ، ولكن المؤلف يجعله يتصل بعشيق امرأته ويطلب منه المساعدة . وتجد

أخيراً هذا المنظر الذى لجأ إليه المؤلف ليختم به قصته حين تعقدت الأمور أمامه ولم يجد للقصة مخرجاً : فجعل المرأة تقتل عشيقها لأتفه الأسباب . وما أيسر القتل عند المؤلفين حين تتعقد الأمور ويفقدون السبيل إلى حلها .

وقد قلت إن التمثيل لم ينقذ القصة مع أن الممثلين ذوى شهرة وقد أصابوا فيما مضى نجحا كبيراً . فكلنا نعجب ببيت ديفيز وقدرتها الفنية وتعبيراتها الصادقة ، ولكنها فى هذا الفيلم لم تبلغ ما بلغته من سمو فى أفلامها السابقة ،فهى تكرر نفسها ، إن صح هذا التعبير ، وتسرف فى الايماءات كأنها حديثة عهد بالتمثيل . حتى بول هنريد الذى لقى توفيقاً كبيراً فى أدواره السابقة لم يصل إلى النجاح المرتقب له ؛فقد غالى فى بعض المواقف ولجأ فيها إلى العنف مع أن الهدوء والقصد كانا أصلح لها وأجدى . أما كلود رينز فهو دون الآخرين قد وجد سبيله إلى الأداء الحسن الذى يجذب الشاهد ويجد بينه وبين الممثل صلة وثيقة . فهوحين يقوم بدوره ويؤديه هذه الأداء المقتصد يثير فى الجمهور الاعجاب والاستحسان . وهو إلى هذه الصفات الحميدة عند الممثل يضم القدرة على التغلب على مصاعب الدور : لن ننسى له هذا المشهد الذى يحاول فيه أن يكتم حقده على تلك المرأة التى غدرت به . ولكن هذا الحقد إن لم يكن ظاهراً فى نبرات صوته فهو واضح فى نظراته واضطراب يديه . وملخص القول أنه لا يثبت شئ فى ذهنك حين تنتهى من مشاهدة الفيلم قصة فرنوى أو تمثيل بيت ديفيز وبول هنريد ، وإنما تخرج وأنت تذكر شخصية الموسيقى العبقرى التى مثلها كلود رينز .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

MACHINE ET HUMANISME

ETIEMBLE

الآلة والدراسة البشرية*

يؤكد ت. ا. لورنس . T. E. Lawrence في وثيقة من أهم الوثائق التى خلفها ، وهى خطاب (يعتبر إلى حد ما موجز حياته) كتبه قبل موته ببضعة أسابيع إلى روبرت جريفز R. Graves فى فبراير سنة ١٩٣٥ أنه يعتبر أهم فترة فى حياته تلك التى رصدها فى خفاء للعناية بالآلات الطائرة ولتحسينها حين عمل ميكانيكيا بسلاح الطيران الملكى R. A. F. . ذلك لأنه قال : أهم شئ فى اعتقادى هو الآلة . The key-word, I think is machine . وقبله نزل عبقرى آخر ، الشاعر أرتور رامبو A. Rimbaud ، عن المجد الذى كانت تؤهله له آثاره الأدبية ، مفضلا أن يختفى فى الحبشة حيث وقف نفسه على الصناعة . كلا البطلين شهد للآلة واختار أن يعيش لها وأن يموت لها . ولا شك أن ذلك الموت الذى لقيه لورنس حين صرعته « بوانرج » ، دراجته البخارية ، التى أحبها وأحبته (كانت بوانرج تحب لورنس حتى إنها كانت تقطع حين يركبها عشرة كيلو مترات فى الساعة أكثر مما تقطع إذا ركبها أى شخص آخر .) لاشك أنه كان بالقياس إليه خيراً من أى موت آخر .

ولو قد سأل إنسان اليوم أبا الهول لأجابه وحى الآلهة الاجابة الخالدة : الانسان . فالانسان هو إلى الأبد مسألة الانسان . وسيبقى الانسان الى الأبد الجواب على أسئلة الانسان ، بحيث إن موضوع القوة المزدوجة الآلة — الانسان يعتبر من أمهات المسائل التى نستطيع أن نعمل فيها فكرنا إعمالا مثمراً . وكل دراسة بشرية تهمل ذلك ، لا قيمة لها . ولو فحصنا الطرز الحديثة فى السيارات الأمريكية لرأينا أنها قد صممت بحيث توائم كل المواءمة بين حاجات الانسان وضرورات الميكانيكا . فما من ذراع آلى ، وما من مسافة بين ذراعين ، إلا درست بعناية لتستجيب فى نفس الوقت لمقتضيات المحرك ولراحة السائق . وكذلك لو فحصنا الطائرة وقارنا بين الراحة التى يجدها فيها المسافرون اليوم وبين التعب والأزيز والمخاطر التى كان يتعرض لها ركاب الطائرات منذ ربع قرن ، لأخذنا العجب : كيف استطاع الانسان أن يلائم بين علمى الميكانيكا والحياة بمثل هذه السرعة ؟ ولندخل فى مصنع غزل أو مصنع صهر أو فى أى من تلك المصانع الضخمة حيث يعمل آلاف من العمال طيلة ثمانى ساعات فى اليوم ، فسنرى عندئذ أنه لم يبذل من الجهد للملاءمة بين الآلات والناس عشر ما بذل

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

لتنظيم العلاقات بين آلات الترف وبين من يستخدمونها . فلابد إذن من قيام دراسة بشرية صحيحة لتحاول فهم أسباب هذا التناقض . ولابد من أن تعمل أيضا لازالة هذه الأسباب .

وتلك هى المهمة التى اضطلع بها جورج فريدمان فى مؤلفه المثلث « الآلة والدراسة البشرية » . وقد عالج فى أول جزء « أزمة التقدم »[1] وبقى هذا الجزء إلى اليوم ، بعد اثنى عشر عاما من تأليفه ، كتابا صحيحا . وثانيها يدرس : « المشاكل البشرية فى الصناعة الآلية »[2] ، أى يدرس : التعب ، والأوتوماتيكية فى الصناعة ، والتعقيل ، والحوادث ، ومذهب تايلور Taylorisme الخ . . . وهو يقصر بحثه وتحليله على المصانع الكبرى أى على العلاقات بين الانسان وآلات الانتاج ، تاركا لجزء ثالث يعده الآن بعنوان : « مقالة عن الحضارة الصناعية » مشكلة دراسة البيئة التى تنمو فيها هذه الحضارة المشتملة على الآلات الحديدية ، والسيارة ، والطائرة ، والبرق والتليفون ، والآلات الناطقة ، والسينما ، والراديو ، والتليفزيون .

وقد نال فريدمان — الحائز لدرجة الأجرجاسيون فى الفلسفة والأستاذ بالمعهد الوطنى للفنون والصناعات — بكتابه عن ليبنتز وسبنوزا شهرة واسعة فى فرنسا كمؤرخ للفلسفة . أما كتابه عن روسيا السوفيتية : « من روسيا المقدسة إلى الاتحاد الروسى للجمهوريات السوفياتية U. R. S. S. » الذى يعد من خير ما كتب فى هذا الصدد فقد غزا له جمهوراً أوسع . ولكن فريدمان سيحتل دون شك مكانا ممتازاً فى تاريخ الدراسة البشرية بفضل مؤلفه عن « الآلية machinisme » وليس ذلك لأنه أول من كتب فى هذا الموضوع . (لقد أنفق فى دراسات آثار من سبقوه فى هذه المادة فترة لا تقل عن عشر سنوات . فدرس مذهب تايلور ، والسلطة الصناعية technocratie ، والتنظيم العلمى للعمل . . . الخ) كلا ! وإنما لأنه أضاف إلى معلوماته النظرية وإلى تكوينه الفكرى ، تجربة عملية فى عامى ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ حين تعلم استعمال الآلات الصناعية (الدوارة tour ، والقابضة المستعملة للبرد étau-limeur ، والمسحاة raboteuse ، وآلة قلوظة الثقوب fraiseuse) وتلك تجربة عملية عن الآلات وعن نفسية العمال لم تكن أية دراسة تستطيع أن تهبها له . أضف إلى ذلك أنه من بين تلك القلة النادرة من العقليات التى لا يفسد فكرها أى تعصب أو أية مصلحة : فقد ولد فى وسط الثروة وأنفق شطراً كبيراً من أمواله لمصلحة العمال . وهو إذا كان يسخط اليوم على التفكك الراهن فى الاقتصاد الرأسمالى ، وإذا كان يفضل عليه اقتصادا من نوع اشتراكى ، فليس علينا إلا أن نقرأ كتابه عن روسيا ، أو كتابه عن المشاكل البشرية للصناعة الآلية ، لندرك أنه ليس من أولئك الذين يكتفون بالموجز من الاجابات . بدأ فريدمان — كما كان يتوقع — بدراسة مذهب تايلور Taylor كما ورد فى كتابى : « إدارة المصانع » *La direction des ateliers* ، « قاعدة الادارة العلمية للمصانع » *Principe d'organisation scientifique des usines* وهذه هى النتيجة التى يقررها « إن مذهب تايلور الذى يدعى أنه علم ، ليس فى الواقع —

---

(١) طبعة Gallimard سنة ١٩٣٦ .

(٢) طبعة Gallimard سنة ١٩٤٧ .

إذا وضعنا جانبا المزايا التى أتى بها ، وهى مزايا تتعلق فقط بالميكانيكا التطبيقية وبصناعة المعادن — إلانظاما محسنا للوسائل الكفيلة بزيادة متوسط الانتاج للعمال والآلات . » كان تيلور مهندسا عظيما ، ولم يزد شيئا عن كونه مهندسا . فهو لم يفهم قط أن لعالم الحياة ولعالم النفس قولا فى هذا الصدد بقدر ما للمهندس وما لرئيس العمال. وقد غزت آراؤه — مع الأسف — عدداً عظيما من المصانع فى أوربا وفى أمريكا . وكان شر تلك الآراء هو بالضبط أعظم معين لها : فالنظام الذى يضاعف إنتاج الآلات و إنتاج العمال دون أدنى حساب للعمال أنفسهم هو « نظام بال كان يتفق وحاجات مرحلة معينة فى الرأسمالية العالمية . » وقام المؤلف بعد ذلك بتصحيح القواعد الأولى فى مذهب تايلور ، وذلك بفضل دراساته الدقيقة عن التعب فى الصناعة ، والراحة وأثرها ، ودرجة الحرارة فى المصانع ، والضوء ، والتهوية ، وعن الحوادث أثناء العمل وأسبابها . أى إنه وجه همه إلى دراسة « العوامل الانسانية » .

« كلما أتيحت فرصة للعلماء الذين يدرسون حقائق الصناعة والذين يمتزجون بها ، تراهم ينكرون النظرية الصناعية القائلة إن السرعة والانتاج هما الهدفان الوحيدان ، وتراهم لا يهملون مطلقا دراسة التكوين الجسمى والنفسى للعامل . والأساس لديهم هو العمل على توفير راحة العامل الجسمية والنفسية ، فهم يدركون شدة الاتصال بينهما . » وهكذا يختفى الانسان — الثور مثل تايلور الأعلى ، ويحل محله — بفضل دراسة فنية نفسية أكثر علما — الانسان الحى ، بقوته المتوسطة ، بآلامه وبأفراحه . وهذه الدراسة النفسية الفنية تأمل أن تضاعف فى الوقت عينه وبنفس السبيل ، الراحة للعمال والفائدة لدور الصناعة . ونستطيع بعملية حسابية بسيطة أن نثبت أنه إذا كان خفض ساعات العمل من ١٢ إلى ١٠ ساعات ثم من ١٠ إلى ٨ ساعات فى اليوم يزيد فى الوقت نفسه الانتاج فى الساعة والانتاج اليومى ، فان زيادة الانتاج فى الساعة لو خفض العمل من ٨ إلى ٧ ساعات أو من ٧ إلى ٦ ساعات — وهى زيادة مؤكدة — لن تكفى لزيادة الانتاج اليومى . وقد أتاحت عملية حسابية بسيطة لاحدى دور الصناعة الأمريكية أن تلاحظ أنه بزيادة نفقات الانارة بمقدار ٢٨٠٠ دولار فى السنة أمكن لها أن تخفض ما تدفعه من تعويضات للمصابين من العمال بمقدار ٦٢٠٠ دولار . وإننا نجد فى هذين المثلين أن فائدة الرأسماليين تتفق وفائدة العمال . ومع أن هذه الدراسة الفنية الصناعية — التى درست بصفة خاصة فى انجلترا — أقل قسوة من مذهب تايلور الأمريكى ، فهى على كل حال مخطئة حين تفترض وجود انسجام اقتصادى بين مصالح دور الصناعة ومصالح العمال . فهى إن قدرت من ناحية ما الطبيعة الحيوية للانسان أهملت من ناحية أخرى البحث « فيما إذا كان العامل يعمل بنفس الطريقة فى مختلف المصانع التى يمر بها وفقا للعلاقات التى يصطنعها بينه وبين زملائه ورؤسائه والمنظمات المهنية المشترك بها ، أو بعبارة مختصرة فيما إذا كان جو العمل والانتاج لا يتعلقان بشروط أخرى تتعدى نطاق الحدود النفسية والعضوية للجسم الانسانى . » والمشكلة الأخرى هى مشكلة العمل على وتيرة واحدة ، مشكلة آلية الصناعة ، والعمل على نظام السلسلة à la chaîne ، والمهارة الفنية وانحطاطها . وستبقى إلى الأبد عالقة بأذهاننا صورة

شارلى شابلن فى شريطه «العصور الحديثة» حين كان عمله — وهو إدخال مسمار مبروم فى ثقب — يحصره حصراً نفسانيا حتى لقد كان يستمر بعد خروجه من العمل فى تأدية هذه الحركة فى الهواء أو فى الضغط على أزرار السترات التى يراها . فما العمل ؟ أنسخر مع هنرى فورد من تلك النفوس الحساسة التى ترثى لمن يقتصر عمله طيلة حياته على ثلاث حركات ؟ أنصل معه إلى هذه النتيجة : « سمعت خبراء يتحدثون عن هذا العمل على وتيرة واحدة ويقولون إنه يقتل العمال أدبيا أو ماديا ، ولكن هذا يخرج عن نطاق بحوثى . » فى الواقع أن الانفعال المضاد لهذا السير على وتيرة واحدة يختلف اختلافا بينا من عامل إلى آخر . فخير العمال وأكثرهم نفاذ بصيرة يألمون أكثر من غيرهم . أما العامل اليدوى العادى فانه يجد راحة فى ذلك . فالنظام الحالى يبعد إذن العمال الموهوبين . ويختبر العمال فى بعض المصانع الأمريكية عدة اختبارات قبل استخدامهم ويرفض أذكى المتقدمين . وقد ذهبت شركة المطاط الأمريكية إلى حد أن استخدمت : « فتيات ناقصات العقل . » وبهذا حصلت على نتائج باهرة .

وشكا القوم فى أستراليا منذ قليل قلة عدد الصم البكم لأنهم يستغرقون فى عملهم لا يشغلهم عنه شاغل . وأمام هذا الانحطاط لا نضحك الضحك العادى وإنما نضحك ضحك المجنون . هذه هى إذن الحياة على الطريقة الأمريكية ، حضارة تلقى عن قصد خير العناصر إلى عرض الطريق ، وتكافىء ذوى العقول الناقصة . ولكن ما العمل ؟ هل هناك شئ نستطيع عمله ؟ أم هل نحن أمام إحدى صور التناقض التى لا تستطيع عقولنا لها حلا ؟

يضع فريدمان ثقته « فى مذهب تقسيم العمل » ، وذلك دون أن ينتقص من خطورة المسألة وصعوبة مداواتها . فلا يصح أن نتهم الآلية الصناعية بأكملها ؛ فهذه الآلية — التى يؤدى إليها تقسيم العمل — يجب أن تشجع حين تخفف عن العامل أعباء الأعمال المرهقة وخاصة فى أشق المجهودات العضلية . فمن يستطيع أن ينكر أن الآلات الأوتوماتيكية الخالصة — كالآلات التى تحيل مصهور السكر إلى صناديق مقفلة مضبوطة الوزن دون أن تمسسها يد عامل — قد عملت هى أيضاً فى تحرير العمال وتخفيف أعبائهم ؟ فى مثل هذه الأحوال يصير الانسان خالقا ، يصمم ويحرك ويلاحظ . وهكذا لو دفعنا الآلية (الأوتوماتيكية) إلى أقصى درجاتها لوفقنا بين الآلة البشرية والآلة الحديدية . ثم إن تصميم هذه الآلات الدقيقة وصناعتها والعناية بها تفتح الباب للأذكياء من العمال الذين تؤودهم عبودية العمل على نظام السلسلة . عندئذ تنشأ هيئة فنية جديدة تعطى الخيار مايستحقونه من مباهج عملهم . وهكذا تستطيع الآلة أن تنفع الانسان .

نعم هذا صواب ، والبطالة ؟ إذا كانت النتائج النظرية لمذهب تقسيم العمل تخدعنا فجدير بنا أن نذكر أن القيمة العملية لهذا المذهب مابرحت اليوم مشكوكا فيها . نعم ! يمكننا أن نتوقع ، كما توقع فورد ، تنقلات دائمة فى طبقة العمال ! على أن ذلك ليس إلا حلا ، وحلا يمليه الخوف أو تمليه المصلحة . فالتاريخ المعاصر يثبت مع الأسف أن الاقتصاد الحر لا يستطيع — باستثناء فترات الحروب — أن يكف عن إنتاج ملايين المتبطلين . وهكذا كلما نجحت الصناعة الآلية (الأوتوماتيكية) وزادت إنسانيتها كلما زاد عدد المتبطلين . «وبالاختصار

لاتستطيع الآلية (الأوتوماتيكية) أن تثمر إلا فى نظام يتمتع فيه المنتجون الذين يعملون وقتا قليلا بحق العمل فى المهنة أو المهن التى يصلحون لها ، ويتمتعون فيه أيضا بحق استهلاك تلك المنتجات وفقا لحاجاتهم . »

تلك هى بعض المشاكل البشرية فى الصناعة الآلية . ويدرس فريدمان فى هذا الكتاب طائفة أخرى من المشاكل أستطيع أن أقول إنها الحكمة بعينها والاجابة على لغز أبى الهول الحديث .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

شاعر مصرى

هو شاعر من شعراء الطبيعة الذين خلفوا لنا تراثاً طريفاً فى هذا الباب من أبواب الشعر العربى . وهو ليس من شعراء مصر الحديثة ، وإنما هو من شعراء مصر الفاطمية ، وهو الشريف العقيلى . كان فى المائة الرابعة للهجرة وعاش دهراً فى المائة الخامسة . وهو من بيت عقيل بن أبى طالب ، وإليه ينسب . وكان — على ما يروى الرواة — ثريا ثراء مفرطاً ، حتى قالوا إنه كان يملك متنزهات خاصة به فى الفسطاط . وقد جعله هذا الثراء فى غنى عن خلفاء عصره وملوكه ووزرائه ، فلم يشتغل بخدمة سلطان ولا بمدح أحد .

شاعر يغنى لنفسه ، وقلما نجد فى العربية شاعراً من هذا الضرب الذى ينظم لنفسه ويغنيها ، دون عناية بمن حوله أو بمن فوقه . بل إن كبار الشعراء الذين نقرؤهم ونردد أسماءهم ونعنى ببحثهم ودرسهم أكثرهم من هؤلاء الذين كانوا يلزمون أبواب الخلفاء والأمراء والوزراء يصوغون الشعر فى مديحهم ويجزلون لهم من أجل ذلك فى العطاء .

لم يكن الشريف العقيلى يتكسب بشعره ، ولم يكن يطلب به عرضاً من أعراض الدنيا الزائلة ، إنما كان يطلب به التنفيس عما يعتلج فى نفسه ، بل التعبير عما يضطرب فى قلبه من خواطر وأحاسيس ، لا يستطيع أن يمسكها ، فيتناول الريشة مضطرا يرسمها ويسجلها فى أروع صورة من صور الشعر والفن .

ولعل فى هذا الشاعر وشعره ما يصحح من بعض الوجوه رأى بعض النقاد فى مصر وشاعريتها أثناء العصور الوسطى . فطائفة منا لا تكاد تعتقد أن مصر بيئة صالحة للشعر ، أو على الأقل بيئة تصلح لانبات شعراء ممتازين . وأكبر الظن أن فى هذا الشاعر ما يحملنا على أن نفكر فى آرائنا التى نعطيها فى بعض الأحيان صفة الاطراد والتعميم .

ولم يكن الشريف العقيلى وحده الشاعر الممتاز فى العصر الفاطمى ؛ فهناك مجموعة كبيرة من الشعراء المصريين لهذا العصر كتب فيهم العماد الأصبهانى مجلداً ضخما من خريدته . وبدار الكتب المصرية نسخة من هذا المخطوط فى حاجة إلى أن تدرس درساً يصورها ، أو بعبارة أدق يصور لوحة الشعر الفاطمى وما بها من خطوط وألوان وما نثر الشعراء فيها من ظلال وأضواء .

ولم تصور الخريدة كل ما تركته مصر الفاطمية ، إنما صورت المائة الأخيرة من

هذا العصر، على حين صورت اليتيمة للثعالبى الثمانين الأولى . ثم جاء كتاب المغرب لابن سعيد فأضاف إلى الصورتين طرائف جديدة . ومن تلك الطرائف صحف بديعة من شعر الطبيعة ساقها للشريف العقيلى . ونحن لانكاد نلم بهذه الصحف ، حتى نحس أننا ندخل عالماً جديداً ، وهو عالم كله بهجة ومسرة ، وإنه ليقترب فى بعض جوانبه من عالم المتصوفة . ولكن لا تظن أنه عالم متصوفة حقا ؛ فهو عالم من نوع آخر ، عالم لايتحدث فيه الشاعر عما وراء الطبيعة ، وإنما يتحدث عن الطبيعة نفسها . ولكن لا نسترسل فى قراءة هذا الحديث حتى تغمرنا نشوة من الفرح تشبه نشوتنا حين نقرأ شعر المتصوفة . ولعل مرجع ذلك أن الشريف كان مفتوناً بالطبيعة فتنة كادت تكون عبادة . ومن هنا كنا نحس الشبه بينه وبين المتصوفة ؛ فشعره فتنة وعبادة ، بل فناء أيضاً . فهو يغنى فى الطبيعة ومباهجها ، وهو يستغرق فيها استغراقاً كأنه استغراق المتصوفة فى محبوبهم .

ليس الشريف العقيلى متصوفاً بالمعنى الذى نألفه للتصوف ، إلا إذا أوسعنا هذا المعنى وجعلناه يشمل كل فناء فى المحبوب واستغراق فيه . ومن غير شك كان الشريف محبا للطبيعة محبة قلما تصادفنا عند شعراء العربية ؛ فهم فى أغلب الأمر حسيون قلما تجاوزوا ما وراء الظاهر فى الطبيعة ، وقلما شغفوا بها هذا الشغف الذى نجده عند هذا الشاعر المصرى الذى كانت تروعه مناظر مصر فى العصر الفاطمى روعة بالغة ، فاذا هو ينادى بأعلى صوته فى الناس من حوله أن ينكبوا على متع الطبيعة ومفاتنها ، وأن يأخذوا بأكبر حظ من هذه المتع والمفاتن . وقد كان يقرن هذه الدعوة الحارة بدعوة أخرى ولكن لا إلى الطبيعة بل إلى الخمر وكئوسها ، وكأنه كان يريد للناس أن يعبوا ما شاءوا من كئوس الخمر فان تركوها فالى كئوس الطبيعة . وهكذا كان يرى أن الحياة تأتلف من الطبيعة والخمر ، وأن من لم ينعم بالنوعين من الخمور حق عليه ألا يسلك نفسه فى الأحياء والحياة . وما الحياة بدون طبيعة وخمر فى رأيه ؟ إنها تصبح شقاء خالصاً .

وهذا المنزع من المزج بين الخمر والطبيعة عند الشريف جعل لشعره صورة خاصة ، صورة فيها نشوة وفرح ومسرة . ويساق ذلك كله فى شعور غريب هو شعور الانطلاق بعد الحبس . فالشاعر يفرح أمام مناظر الطبيعة ومشاهدها فرحاً غريباً ، هو فرح الأسير يتنفس نسيم الحرية بعد طول العذاب .

وقد كان بعض النقاد يشك فى أن العرب تركوا شعر طبيعة على نحو ما هو معروف عن شعراء أوربا فى أوائل القرن التاسع عشر . غير أننا لا نقرأ فى الشريف حتى نحس أن العرب تكامل لهم من بعض الوجوه الشعور بالطبيعة شعوراً فيه تدفق وإيمان بها وحب لها ، حتى ليشبه هذا الحب — أو يكاد — حب المتصوفة .

وإذا كان المتصوفة يعبرون عن حبهم بغزل وخمر ، فان الشريف أيضاً يعبر عن حبه للطبيعة بغزل فيها وخمر . أما غزله فيتراءى فى فتنته بمناظر الطبيعة فتنة تجعلنا نشعر أنه يهتز أمامها اهتزازاً يعم كيانه كله ، حتى لنحس أنه ينتفض بين أزهارها وأشجارها وبركها وجداولها ومياهها كما ينتفض العصفور بلله القطر . وأما خمره فتتراءى فى كل مكان من شعره إذ يدعو إليها دائماً فى حماسة بالغة . واستمع إليه يقول :

اشرب على وجه أرض
لها من الماء خد

لم تلقه الريح سبطا
إلا انثنى وهو جعد

ويقول :

فهات زواهر الكاسات ملأى
إلى الحافات بالذهب المذاب
فكبر الجو يوقد نار برق
إذا خمدت تدخن بالضباب

ويقول :

السحب ترضع من نبات الأرض ما
جعل الربيع لها الغصون مهودا
والراح قد نظم المزاج لجيدها
در الحباب قلائدا وعقودا

ويقول :

أمهات الثمار بين الروابى
تائهات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تجلى بما قد
صاغه الماء من عقود الحباب
فاله ما دام للشقيق خلوق
تنثر السحب فيه مسك ضباب

ويقول :

البرق طرز والغمام ستائر
والقاش درج والنبات جواهر
فاشرب عليه واسقنى من قبل أن
يطوى من الديباج ما هو ناشر
بكر إذا شجت رأيت لوجهها
عرقاً يكلله جبين زاهر

ويقول :

الغيم ممدود السرادق
والزهر مفروش النمارق
والقاش قد نقشت لنا
منه المجالس والمرافق
أشجاره وثماره
مثل الترائب والمخانق
قد غنت الأطيار فى
طرقاته كل الطرائق
فاعتق فؤادك فيه من
رق الهموم بشرب عاتق
فالأقحوان غصونه
بيض النواصى والمفارق
ومراود الأمطار قد
كحلت بها حدق الحدائق

وواضح فى كل هذه القطع أن الشريف العقيلى يمزج بين الطبيعة والخمر ؛ فهو يعب من الخمر ما يعب ، ثم ينقلب إلى الطبيعة فيعب منها أيضاً ما يعب ، وهو دائماً يتقلب بين هذين الضربين من كؤوس الخمر .

وهذه الصورة من المزج بين الطبيعة والخمر أو قل الدعوة إلى الطبيعة والخمر هى التى تميز شعر الشريف العقيلى . فغيره من الشعراء لهم خمريات ، ولكن قلما قرأنا فى خمرياتهم دعوة إلى الطبيعة . وغيره من الشعراء لهم شعر طبيعة ولكن قلما قرأنا فى شعر الطبيعة عندهم دعوة إلى الخمر .

ولعل هذا أهم فارق بين الشريف وغيره من شعراء الطبيعة الذين عاصروه أو سبقوه. فعنده لا فرق بين الطبيعة والخمر ، ونحن نجد عند شعراء الشام فى القرن الرابع حديثا عن الخمر أثناء نزول الثلج وفى بعض الرياض ، ولكنا لا نجد عندهم هذه الرغبة الشديدة فى المتعة بالطبيعة ، حتى ليحاول الشاعر أن يفنى فيها فناء كما يفنى هو وكما يفنى غيره فى الخمر .

وهذا هو الشئ الطريف فى شعر الطبيعة عند الشريف ؛ إذ نراه غارقاً فى مباهج الطبيعة يريد أن يرمى نفسه على صدرها

وفى أحضانها حتى يشعر بالمتاع الحقيقى فى الحياة . وأى متاع أجمل من متاع الطبيعة ومتاع الربيع بنوع خاص ، وإن الانسان ليحس عنده حينما تتفتح أنوار الربيع كأنما انطلقت أبواق من كل جهة تصيح فى أذنه أن يأخذ بنصيبه من هذا السرور الذى تنثره الطبيعة من حوله .

ويلبى الشريف هذا النداء ، ويخرج من عالمه إلى هذا العالم الجديد عالم الطبيعة يستقى من منابعه فتجرى فى عروقه نشوة غريبة لا تلبث أن تجعله يصيح فيمن من حوله أن يتركوا عالمهم وينطلقوا معه فى هذا العالم الجديد لينعموا بكل ما فيه من مفاتن ومباهج . وإنه ليصيح فى رقة ولهفة وحنو ، وهى مشاعر تتوارد عليه مع حلاوة أنفاس الحقول ، فيحس برغبة تدفعه دفعاً إلى أن يأخذ بحظه من كؤوس الخمر ، فالحياة من حوله خمر خالصة .

وليس كل ما نجده عند الشريف إغراء بالطبيعة ومسراتها ؛ فنحن نجد عنده إغراء بالفن والشعر والمتاع بهما متاعاً لا يقل عن المتاع بالأصل وما فيه من فتنة . ومن هنا كان شعره يرتفع إلى الآفاق العليا من الشعر الذى يتدفق بالاحساس والشعور كما يتدفق بالفن وصوره .

ولعل أهم ما يميز صور الفن عند الشريف أنها صور حية ، فهى تفيض بالحركة كما تفيض بالبهجة ؛ فقد دبجها شاعر كان صبا محب الطبيعة ، وكان يجد فى كل خفقة من خفقاتها وكل همسة من همساتها حلماً غريباً ما يلبث أن يخرجه فى شبح من أشباحه أو صورة من صوره التى لا تفنى والتى ما تزال تتجدد أمامنا حتى لكأننا فى دار من دور الصور المتحركة فدائماً نرى أشكالا جديدة من شخوص ووجوه ، وهى وجوه وشخوص كلها ضاحكة مستبشرة . وكان يسعفه فى خلق هذه الوجوه والشخوص مقدرة ممتازة على التجسيم والتشخيص والتجسيد ، والتجميع والحشد والتركيز . واستمع إليه يقول :

انظر فقد صار نعام الرُّبى
من نعم السحب طواويسا

وليس من ريب فى أن هذه صورة بديعة ، وهى تدل على ريشة فنان حقا ، فنان يعرف كيف يجسم ويجسد ، وكيف يجمع و يركز ويحشد . فالربى تتحول فى مخيلته إلى نعام أبيض أو أسود ، وتنزل السحب ويعم المطر الكون من حوله ، فينظر وإذا نعام الربى تجرى فى ريشه وأجنحته خطوط زاهية غريبة ، وما هى إلا هنيهات حتى يتحول هذا النعام فى مظهره ومخبره فاذا هو طواويس يغرق البصر فى ألوانها وأصباغها البراقة الزاهية .

وعلى هذا النحو كان الشريف يعرف كيف يرسم مناظر الطبيعة ، وكانت تسعفه فى ذلك « كامرا » عجيبة أو مخيلة غريبة فاذا المناظر الواسعة ما تزال تتجمع وتتركز ، وما تزال تتحول تحولا يلعب فيه الخيال والوهم . واستمع إليه يقول فى مطلع الربيع :

قد بيضت قبة السماء
وزوقت قاعة الفضاء

فهو يتمثل السماء ذات السحب البيضاء وقد امتدت أطنابها على الأفق من كل جانب ، يتمثلها بقبة بيضت . أما الربيع بأزهاره وأنواره فيتمثله قاعة عبقة متألقة قد نقشت ونمقت ، وهو يدعو من حوله أن يندسوا فى هذ القاعة تحت تلك القبة وينعموا بما نمنم الربيع وصور ، وما زين وزخرف .

وفى كل مكان من شعر الشريف نجد هذه الصور الغريبة التى تدل حقا على شاعرية متأصلة فيه ، كما تدل على شعور طافح

بالطبيعة ومحبة لا توصف بمفاتنها . وأكبر الظن أننا لا نبعد حين نزعم أن الشريف يعتبر فى الرعيل الأول من شعراء الطبيعة عندنا ، إذا كنا نريد بشعر الطبيعة معناه الصحيح من اندماج الشاعر فى الطبيعة اندماجاً ينسيه نفسه ، فاذا هو مسحور بمشاهدها ومناظرها سحراً ما يزال ينفث فى عقده ما يرى من بدائع الكون وروائعه .

وهذا هو الشئ الطريف حقا عند الشريف العقيلى ؛ فهو مسحور بالطبيعة سحراً لا ينتهى ، وهو يقف من حين إلى حين أثناء هذا السحر ، فيصف بعض ما يرى ويشاهد . وإنه ليرى ويشاهد غرائب وعجائب من مثل طفل الصباح الذى رآه يحبو بين « دايات » الرياح :

قد حبا طفل الصباح
بين دايات الرياح

ويحس الانسان عند الشريف دائماً كأن صور الطبيعة وأشباحها لا تحصى . وقد كان يرفده فى ذلك مدد واسع من خيال خصب ، كما كان يرفده مدد واسع من شعور مرهف . والانسان لا يطيل النظر فيه حتى يتمنى أن لو كان له مثل ذلك الخيال وذلك الشعور . وانظر إليه يقول :

وروضة كالحلة الخضراء
غارقة ببركة حسناء
قد لبست عقد طيور الماء
لبس السماء أنجم الجوزاء

ولا شك فى أن هذا العقد الذى صوره أو قل نظمه حول جيد البركة عقد بديع ، ولعل فيه آية أخرى على ما وصفنا به الشاعر من المقدرة على الحشد والتركيز . والحق أن الشريف العقيلى شاعر من طراز خاص ، وهو طراز قلما نصادفه فى العربية ؛ لأن أكثر الشعراء عندنا يشغلون عن شعورهم وعن الطبيعة من حولهم بمديح الملوك والأمراء والوزراء . أما الشريف فانه لم يكن يعنى بمديح أحد ، إنما كان يعنى بنفسه والتعبير عن شعوره بجمال الطبيعة من حوله ، لا يستلهم فى ذلك شيئاً سوى حب صادق للطبيعة . والغريب أن حبه لها ساقه إلى حب الخمر ، فالخمر والطبيعة فى رأيه شئ واحد . إنه يجد فى كؤوس الطبيعة ما يجده فى كؤوس الخمر ، بل لعل نشوته بالطبيعة كانت أعمق وأبعد غوراً من نشوته بالخمر . وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى فى غزله . واسمعه يقول :

قامت قيامة روحها لرواحى
إن النوى لقيامة الأرواح
فبكت فصار الدمع فى وجناتها
مثل الحباب على كؤوس الراح
فكأن صفحة وجهها لما بكت
روض يرصع ورده بأقاحى

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصع من أنوار وأزهار ، وهو القرار العام لشعره ؛ فهو شاعر الرياض ومباهجها ، أوقل الطبيعة ومفاتنها ، وقد ظل طوال حياته يتغنى بها وبألوانها وأصباغها ، فقد كان محبا لها ، مفتوناً بها ، وزاده حبا وفتنة أنه كان من ذوى العيون الشاعرة التى تتحرك أمامها فى الطبيعة أشباح وأشخاص لا تحصى ، ورؤى وأحلام لا تفنى ، وقد ذهب يثبت فى شعره ما رأى من هذه الرؤى والأحلام ، وتلك الأشباح والأشخاص ، وشفع ذلك بكل ما استطاع من تمثيل وتصوير وتلوين وتظليل .

شوقى ضيف

من وراء البحار

تأثير العامل الجغرافى فى روسيا

يقول دافيدسون هاوستون فى مقال بمجلة «ناشنال ريفيو» عدد نوفمبر : إن الأحوال الطبيعية كان لها تأثير كبير فى تاريخ الأمة الروسية كما كان لها شأن فى تاريخ جميع الأمم . فاننا إذا بحثنا أصل الأمة الروسية وتتبعنا أثر امتدادها حتى صارت إمبراطورية كبيرة ، وجدنا أنها نمت بسلسلة من الاندفاعات كان تطورها اتباعاً لأغراض سياسية ، ولكن اتجاهاتها خاضعة لاعتبارات تتصل بطبيعة البلاد .

فتلك البطون من الجنس السلافى التى تعرف باسم روسيا الكبرى وروسيا الصغرى وروسيا البيضاء ، كانت تتألف قبل القرن التاسع من عدة قبائل تسكن حوض نهر الدنيبر . وكانت حياة هذه القبائل بدائية وغير منظمة تقوم على صيد حيوانات الغاب واستخراج الأسماك من مياه الأنهار . وكانت هذه الأنهار هى الوسيلة الوحيدة للانتقال والاتصال . وكانت تقوم بين هذه القبائل حروب ومنافسات كما كانت تهاجمها القبائل التى تجاورها . وأخذت هذه القبائل تتجمع فتؤلف عدة إمارات . على أنه كانت تقيم إلى الشمال منها وإلى الغرب قبائل أخرى ذات نزعة حربية هى قبائل الاسكندناف والبولونيين واللتوانيين والطوطون ، وكانت هذه القبائل تغير على أرض القبائل السلافية وتستولى على أجزاء منها ، على حين كانت القبائل السلافية تجد ضغطاً فى جنوبها من قبائل التتار التى استطاعت بين ١٢٣٨—١٤٦٢ أن تسيطر على أراضى الزعماء الروس فى الجنوب . ولكن الروس استطاعوا فى حمى الغابات أن يتجمعوا . وفى حوالى سنة ١٤٨٢ ألفوا منهم اتحاداً ، وانتخبوا أميرا مسكوفيا قيصراً على جميع الروس ، وأخذوا يطردون الجيوش الأوربية وجموع التتار من المساحات التى تكتنفها الغابات .

فلما أن زاد عددهم وقوتهم أخذوا يتحركون نحو الأراضى المنبسطة حيث المراعى والزراعة ، وبذلك دفعوا باللتوانيين والبولونيين إلى الغرب ، إلى أن وقفتهم الدول الغربية القوية التى كانت قد تألفت . ولكن دولة التتار كانت قد أصابها الضعف فى القرن السادس عشر ، فاتسعت رقعة الروس شرقاً وشمالا وجنوباً إلى أن شملت أودية أنهر الدنيبر والدون والفولجا وفروع هذه الأنهر .

على أن الاتساع نحو الشمال لم يلبث أن وقف حين وصل الروس إلى المنطقة المتجمدة حيث لا يجدون إلا موسما قصيراً لصيد الأسماك ، وحيث تصعب الملاحة مع تجمد الأنهار . وقد وجدوا فى الجنوب قوة من البولونيين واللتوانيين الذين كانوا يحتلون ما يعرف الآن بأوكرانيا ، كما كانت جبال القوقاز واقعة فى أيدى الأتراك والفرس . أما التتار فكانوا على ما أصابهم من ضعف يشغلون أراضى نهر الفولجا فى أسفله . فكان أضعف مكان فيما يحيط بهم هو الأودية الممتدة إلى الشرق من نهر الفولجا فى أعلاه .

وعند ما سقطت قازان عاصمة التتار فى أيدى الروس فى القرن السادس عشر ، لم يلبث الروس أن وصلوا إلى خط جبال

الأورال . ولم تأت سنة ١٦٩٣ حتى كان الروس قد وصلوا إلى شاطئ المحيط الهادى . على أنهم وجدوا مقاومة من حاميات المنشو على نهر أمور . واضطر الروس إلى عقد معاهدة مع الصين ، على أن ينسحبوا إلى نهر أرجون . ومع ذلك استمروا فى التقدم إلى الشمال الشرقى حتى وصلوا شبه جزيرة كمتشاتكا فى سنة ١٦٩٧ وعبروا بوغاز بهرنج واستولوا على ألاسكا فى القارة الأمريكية فى سنة ١٧٤١ . وظلت فى أيديهم تلك المنطقة إلى أن باعوها للولايات المتحدة فى سنة ١٨٦٧ قبل أن يكتشف الذهب بها .

وفى هذه الأثناء زالت سطوة التتار وضعفت قوة البولونيين والتوانيين ، واستولى الروس على الأوكرين وعلى شمال بحر قزوين . ولم يأت القرن السابع عشر حتى كانت روسيا دولة ذات قوة وبأس تستغل أراضى واسعة ، وكانت تعمل لايجاد وسائل للتجارة . ولذلك انتقل بطرس الأكبر من موسكو إلى بطرسبرج لكى يجد نافذة تطل على أوربا فى بحر البلطيق . وكان يود لو يجد منفذاً آخر للتجارة من البحر الأسود ، غير أن تركيا كانت مسيطرة على البوسفور والدردنيل . ومن هذا العهد أخذت روسيا تتطلع إلى إيجاد طريق لها فى هذا الاتجاه لكى تتفادى طرق أنهارها ومياهها الملحة التى لا تصلح طول السنة للملاحة لأنها تتجمد أحيانا .

ولقد استطاعت روسيا فى الشرق أن تتسع عند ما ضعفت الامبراطورية الصينية ، فاستولت على أراض كثيرة فى القرن التاسع عشر ، وتمكنت من إقامة ميناء فلاديفوستوك فى سنة ١٨٦٠ ، حيث أقامت حواجز تقى من الثلج ، فأمكن فتح هذا الميناء طوال السنة ، وأخذت تضغط على منشوريا .

ولم تأت سنة ١٩٠٤ حتى كانت منشوريا تحت حماية روسيا ، وكوريا تكاد تقع تحت الحماية كذلك . فهبت اليابان لانقاذ نفسها من روسيا التى كانت تهدد استقلالها نفسه . وبعد أن انتصر اليابانيون صارت لهم السيطرة فى منشوريا وكوريا مدة أربعين سنة . ولكن بعد هزيمة اليابان فى الحرب الأخيرة أخذ النفوذ الروسى يعود إلى تلك الأنحاء .

ويرى من ذلك أن الحدود الحالية للاتحاد السوفيتى كانت نتيجة أحوال جغرافية . ولنلق الآن نظرة على العوامل التى يتوقف عليها ثبات تلك الحدود .

فاذا نظرنا أولا إلى الغرب وجدنا أن الاتساع الروسى كان نتيجة للمقاومة السياسية أكثر منه نتيجة لمقاومة جغرافية . وقد أدى انهيار الامبراطوريتين الألمانية والنمساوية إلى زيادة النفوذ الروسى . كما أن الشيوعية زادت من نفوذ الروس ، شأنها فى ذلك شأن العرب الذين زاد من نفوذهم اعتناق الأمم للاسلام . ولقد بسط الاتحاد السوفيتى نفوذه الاقتصادى على الدول الصغرى المجاورة له . وفى ذلك فائدة كبيرة له فضلا عن ضمان حربى . ومما يدل على رغبة الروس فى الوصول إلى الموانى الواقعة على مياه حارة تأييدهم لليوغوسلافيين فى ادعاءاتهم الخاصة بتريستا ، وتشجيعهم للألبانيين فى النفوذ إلى مضيق كورفو ، وتأييدهم للبلغاريين فى طلبهم لمخرج إلى بحر إيجه ، واهتمامهم بادارة المستعمرات الايطالية السابقة فى شمال إفريقية ، ورغبتهم المستمرة فى السيطرة على بوغازى الدردنيل والبوسفور ، وهى الرغبة التى تعكر صفو العلاقات بين الروس والأتراك .

واذا اتجهنا إلى آسيا الوسطى وجدنا الروس يهتمون اهتماماً شديداً بايران حيث موارد البترول فى أذربجان قد زادت قيمة

لدى الاقتصاد السوفييتى الذى زاد اتساعا . كما أن إنشاء السكة الحديدية فى إيران قد زاد فى تحسين الاتصال بين جهات بحر قزوين والمياه الحارة فى الخليج الفارسى . ولقد اتخذت روسيا من الاقليات الأذربيجانية والارمينية والتركية فى تلك الجهات ، فضلا عن الدعاية الشيوعية ، وسيلة لتزيد من نفوذها فى إيران ، لولا وجود النفوذ البريطانى وموقف هيئة الأمم المتحدة أخيراً.

ولا تعتبر الحدود المتاخمة للافغانيين ثابتة لأمرين : أولهما أنه يفصل بينهما نهر والأنهر ليست حدوداً طبيعية جيدة ، لأن الناس يميلون إلى التكاثر والتكتل على جوانب الأنهر . وثانياً لأن القبائل الساكنة فى شمال الأفغان من الأزبك والطناجك قريبة لشعوب السوفييت وليست قريبة فى جنسها إلى أهل كابول .

وإذا انتقلنا إلى الشرق وجدنا أن نفوذ الروس فى منغوليا صار عظيما بعد انهيار النفوذ اليابانى . وكذلك زاد نفوذهم فى منشوريا ، وإن كانوا قد سلموها للحكومة الصينية ، ولكن أعوانهم من الصينيين الشيوعيين قد استطاعوا أن يملأوا هذا الفراغ .

ولم تبق موانع طبيعية تحول دون امتداد نفوذ السوفييت فى بلاد الصين . أما كوريا التى كانت خاضعة لليابانيين فانها منذ سنة ١٩٤٥ انقسمت إلى قسمين : أحدهما يحتله الأمريكانيون ، والآخر يحتله الروس والحد بينهما صناعى .

ويمكن تلخيص العوامل الجغرافية التى تسيطر على السياسة الروسية فيما يأتى :

أولا : إن الحدود الواسعة التى هى —وفى الغرب بصفة خاصة— معرضة للهجوم الحربى والتى يمكن فى كل مكان اقتحامها بالأسلحة الحديثة مثل القلاع الطائرة والطيارات الصاروخية ، قد دفعت الروس إلى الحصول على أراض جديدة أو مناطق ، لتحول دون إقامة العدو لقواعد حربية وصناعية . ولذلك كانت روسيا من هذه الجهة مهتمة بفنلندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا ومنغوليا ومنشوريا وكوريا واليابان .

ثانيا : ان الحاجة للوصول إلى البحار الحارة تدفع روسيا دفعا شديدا . فقد دل التاريخ على أنه ما من أمة استطاعت أن تزيد من مواردها دون الاتصال البحرى مع الأمم الأخرى . فالمحيطات من خير الوسائل للاتصال بين الأمم فى حين أن الحدود الأرضية تفصل بينها . وروسيا من بين جميع الدول الكبرى سيئة الحظ من هذه الجهة . فأنهارها الكبيرة ، وهى من أطول أنهار العالم ، تتجمد أربعة شهور أو خمسة شهور فى السنة ؛ على حين يكون بعضها قليل المياه فى الصيف . ثم انها تجرى فى اتجاهات خاطئة ، فبعضها يصب فى المتجمد الشمالى وبعضها فى البحر الأسود المقفل وبعضها فى بحر قزوين الذى هو شبه البحيرة . لذلك ننتظر من روسيا أن تكون دائمة الاهتمام بشبه جزيرة البلقان والبواغيز والخليج الفارسى ومنشوريا وشمال الصين وكوريا وربما كانت الهند كذلك ؛ إلا إذا تطور الطيران تطوراً كبيراً حتى يحل محل الطرق البحرية .

فرنسا وسياستها بعد الحرب

تنشر مجلة القرن التاسع عشر وما بعده عدة أحاديث أجراها الكاتب سيمان مع بعض الزعماء والكتاب المشهورين فى فرنسا . وقد نشرت المجلة فى عدد نوفمبر أحد هذه الأحاديث . وستوالى نشر بعضها ، وستصدر الأحاديث جميعاً فى كتاب قريباً يصدره سيمان عن حركة التحرير .

قابل الكاتب سيمان الزعيم الفرنسى والأديب المعروف جان كاسو فى مارس سنة ١٩٤٥ . وكان كاسو من زعماء حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال الألمانى . وكان يعمل مفتشاً لهذه الحركة فى المنطقة الجنوبية من فرنسا . ونظم أول حركة خفية كانت تتصل بلندن لاستقبال الرجال الذين ينزلون بالمظلات . وقبضت عليه حكومة فيشى بعد اكتشاف مستودع كبير للأسلحة بمدينة تولوز ، كان مليئاً بالديناميت والمسدسات . وفى السجن ألف مجموعة من الأناشيد . وانتخب فى سنة ١٩٤٦ رئيساً للجنة الوطنية للمؤلفين . وهو الآن مدير لمتحف الفنون الحديثة بباريس ويتولى رياسة تحرير مجلة أوربا .

يقول سيمان إن كاسو رجل لا يعرف الالتواء فى عباراته ، وقد أتى عند ما قابله بزجاجة من الكونياك وأخذ يفرغ ما فيها لنفسه وللضيف . وهو يسكن داراً كبيرة فى ضواحى تولوز مع زوجته التى تعد من خير العازفات على البيانو .

ابتدأ سيمان الحديث بأن سأله عن الجرح الذى أصابه فى رأسه ولم يكد يشفى منه . فقال ضاحكا : إنه أصيب به حينما كان يقود سيارته قبيل تحرير مدينة تولوز ، وقد جازف إذ وضع عليها الراية الفرنسية المثلثة الألوان ، وكان لا يزال بالمدينة عدد من جنود الأعداء وهم جميعاً من الروس الذين التحقوا بخدمة ألمانيا ، فوقفوا السيارة ورأوا أحد ركابها واضعاً شارة حركة المقاومة ، فانهالوا عليه بالضرب حتى قتل . وأصيب كاسو بضربة فى رأسه فأغمى عليه وترك بين الحياة والموت . ثم طلب كاسو ترك الحديث فى هذا الموضوع ، واتجه يشرح رأيه فى حالة فرنسا قائلا :

« قد تدهش لحالة فرنسا ولكن دعنى أفسر . فمما لاشك فيه أن هنالك قطيعة بين فرنسا وحكومة ديجول ، وأن العلاقة بينهما هى مأساة . وتتخذ حكومة ديجول فى معاملتها للشعب الفرنسى هيئة المعلم حين يرى تلاميذ أشقياء »

وقال : قد يفهم الانجليز أن هنالك حركة اندفاعية من جميع الطبقات ترغب فى التجديد وليست هذه الحركة مناورة شيوعية أو ما يشابهها .

الواقع أنه تأسست تحت حكم الألمان الأداة الادارية لاستقلال المناطق بأمورها وهى أداة قوية . لذلك أرادت هيئة المقاومة بعد تحرير البلاد أن تستفيد من الفرصة السانحة فتصلح من الأمور وتبدلها بما يشبه أن يكون ثورة ، حتى لا يكون التحرير مجرد رحيل للألمان . وكان أقل ما ينتظر ألا يعود نظام الجمهورية الثالثة من جديد؛ وهذا أدنى ما يجب أن ينتظر بعد حركة التحرير .

ولقد كانت حركة المقاومة تضم جميع العناصر من سائر الأحزاب ، فكان من الطبيعى أن يؤمل فيها القضاء على الأحزاب القديمة .

وسأله محادثه الانجليزى عن اعترافه فى

أثناء الحديث بأن حركة المقاومة كانت تتألف من الأقلية ، فأجاب كاسو : أجل ! ولذلك وجدت الحركة صعاباً عند ما أرادت أن تتولى السلطة ؛ إذ كان ينقصها تأييد الجماهير . ولقد ارتكبت الحركة بعض الأخطاء بأن اتبعت بعض الطرق غير النظامية بعد التحرير ، وهى طرق كانت وافية بالغرض قبله . وكان الواجب على حركة المقاومة أن تعمل لاسترضاء الجماهير ، وكان من نتيجة ذلك أن أخذت الحزبية القديمة تتجمع .

قال الكاتب الانجليزى : إن الانجليز لا يفهمون حركة التطهير . فقال كاسو : لقد ظلت فرنسا أربع سنوات خاضعة للخيانة والأكاذيب بل ظلت أكثر من ذلك . فقبل هذه المدة كانت هنالك الجبشة وأسبانيا وميونيخ . وقد غلبت فرنسا فى أعز شئ لديها ؛ وليست فرنسا بممسحة للأقدام . ولقد شهدت الألمان وهم يسودونها بسبب التعاون الداخلى من رجال فرنسيين . وفيما يتعلق بالصحافة التى يدهش الأجانب لشعور الوطنيين بالعداء نحوها ، كانت هذه الصحافة قد سممت الرأى العام . وكان الكاتب موراس ذو النزعة الملكية وأمثاله يسيطرون على رجال السياسة . وأؤكد لك أن رجلا مثل بوانكاريه كان يتصفح فى سرعة جريدة أكسيون فرانسيز فى الصباح ليرى ماذا تقول عن زوجته أو عن أنه قصد فى الليلة السابقة أحد المواخير .

وفوق هذه الأمور يجب ألا تنسى الهدنة . ولم نعد نستطيع منذ سنة ١٩٤٠ أن نلوم أحداً . فقد شعر الفرنسيون بأن الهزيمة كانت منظمة . ومثل هذه الهزيمة هى أخجل الهزائم فى التاريخ وقد جادت على أثرها أربع سنوات قضيت فى حمأة العار .

فسأله الكاتب الانجليزى أهو يرغب فى المحالفة الشيوعية؟ فقال له جان كاسو : إنه يرى فيما يتعلق بالشيوعيين ألا تثير حركة المقاومة شقاقاً معهم ؛ فان هؤلاء الشيوعيين قد بذلوا فى الحرب مجهوداً كبيراً وسياستهم هى عظمة فرنسا . ثم قال : إن المحافظين فى فرنسا يختلفون عن المحافظين فى انجلترا . فالأولون رجعيون لا يعملون للتقدم على حين لا يتحرج الآخرون فى انجلترا فى قبول أنظمة حديثة .

وصرح كاسو فيما يتعلق بالمستقبل ، أن الأمل معقود على أن تسترد إسبانيا وإيطاليا حريتهما ، فتكونا أساساً لتجدد الغرب . وعند ما سئل وماذا يكون من شأن الروس؟ قال : إنهم مشغولون بالبلقان . ولذلك فان إيجاد جماعة ديمقراطية غربية تسير بالثورة حسب غرضها لا حسب قواعد مرسومة قد يكون يسيراً . وستكون أسبانيا محك مثل هذه السياسة . ولعل انجلترا تؤيد مثل هذه الحركة الديمقراطية .

أنطون الجميل

كان خطباً فادحاً ذلك الذى ألم بالأدب العربى والسياسة الشرقية والصحافة المصرية ، حين توفى المغفور له أنطون الجميل باشا ، رئيس تحرير « الأهرام » فى الثالث عشر من شهر يناير .

وقد كانت وفاته فجاءة غير منتظرة ؛ إذ كان الفقيد عشية اليوم الذى توفى فيه كأحسن ما يكون الانسان صحة ، وكأقوى ما يكون قوة ، وأكمل ما يكون نشاطا .

فقد شهد جلسة المؤتمر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وعمل فى « الأهرام » كما تعود أن يعمل إلى أن قارب الليل ثلثيه ، وعاد إلى داره فاذا الموت ينتظره فيها .

وكان أنطون باشا الجميل أديباً مترف الأدب رفيع الفن صافى الذوق مرهف الطبع .

ظهر ذلك فى شبابه حين أصدر مجلة « الزهور » واتصل ذلك فى حياته كلها ، فكان أروى الناس لبيت جيد واحفظهم لفصل رائع كما كان أرقهم منطقا وأعذبهم حديثاً .

وقد عمل فى مناصب الدولة ؛ فكان نموذجا للموظف المتقن لعمله فى أمانة وحذق وفطنة . ثم ترك مناصب الحكومة وتولى رياسة تحرير « الأهرام » فكان مثالا للصحفى البارع الفطن والسياسى الماهر اللبق نفذ « بالأهرام » فى رشاقة أى رشاقة من أشد المواقف السياسية فى مصر والشرق دقة وحرجا . وعين فى مجلس الشيوخ ، فكان برلمانيا ماهرا لبقا موفقا بين المختصمين مؤلفا بين المختلفين . وعين فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فكان ابتسامة متصلة فى جوه الذى يأخذه الجد من جميع أقطاره . وكان فيه كما كان فى مجلس الشيوخ موفقا حين يكون الاختلاف ورفيقا حين تشتد الخصومة. وكان مكتبه فى « الأهرام » ناديا سياسيا أدبيا من أحفل الأندية فى الشرق العربى وأبعدها أثرا فى الحياة العامة والخاصة وكان على هذا كله رفيقا بالشباب عطوفا عليهم موجها لهم .وكان أوفى الناس لصديق وأحفظ الناس لسر وأحسنهم محضرا وآمنهم على غيب .

فليس غريبا أن تكون المصيبة فيه عامة والمحنة به شاملة ، و أن يأسى لفقده أصحاب الأدب والسياسة والصحافة فى مصر والشرق العربى ، بل العالم الاسلامى كله وبيئات كثيرة من بيئات الأدب والصحافة فى الغرب .

أحسن الله عزاءنا عن فقده وألهمنا جميل الصبر على مصيبتنا فيه .

ظهر حديثا

كتاب البخلاء للجاحظ حقق نصه وعلق عليه الأستاذ طه الحاجرى ٤٦٠ + ٥١ صفحة من القطع الكبير (دار الكاتب المصرى)

منذ أعوام طويلة كتب إلى شيخ المستشرقين الفرنسيين، الاستاذ وليم مارسيه، يود لو أن عالماً مصريا تجرد لنشر كتاب البخلاء للجاحظ نشراً علميا محققاً يبرئ نصه من الأغلاط التى لم يستطع ناشره المستشرق فان فلوتن أن يبرئه منها.

وأرسل إلى فى الوقت نفسه، ثبتاً بطائفة من هذه الأغلاط التى استخرجها حين قرأ هذا النص، وعاب على المصريين أنهم يتركون كتب الأدب والعلم نهباً للناشرين المتجرين الذين لا يرعون فى نشرها أمانة ولا إخلاصا، بل لا يرعون فى نشرها تحرجا من السطو والعدوان. فقد نشر كتاب البخلاء فى مصر، كما نشر غيره من الكتب فيها وفى بلاد الشرق العربى، نقلا عن الطبعة الأوربية، دون ذكر لها أو إشارة إليها أو تحر لمطابقتها، فكانت الطبعة المصرية شيئاً يشبه أن يكون عاراً لحق المثقفين المصريين جميعاً؛ لأنها سرقت من الطبعة الأوربية، واحتفظت بما فيها من الأغلاط والتحريف، وأضافت إليها أغلاطاً أخرى، وألوانا من التحريف جاءت من أن التصحيح كان تجاريا خالصاً، كما كان النشر تجاريا خالصاً. ومع ذلك فقد نعمنا فى آخر الصبا وأول الشباب بهذه الطبعة المسروقة المشوهة، ووجدنا فيها متاعاً أى متاع. اشتريناها بقروش قليلة كنا نراها فى ذلك الوقت كثيرة. فلم نكد نقرأ منها صفحات حتى ملكت علينا نفوسنا وعقولنا، ونقلتنا إلى عالم من روعة الفن، مباعد أشد المباعدة لذلك العالم البائس الذى كنا نعيش فيه.

ولست أخفى أنى حين تلقيت كتاب الأستاذ وليم مارسيه، وقرأت سخطه على الطبعة المصرية وأصحابها، استجاب له عقلى، ولم يستجب له قلبى. فقد كنت مديناً للحاج محمد الساسى رحمه الله بفضل عظيم؛ فهو الذى أتاح لى ولأمثالى أن نقرأ البخلاء والحيوان، كما أتاح لى ولأمثالى أن نقرأ كتاب الأغانى، بعد أن نفدت طبعته الأولى أو ارتفع ثمنها حتى أصبح التطلع إليها لا يلائم فقر الأزهريين.

وكنا فى ذلك الوقت نتكلف أعظم المشقة وأشد الجهد، لنشترك فى كتاب الأغانى أو كتاب الحيوان، نؤدى هذا الاشتراك فى كل شهر قروشاً لا تبلغ العشرة، ونأخذ بين حين وحين جزءاً من أدب الجاحظ أو من أدب أبى الفرج، فنغرق فيه وننعم به، وتمتلىء قلوبنا سخطا على حياتنا التى كنا نحياها، وعلى علمنا الذى كنا نتلقاه من شيوخنا الأجلاء.

ولم نكن نحفل بالأصل الذى نقلت عنه هذه الكتب، ولا بالجهد الذى تكلفه الناشرون، ولا بالنص الذى كان يقدم الينا، وإنما كنا جياعاً نريد أن نأكل، وظماء نريد أن نشرب، وجهالا نريد أن نتعلم. وكان أيسر ما يقدم إلينا لارضاء هذه الحاجات يقع

من نفوسنا أحسن موقع . ويبلغ من قلوبنا أجمل منازل الرضا . مثلنا فى ذلك كمثل هؤلاء الجياع العراة الذين تزدحم بهم أرض مصر ، والذين لا يتلمسون لارضاء حاجاتهم إلى الغذاء والكساء ، طرائف ما ينعم به المترفون من ذلك . ثم تقدمت بنا السن وتطورت بنا الحياة ، ولقينا المستشرقين فى الجامعة المصرية ، وأخذنا عن العلماء فى الجامعات الأوربية ، وعرفنا أن لنشر الكتب القديمة أصولا يجب أن ترعى ، وحقوقاً يجب أن تؤدى ، فرحمنا الناشرين الذين قدموا إلينا ما نعمنا به من الأدب والعلم ، ورحمنا أنفسنا لأننا اكتفينا بما قدم إلينا ، وأخذناه كما هو فى غير تحفظ ولا تحرج وفى غير نقد ولا تمحيص ، وحرصنا على أن نوجد جيلا من الناشرين خيراً من ذلك الجيل ، وأجيالا من القارئين خيراً من جيلنا ذاك . ولست أزعم أنا قد بلغنا من ذلك كل ما أردنا أو أكثر ما أردنا ، ولكن الشيء المحقق هو أننا بلغنا من ذلك حظا لا بأس به ، واستطعنا أن نتحدث إلى المستشرقين الأوربيين ، عن جهود يبذلها الجيل الجديد من الناشرين للأدب القديم فيتاح له فيها كثير من التوفيق .

وقد تحدثت فى غيرهذا الموضوع عن شيء من هذه الجهود . وأظن أن كتاب البخلاء هذا ، أو أن هذه الطبعة الجديدة من كتاب البخلاء ، دليل صادق قاطع على ما أتيح لنا من النجح ، وعلى ما ظفر به شبابنا المثقفون الذين يعنون بنشر الأدب القديم من فوز أرجو أن يكون مقدمة لفوز آخر أعظم منه خطرا وأبعد منه أثراً ، وأجدر منه أن يكفل لنا التفوق فيما ينبغي أن نتفوق فيه . فالأدب العربى القديم أدبنا نحن ، ونحن أولى الناس بأن نحوطه ونرعاه ونحيي آثاره على ما ينبغى لها من الدقة والاستقصاء والاتقان .

والأستاذ طه الحاجرى مفتون بالجاحظ قد وقف عليه أعظم جهده منذ تخرج فى كلية الآداب بجامعة فؤاد . فهو قد اتخذ كتاب البخلاء موضوعا لرسالته التى نال بها درجة الماجستير . وهو قد شارك المرحوم الاستاذ كراوس فى نشر طائفة من رسائل الجاحظ لم تر النور قبل أن ينشراها . وهو قد نشر فى هذه المجلة شيئاً من آثار الجاحظ ، لم يكن معروفاً قبل أن ينشره فيها . وهو بعد هذا كله قد فرغ للجاحظ فراغاً يوشك أن يكون تاماً منذ سنين ، فاستقصى ما استطاع أن يصل إليه من آثاره ودرسها ، وتقدم بنتيجة هذا الدرس والاستقصاء ، إلى كلية الآداب ، لينال بها درجة الدكتوراه .

وطبعته هذه لكتاب البخلاء ، نتيجة من نتائج هذا التخصص فى الجاحظ والتفرغ له ، وهى تقدم إلى قراء العربية ، من الشرقيين والمستشرقين ، آية من أروع آيات الأدب العربى ، كأحسن ما يكون تقديم النصوص القديمة دقة وتعمقاً واستقصاء وتمحيصاً . فقد روجع النص كأحسن ما تكون المراجعة ، واستدركت أغلاط الطبعة الأوربية الأولى ، سواء منها ما كشفه الاستاذ وليم مارسيه ، وما لم يكشفه . وحققت أسماء الرجال والأطعمة والأدوات ، كما حققت نصوص الشعر التى جاءت فى هذا الكتاب . ووفق الناشر إلى أن يكشف عن أشياء كثيرة ، تتصل بالأشخاص والأحداث ، كانت مجهولة قبل هذه الطبعة . وقدم بين يدى هذا كله ، بحثا متقناً عن فن الجاحظ فى أدبه كله ، وفى كتاب البخلاء خاصة ، وأتاح لى أن أكتب إلى الأستاذ وليم مارسيه بأن أمله فى العلماء المصريين لم يخب ، وبأن ظنه فيهم لم يكذب ، وبأن أحدهم وهو الأستاذ طه الحاجرى قد تجرد لكتاب البخلاء ، فبرأه من الخطأ والتحريف ، وحقق

نصه ، وشرح غامضه وبين مشكله ، وعرضه فى أجمل صورة ممكنة . وأتاح لى أن أرسل إلى الأستاذ وليم مارسيه مع هذا الكتاب ، نسخة من هذه الطبعة ، يطمئن إليها ويغتبط بها . وأتاح للجاحظ أن يحيا حياة جديدة جديرة به . وأتاح للذين يحبون أن يترجموا كتاب البخلاء ، أن يقبلوا على هذه الترجمة مطمئنين إلى أنهم يترجمون نصا صحيحا .

وأظن أن هذا كله يستحق أن نهدى إلى الأستاذ طه الحاجرى شكراً جزيلا وثناء جميلا .

رسائل الصاحب بن عباد صححها وقدم لها الأستاذان عبد الوهاب عزام وشوقى ضيف ٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط (دار الفكر العربى)

وكتاب البخلاء كنز لا يقدر ، نجد فيه ما شاء الله أن نجد من حياة المسلمين فى العراق ، أثناء القرن الثالث . وهو إلى ذلك آية من آيات الأدب العربى كما قدمنا . على أن هناك كنزاً آخر لا يقدر ، من كنوز الأدب العربى ، قد أثاره وأهداه إلى الناس الأستاذان عبد الوهاب عزام وشوقى ضيف ، وهو رسائل الصاحب بن عباد . وأى الناس لا يعرف الصاحب بن عباد ، ولا يشارك فى إكباره والاعجاب به ! فكل أديب عربى ينشأ على إكبار الصاحب ابن عباد والاعجاب به ؛ لأن مكانته فى الأدب العربى مقررة منذ أواخر القرن الرابع للهجرة ، لا ينكرها أحد ولا يجادل فيها مجادل . ولكنك تسأل الأدباء عن مصدر هذا الامتياز الذى أتيح للصاحب ابن عباد ، وهذه المكانة المقررة التى فرضت له وارتفعت عن الخصومة والجدال حتى أصبحت من الأوليات ، فلا تجد عندهم جوابا ؛ لأن الأدباء لم يكونوا يعرفون الصاحب بن عباد إلا معرفة مقاربة ، يقرءون عنه فى كتب الأدب ، ويرون ترجمته فى كتب التراجم ، ويقرءون له هذا النص القصير أو ذاك هنا وهناك ، ثم لا يزيدون على ذلك شيئاً . وهم على ذلك يؤمنون له بالامتياز إيماناً تقليديا متوارثا ، كذلك قال القدماء ، فيجب أن يقول المحدثون مثل ما قال القدماء .

أما الآن فقد استطاع الأستاذان عبد الوهاب عزام وشوقى ضيف ، أن يقدما إلينا طرفاً صالحاً ، من أدب الصاحب بن عباد ، واستطعنا نحن أن ندرس هذا الأدب دراسة تعمق وبحث واستقصاء ، وأن نكون لأنفسنا فى هذا الأديب رأياً ، لا نرثه ولا نقلد فيه ، وإنما نستخرجه من درسنا نحن ، ومن حكمنا نحن ، ومن علمنا نحن لا مما قيل قبلنا ، عن علم أو عن جهل ، وعن اجتهاد أو تقليد . وليس من شك فى أن هذا وحده يكفى لنعترف للأستاذين بفضل عظيم ، أعظم جدا مما قدرا حين تجردا لنشر هذا الكتاب .

ولكن رسائل الصاحب بن عباد لا تمتاز بأنها نماذج لأدب هذا الأديب الكبير فحسب ، وإنما تمتاز مع ذلك بأنها كنز من كنوز التاريخ ، ومن كنوز التاريخ لبيئة لم يوفها التاريخ الاسلامى العام والخاص حقها من التتبع والتعمق والاستقصاء ، وهى بيئة البويهيين خارج بغداد . فهؤلاء البويهيون قد حكموا رقعة من الأرض الاسلامية فى إيران عصراً طويلا ، وحكموها فى الوقت الذى كان الشعب الايرانى فيه يحاول أن يسترد من مقوماته الوطنية ما

فقد بحكم الفتح الاسلامى : يحاول أن يستكمل سلطانه السياسى ، وأن ينشىء لنفسه أدبه الايرانى الذى يؤديه فى لغة إيرانية مستقلة .

وكان الصاحب بن عباد من أكبر وزراء هؤلاء البويهيين ؛ فهو قد شاركهم أعظم المشاركة وأقواها فى إنشاء هذا اللون الجديد من هذه الحياة الايرانية الجديدة .

وهذه الرسائل التى نشرها الاستاذان تصور أطرافاً كثيرة من حياة الدولة البويهية ، ومن حياتها فى إيران خاصة ، ومن حياتها السياسية والادارية والعسكرية والاجتماعية والأدبية بالطبع . وأكبر الظن أن خطورة هذه الرسائل هى التى دعت الأستاذين حين ظفرا بها إلى نشرها متعجلين غير متمهلين . وهما ينبئاننا فى سذاجة ساذجة وصراحة صريحة بأنهما تعجلا هذا النشر ، ولم يستأنيا لعل البحث أن يتيح لهما نسخة أو نسخاً أخرى تعينهما على المقابلة والموازنة والتحقيق . وهما على ذلك قد بذلا ما أطاقا من الجهد لتحقيق النص وتصحيحه ، واحتفظا باستئناف التصحيح والتحقيق إن أتيحت لهما مصادر أخرى تمكنهما من استئناف التصحيح والتحقيق . وما ينبغى أن نلومهما على هذه العجلة التى يلومان فيها أنفسهما ؛ فالنص الذى قدماه إلينا واضح ناصع لا يظهر فيه اضطراب ولا اختلاط . فنحن لا نتحفظ إلا حيث تحفظا ، ونحن نرجو كما يرجوان أن يكشف جدهما المتصل وبحثهما العميق عما يريحهما من كل ما يشفقان منه .

ونحن بعد ذلك نشكر لهما جهدهما الخصب ، وحسن غنائهما فى خدمة الأدب العربى والتاريخ الاسلامى .

طه حسين

يقظة مصر الحديثة *The awakening of Modern Egypt* تأليف الأستاذ محمد رفعت بك (محل لنجمانز Longmans بلندن)

كان الأستاذ محمد رفعت بك دائماً بالرغم من أعماله الحكومية والمناصب الكثيرة المشاغل التى تولاها فى وزارة المعارف محتفظاً بمقامه العلمى بين المؤرخين المصريين البارزين . ولم تكن المناصب لتؤدى به ، كما أدت بكثيرين ، إلى ترك البحث والدراسة ، والاهتمام بمجرد المظاهر التى هى فى الواقع لا قيمة لها ، وإن ظن الناس أن لها قيمة . فهو قد اختار لنفسه أن يحتفظ بمكانته العلمية على أن ينساب فى تيار الأعمال الادارية . ولقد وجد أن ما فعله كان خيراً وأجدى بعد أن تخلى عن هذه الأعمال ؛ لأن مكانة الأستاذ رفعت بك زادت قيمة باعتزاله العمل الحكومى وانقطاعه للبحث والكتابة . وهذه آثاره ، وهذا إنتاجه الذى نقرؤه له فى مجلة « الكاتب المصرى » وفى غيرها من المجلات والصحف، يدل دلالة واضحة على ما خسرته الحركة الفكرية فى مصر فى السنوات الطويلة التى كان فيها الأستاذ رفعت بك فى منصبه ، وإن كان رفعت بك قد شغل المناصب التى وكلت إليه بكفاية نادرة ، ولم يكن اسمه قط نكرة كما هى أسماء كثير من شاغلى المناصب ، وإن كان قد أخرج كتباً ومباحث أثناء عمله الحكومى .

ولكننا الآن نلمس نشاطه البادى فى

كتاباته ، ونلمس نشاطه فى هذا الكتاب الذى وضعه باللغة الانجليزية عن «يقظة مصر الحديثة» .

وقد لا يكون من المستطاع أن ننوه بأهمية هذا الكتاب بما هو جدير به ؛ لأن الشعور بأهميته يتبين من أول فصل فيه . ويزيد اهتمام القارئ كلما أوغل فى الكتاب حتى يأتى إلى نهايته . فيفكر حقا أن الأستاذ محمد رفعت بك قد أحسن كل الاحسان بتأليفه ، وأحسن أكثر من ذلك باخراجه باللغة الانجليزية . فنحن لا نكاد نتذكر فيما قرأنا صورة كتبت لتاريخ مصر الحديث فى مثل هذا الوضوح ، وفى مثل هذه القوة من إبراز وجهة النظر المصرية ، بقلم كاتب مصرى لقراء أجانب . فلقد وضعت عن هذه الفترة من التاريخ المصرى كتب كثيرة ، بعضها يعالج هذه الفترة إجمالا ، وبعضها يعالج أزماناً منها . ولكننا نحاول أن نفكر فيما قرأناه لنجد كتاباً اتخذوا هذه الوجهة التى اتخذها محمد رفعت بك فلا نجد ، ونحاول أن نفكر فيمن أجمل حوادث هذه الفترة بهذا الوضوح ، وحسن التصوير ، وهذه الحياة التى تمشى فى عروق صور الحوادث ، فلا نجد . وليس فى هذا القول مغالاة ، فقد تخوننا الذاكرة ، ولكن الواقع أن هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن ، قد أثرت قراءته فينا تأثيراً كبيراً .

بدأ المؤلف فصله الأول بذكر حملة نابليون وأثرها ، وما كان لنابليون من يد فى اصلاحات عدة أدخلها فى النظام المصرى ، حتى استطاع أن ينقل هذه البلاد فجأة من نظام عتيق ألفته منذ القرون الوسطى إلى نظام حديث ابتدعه لها وليد الثورة . ولئن كان نابليون قد أخفق من الوجهة الحربية ، فانه بث فى مصر الروح الحديثة من الوجهة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فبدأت مصر تشعر بقوميتها المنفصلة عن الأتراك والمماليك المسيطرين على شؤونها .

فالحملة الفرنسية هى التى مهدت للقومية المصرية ، كما نراها متجلية فى الفصل الثانى من هذا الكتاب الذى وصف فيه قدوم محمد على ، وطريقة تولية الامارة برغبة الشعب المصرى ، قبل أن تكون برغبة السلطان والخليفة التركى .

وفى هذا الفصل نقرأ وصفاً بديعاً للحملة الانجليزية التى أريد بها تثبيت أقدام الانجليز فى مصر ، بعد إخفاق الفرنسيين ، وكيف قاوم محمد على هذه الحملة ، وكيف ساعده الشعب المصرى حتى انتصر على المغيرين .

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى حكم محمد على إذ توطد سلطانه على البلاد ، وما أخذ يقوم به من اصلاحات ، وما بذله من جهد للنهوض ببلاده ، حتى تصير فى مصاف الدول الأوربية المتحضرة ، وكيف تم ذلك عن طريق الاهتمام بالجيش .

فاذا تم لمحمد على إعداد جيش قوى خشيته الأمم . ولعل السلطان التركى كان أكثر خشية لتابعه من غيره من رؤساء الدول الأخرى . وبدأ النزاع يتفاقم بين الباشا والسلطان كما نقرأ فى الفصل الرابع ، وانتهت الأمور بينهما إلى القطيعة ثم الحرب .

وهنا تقوم الأزمة الأوربية حول مصر ؛ إذ أخذت الدول الكبرى تخشى جانب محمد على ، وكانت تفضل السلطان الضعيف لكى تحقق أغراضها فى السلطنة العثمانية . أما وقد رأت الأمور تتحرج ، ويتقدم والى مصر منتصراً ، حتى هدد فى وقت ما السلطنة العثمانية بالزوال ، وكاد يحل محلها ، فكيف ينفذون أغراضهم إذا حل الرجل القوى مكان الرجل الضعيف ؟

وفى الفصل السادس نرى هدوء العاصفة بعد ضغط الدول ، وفى طليعتها انجلترا ، على

محمد على ، حتى تم الصلح بينه وبين السلطان . وبذلك أنقذت السلطنة العثمانية من خطر يكاد يكون محققاً ، وبذلك انتهى نشاط محمد على من الوجهة السياسية .

أما الفصل السابع فيتكلم عن حكم اسماعيل ويصف بذخه ، وما أدخله من اصلاحات اقتصادية واجتماعية وقضائية وثقافية .

ثم انتقل المؤلف إلى المشروعات التى قام بها رجال من الأجانب ومن أهمها قناة السويس، وما قام حول هذا المشروع من عقد سياسية .

وتكلم المؤلف فى الفصل التاسع عن اهتمام مصر بالبلاد الافريقية لاسيما السودان، وإرسالها البعثات إلى منابع النيل وعلاقاتها بالحبشة والبلاد المتاخمة لها .

والفصل العاشر يشرح نزول الخديوى اسماعيل عن عرش مصر والأسباب التى أدت إليه .

وحوادث الفصل الحادى عشر هى حوادث الثورة الحربية التى قام بها عرابى باشا ، وما كان لها من أثر فى قيام النزاع بين الأتراك والمصريين .

فاذا وصل المؤلف إلى الفصل الأخير رأيناه يجمل اجمالا بارعاً تاريخ الاحتلال ، وطلب الجلاء ، ونهضة التعمير التى بدأتها الحكومة المصرية حين انتقلت الأمور إلى يد أبناء الوطن .

وهو فى كل ذلك يبدى آراء صائبة ، ونظرة بعيدة فى الأمور وهو يستعرضها ، وهو فى ذلك يذكر المراجع التى اعتمد عليها حين ينقل رأى غيره . وهو بالطبع على غير ما يفعله المؤرخون من الأوربيين حين الكلام عن مصر الحديثة ، يعتمد على المراجع العربية كلما وجد إلى ذلك سبيلا . ومع أنه وضع الكتاب باللغة الانجليزية ، لم يحاول قط أن يخفى مساوئ الحكم الانجليزى أو يخفف من هذه المساوئ . ولم يحاول قط أن يسكت صوت الوطنية المصرية، أو يخفف من هذا الصوت . وهذه فضيلة من أكبر مزايا هذا الكتاب ، الذى لا نشك فى أنه يجب أن يكون فى مكتبة كل قارئ مصرى ، كما سيكون مرجعاً لكل أوربى يهتم بتاريخ مصر الحديث .

معانى الفلسفة للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (دار إحياء الكتب العربية)

لعل هذا الكتاب من أهم الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة وعالجت موضوعات فلسفية ، مع أن هذه السنوات تميزت بما ظهر باللغة العربية من كتب الفلسفة والموضوعات التى يبحث فيها هذا العلم . ووجه أهمية هذا الكتاب قد لا يدل عليه عنوانه ؛ فهو مقدمة وخلاصة لمباحث فى الفلسفة والموضوعات التى تعالجها ، وهو يضع الحدود ويرسم الطريق للباحثين فى هذا العلم ، فهو يلقى نظرة سريعة ولكنها نظرة صائبة على مجال الفلسفة وطرق البحث فيها .

ولقد أثبت المؤلف إلمامه الواسع بموضوعه وتمكنه منه . وليس الالمام والتمكن ليستبين فى المطولات كما يستبين فى الخلاصة المهضومة ، وهذا ما يتضح تماماً فى قراءة هذا الكتاب .

وقد ابتدأ المؤلف بتعريف لفظ الفلسفة وماقاله فيها اليونان والعرب ، ثم تكلم عن تطور الفلسفة والفرق بينها وبين العلم ، وانتقل من ذلك إلى الكلام عن المذاهب المختلفة فى الفلسفة اليونانية ثم فى الفلسفة الاسلامية ، ثم تكلم عن الفلسفة الحديثة .

وعالج بعد ذلك كيف انفصلت العلوم عن الفلسفة ، وما بقى لها من مجال بعد انفصال هذه العلوم .

هذه مباحثه التى تكلم عنها فى القسم الأول . أما فى القسم الثانى فتكلم عن نظرية المعرفة ، ثم عن تطور هذه النظرية ومختلف مدارس الرأى فيها .

فهذا الكتاب هو خير دليل لمن يريد أن يلم بمباحث الفلسفة ،وهو فضلاعن ذلك مكتوب بأسلوب جميل حتى ليكاد يؤلف قطعة فنية مع أن المؤلف لم يهمل الدقة فى تعابيره الفلسفية ، ومع ذلك لا يمل قارئ هذا الكتاب مطلقاً بل قد يجد فيه من اللذة ما يجده فى القصص ، ولا ينتهى منه حتى يتطلع إلى مزيد من تعمق فى النظريات الفلسفية ، وتلك غاية لايصل إليها الكتاب ولاسيما الكتاب فى موضوعات غير أدبية إلا القليل .

الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية تأليف لينين وترجمة دكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة)

لقد أراد الدكتور راشد البراوى أن يطلع العالم العربى على تطور الفكر الحديث فى أوربا ،فعمد إلى نقل طائفة من الكتب كانت المكتبة العربية فى أشد الحاجة إليها ، كما وضع طائفة من الكتب فى أحدث النظريات الاقتصادية ، فقام بنقل كتاب رأس المال لكارل ماركس كما أخرج كتابه عن التفسير الاشتراكى للتاريخ . وهو اليوم ينقل كتاباً من مؤلفات لينين زعيم الشيوعية الذى حقق نظريات كارل ماركس حين نجحت الثورة البلشفية وتولى زعامة روسيا .

وليس ثمة شك فى أن الآراء التى نادى بها كارل ماركس وشرحها واعتنقها لينين وعمل لتحقيقها فى دولة من أكبر الدول قد صارت جزءاً من تراث الفكر العالمى .فكما أن الآراء التى جاءت بها الثورة الفرنسية وكانت تبدو ثورية جريئة عندئذ قد اعتنقتها كل الأمم وصارت جزءاً من الفكر الانسانى ، كذلك سوف يبقى خير ما فى آراء كارل ماركس وتلاميذه جزءاً من آراء العالم . وليس معنى ذلك أن العالم سيعتنق الشيوعية فالشيوعية بنظامها الحالى قد لا تلائم كل الأمم ، وهنالك لكل أمة تقاليد وتاريخ قد يحول دون قيام الشيوعية على الوجه الذى عرف فى روسيا . وعند ما اعتنقت الأمم آراء الثورة الفرنسية لم تعمد إلى تقليد فرنسا كما يفعل القردة ، فلم يقم المفكرون فى هذه الأمم ينصب المقصلة للاشراف والزعماء كما حدث فى فرنسا ، بل إن شرور هذه الثورة لم تقابل إلا بالنفور والازورار من هذه الأمم ، وإنما خيرها هو الذى سرى وثبت فى أذهان الناس .

لذلك نحن نعتقد أن الدكتور راشد البراوى قد أدى خدمة كبيرة بنقل هذه الكتب وأمثالها ليطلع عليها الشرق العربى ويساير الزمن فى تفكيره واتجاهاته ويشارك الغرب فى تفهم الحياة السياسية والاقتصادية .

ح . م .

مسند أحمد تحقيق وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر (دار المعارف بمصر)

أصدرت دار المعارف الجزء الثالث من هذا الديوان الأعظم الذى اضطلع بتحقيقه وشرحه وصنع فهارسه العلامة المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر، ليتيح لأهل العلم والمشتغلين بالفقه وأصول الدين وتاريخ التشريع الاسلامى وعلم الحديث وفن الرواية، الانتفاع بهذه الموسوعة العظمى فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى رواها الامام أحمد بن حنبل منذ أحد عشر قرنا ونيف ورجاها أن تكون للناس إماما . . .

ويبدأ هذا الجزء بالحديث رقم ١٤٠٥ من مسند الزبير بن العوام، وينتهى بالحديث رقم ٢١٢٤ ؛ فهى إذن سبعمائة وعشرون حديثاً محققاً مضبوطا معنيا بشرح غريبه وتحقيق سنده ؛ منها ٦٤٣ حديث بين الصحيح والحسن و ٧٧ مضعفة .

وقد ألحق بهذا الجزء كما ألحق بالجزأين السابقين جريدة المراجع، ثم طائفة من الفهارس التفصيلية المدققة لم يلحق مثلها بكتاب من كتب السنة قبل أن يضطلع بهذا العمل الجليل حامل عبئه . نسأل الله أن ينفع به ويعينه على تمام ما بقى من أجزاء هذا المسند الامام .

عصر المماليك ونتاجه العلمى والأدبى للأستاذ محمود رزق سليم المدرس بكلية اللغة العربية (مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة)

لا زال عصر سلاطين المماليك فى مصر مجهولا أو كالمجهول لا يكاد يلتفت أحد إلى تجليته والتعريف به ونبش تراثه العلمى والأدبى والكشف عن آثاره وصور الحياة السياسية والاجتماعية فيه ؛ على أنه من أزهى العصور فى تاريخ مصر الاسلامى ؛ بل لعل مصر لم تبلغ فى عصر من العصور ما بلغته فى عصر سلاطين المماليك من الرقى والعظمة واتساع الرقعة والمهابة والسلطان السياسى حتى امتدت حدودها بين طرابلس الغرب وآسيا الصغرى، وشمل سلطانها الحجاز واليمن والجزيرة والموصل — كان ذلك فى الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حين وطئتها جنود الدولة العثمانية فسلبتها استقلالها وجعلتها ولاية محمية يخضع حكامها لأمر الباب العالى فى الاستانة . . . وحاق بها ما حاق من ذل الاستعمار منذ أربعة قرون . فتراكم غبار السنين على ذلك الماضى الزاهر، فلا يكاد يذكره ذاكر فى مصر أو فى غير مصر . ولم يبق عالقا بالأذهان من تاريخ هذه الفترة إلا ما أرادت دعايات الاستعمار أن يبقى من الصور البغيضة والأوهام الباطلة والمبالغات المصنوعة لتشويه صورة ذلك العصر فى عيون المصريين .

وهذا الكتاب الذى يقدمه الأستاذ محمود رزق سليم عن عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى هو محاولة موفقة لتجلية ذلك العصر وكشف غبار السنين عن صوره وإدحاض المفتريات الباطلة عن حقائقه .

على أن المؤلف وهو أستاذ من أساتذة الأدب لم يكن يقصد من بحثه ودرسه إلا إلى ناحية واحدة تتصل بدائرة اختصاصه الأدبي ، وقد كان خليقا بذلك أن يقتصر فى مؤلفه على الناحيتين العلمية والأدبية ، لولا أن ذلك الغموض الذى يكتنف ذلك العصر كله قد فرض عليه أن يوسع دائرة بحثه ليجعل دراسة تاريخ العصر وخصائصه الاجتماعية سبيلا إلى دراسة أدبه ونتاجه العلمى وأهل الأدب والعلم فيه ، واستتبع شئ شيئاً ، فاذا دائرة البحث تتسع شيئا بعد شئ حتى تشمل العصر كله ، فاذا بين يديه موسوعة عن عصر المماليك كشف عنها الغبار فى منطقة فسيحة وعلى أعماق بعيدة ، وإذا الكتاب الذى قصد أن يكون خالصاً للأدب قد عاد سلسلة من الكتب عن العصر كله فى مختلف أحواله وصوره .

وقد أصدر حتى اليوم القسم الأول — وهو القسم التاريخى — من هذه السلسة فى جزأين كبيرين يتجاوز مجموعهما سبعمائة صفحة من القطع الكبير ويتضمنان خلاصات وافية عن ملوك ذلك العصر وسيرهم وأحوال الدولة ونظمها وعاداتها ما يتصل بها من شؤون فى ذلك العصر ، مع ترجمات محققة لكثير من الرجال الذين كان لهم أثر فى سياسة الدولة لذلك العهد .

وسيتبع هذا القسم من الكتاب أقسام أخرى تبلغ بها عدة أجزاء الكتاب ثمانية يتم بها المؤلف قصده فى التعريف العلمى والأدبى الكامل بهذا العصر .

وليس يعرف ما بذل المؤلف من الجهد فى تأليف هذا الكتاب إلا الذى عانى بعض متاعبه فى محاولة الكشف عن بعض حقائق ذلك العصر ، وهو عناء وجدت مذاقه فى بعض ما أنشأت من قصص عن عصر سلاطين المماليك .

إنه كتاب فيه برهان للناس على أن مصر لم يزل فيها مجاهدون مجهولون يؤمنون بالعلم ويبذلون فى سبيله ما لا طاقة على بذله لكل أحد !

كتب أخرى

لم يتح لى أن أخلص إلى طائفة أخرى من الكتب جاءنى بها البريد فى هذه الأيام ؛ فأكتفى بالاشارة إليها شاكراً ومعتذراً ، وهى :

— « زقاق المدق » قصة حديثة عن حى من أحياء القاهرة القديمة بقلم الأستاذ نجيب محفوظ (لجنة النشر للجامعيين) .

— « حفنة ريح » مهزلة فى فصل واحد ومجموعة قصص ، ومراسلات ، بقلم الأستاذ سعيد تقى الدين (دار العلم للملايين — بيروت) .

— « فهارس المكتبة العربية فى الخافقين » تعريف شامل بالفهارس الموضوعة للكتب العربية فى مختلف البلاد ، تأليف الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين دار الكتب اللبنانية — خصص ريعه لصندوق إنقاذ الأراضى الفلسطينية (مطابع صادر ريحانى — بيروت) .

— « رائد التراث العربى » مسرد نقدى جامع لكل ما ألفه علماء المشرقيات عن التراث العربى فى مختلف العصور والموضوعات . وضعه بالفرنسية جان سوفاجيه

رئيس دائرة تاريخ الشرق الاسلامى فى مدرسة الدراسات العليا بباريس ، واقتبسه الأستاذ صلاح المنجد رئيس ديوان مديرية الآثار العامة فى الجمهورية السورية (دار العلم للملايين — بيروت) .

— « رجال الحكم والادارة فى فلسطين » أسماء وتواريخ وتراجم مختصرة ، من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى ، بقلم الأستاذ أحمد سامح الخالدى (المطبعة العصرية — القدس) .

— « الاسلام والنظام العالمى الجديد » تأليف مولاى محمد على رئيس الرابطة الأحمدية لاشاعة الاسلام بلاهور ، ترجمة أحمد جودة السحار (لجنة النشر للجامعيين بالقاهرة) .

— « لطف الايناس فى النصيحة للناس » للمؤرخ اليمنى الشيخ عبد الواسع الواسعى .

— « تركيا بين جبارين » الحلقة السادسة من سلسلة الثقافة السياسية ، بقلم باسيل دقاق (منشورات دار المكشوف ببيروت) .

— « روح وجسد » أقاصيص مصرية بقلم عبد المعطى المسيرى (مكتبة البنا بدمنهور) .

— « الرسول : حياة محمد » تأليف ر . ف . بودلى ، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج (لجنة النشر للجامعيين — القاهرة) .

— « حضارتنا » مباحث فى نواح من الحضارة العربية : للأستاذ أحمد مظهر العظمة (مطبوعات التمدن الاسلامى بدمشق) .

— « أطفال بلا أسر » تأليف أنا فرويد، درثى برلنجهام ؛ ترجمة محمد بدران ، رمزى يسى (دار الفكر العربى — القاهرة).

— « النوم الهادئ » حلقة من « المكتبة النفسية » تأليف ولفرد نورثفيلد ، ترجمة عبد الحميد يونس (الناشر المصرى بالقاهرة) .

— « من قصص الأولين » أقاصيص من عصر النبوة وصدر الرسالة الاسلامية ، للأساتذة على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاتة (دار الفكر العربى — القاهرة) .

— « فى السرير » قصة حقيقية وقعت حوادثها للمؤلف إبان مرض طويل مشف . أذاعها لاشاعة روح التفاؤل فى زمان يدعو فيه كل شئ إلى التشاؤم ، ألفها محمد العدنانى (مكتبة الطاهر — يافا) .

— «فلسفة الجمال» تأليف آ . ف. جاريت ترجمة عبد الحميد يونس ، رمزى يسى ، عثمان نوية (دار الفكر العربى) .

— « القضايا الاقتصادية الكبرى فى سورية ولبنان » جغرافية البلاد ، ثروة الأمة ودخلها ،الزراعة والخراج والماشية ، عرب البادية ، الانتاج الصناعى والتجارة ، وسائط النقل ،الصحة ، المصايف ، العلاقات بين كل من سوريا ولبنان (مكتبة فرحات ونجاتى — دمشق) .

— « من وراء الأفق » ديوان الشاعر المصرى محمد عبد الغنى حسن (دار المعارف بمصر) .

— « كتاب الأشربة » تأليف أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، عنى بنشره وتحقيقه الأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق (مطبعة الترقى بدمشق) .

— « أبطال الفتح الاسلامى من العرب والترك » تأليف الأستاذ محمود نصير بك عضو مجلس النواب السابق (طبعة ثانية ، مطبعة خلف — القاهرة) .

— « معجم أدباء الأطباء » (الجزء الأول) ، تأليف محمد الخليلى (مطبعة الغرى — النجف) .

— « تاريخ العصر الحاضر » تأليف الأستاذ رفيق التميمى (المكتبة العصرية — يافا) .

— « الطلائع » و « سعد قال لى » و « ما ذا فى الحجاز ؟ » كتب ثلاثة للأديب الحجازى أحمد محمد جمال ، وأولها مجموعة شعرية ، والثانى حوار قصصى ؛ والثالث تسجيل ثقافى لبعض ما فى الحجاز اليوم من ألوان النشاط الأدبى والثقافى .

— « التبرج » حديث اجتماعى للسيدة نعمت حرم الدكتور محمد رضا (مطبعة أنصار السنة المحمدية — القاهرة) .

— « علم الاجتماع الدينى » تأليف الاستاذ يوسف باسيل شلحت (منشورات مكتبة الأمنية — حلب) .

— « لورنس بطل الجزيرة » تأليف و. ف. بريدج ، وونستن تشرشل ، ترجمة محمد بدران وأحمد حلمى على (لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة) .

— « مصر والشراكسة » صفحات من تاريخ مصر الحديث — تأليف راسم رشدى (دار النيل للطباعة — القاهرة)

— « الفردوس المهجور » — قصة مصرية للأستاذ حسن رشاد السيد . (مطبعة عنانى — القاهرة)

— « لهذا الوطن » — مجموعة من شعر الوطنية من نظم عدنان الراوى (دار دجلة للطباعة والنشر — بغداد) .

— « القلب والجسد » — القصة التى فازت بالجائزة الثالثة فى مباراة وزارة الشؤون الاجتماعية للتأليف المسرحى ، لعام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ ، تأليف محمد حكمت محمد (مطبعة الاخاء — مصر) .

— « نهاية الطريق » — فصول قصصية تأليف السيد الدالى (مطبعة مكتبة مصر — القاهرة) .

— « إخوان الصفاء » — دراسة علمية للاستاذ عمر الدسوقى الاستاذ بكلية دار العلوم (مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية — القاهرة) .

— « جمال الدين الأفغانى » آراؤه وكفاحه وأثره فى نهضة الشرق ، للأستاذ قدرى حافظ طوقان (مطبعة بيت المقدس) .

محمد معين العريان

فى مجلات الشرق

من مراكش

رسالة المغرب العدد ٢ : ٦ (اكتوبر ١٩٤٧)

هذه مجلة من المغرب الأقصى ، قطعت الطريق من الرباط إلى القاهرة فى بضعة أشهر — فى عصر الطيارة — وقد كانت الرحلة بين البلدين فى عصر « سفينة نوح » لا تحتاج إلى أكثر من بضعة أسابيع ، ولكنه أسلوب من أساليب التمدين الفرنسى فى بلد لا يفصله عن مصر بحر ولا ساحل .

فى هذا العددمن مجلة « رسالة المغرب » موضوعات أدبية ، ومباحث ناضجة ، ودراسات مستوفاة ؛ فهذه الافتتاحية بقلم الأديب « ابن أكتم » عنوانها « ميثاق الأطلنطيق » ، والأطلنطيق ، أو الأطلسى ، هو الحد الغربى لمراكش . وليس يعنى الكاتب بميثاق الأطلنطيق ، تلك المبادئ الانسانية التى كان يهتف بها الطغاة منذ بضع سنين ليتحببوا إلى الأمم المستضعفة ويستجدوا رضاها وثقتها ، ولكنه يعنى ميثاقا آخر . . . فهو يصف فى لهجة بين السخط والغضب ، أو بين السخرية والفكاهة ، موقف السادة الفرنسيين من أصحاب تلك البلاد حين تقع عيونهم على مغربى فى تبانه على « بلاج » الأطلسى يحاول بعض ما يحاولون من التمتع بجو بلادهم فى موسم الاصطياف « فكأن الله ما دحاها ندية وهاجة إلا ليرتع ويتمطى فيها أبناء وبنات ماريان ؛ وما هب هذا النسيم جنوبا رخاء إلا لانعاش أرواح هذا الجنس المختار ؛ ولا لغير أذواقهم وأرواحهم تراقص الضياء فى مواكب ألوانه بين زرقة البحر وزرقة السماء ؛ ولا لغيرهم وغيرهن رق البحر وراق وزجى موجاته الفتية مهينمة فى جزرها ومدها بهمسات الأحلام ! فسبحان من جمع العالم فى واحد، ورتب له من مال الدولة ما أقفر به أمة وأقفر منه خزينة ، ثم كال له بالمكيال الأوفى من غذاء بطنه فى يوم ما حرم منه الآخرين طوال شهر ! » ويمضى الكاتب فيما يصف من نظرة السيد الفرنسى إلى المغربى الذى تسول له نفسه أن يستمتع بما يستمتع به الفرنسى من طيبات بلاده ، حتى يبلغ الغاية فيما يصف . لا يعوق القارئ عن متابعته ما يتخلل السطور من فجوات حذفتها الرقابة ووضعت موضعها طابعها ؛ أمارة أخرى من أمارات الترقية والتمدين للشعب الذى كان أبطاله ذات يوم يطأون بأقدامهم أرض فرنسا فيرعد أبطالها ويولون من وجوههم منهزمين !

وثمة مقال آخر بقلم الأديب « أبو عمر » عنوانه « حاجتنا إلى أدب حى » يختتمه بقوله :

« إننا فى حاجة إلى أدباء يعيشون فى عصرهم ويشعرون بما يشعر به معاصروهم ويطمحون لما يطمح إليه مواطنوهم : لايعيشون فى الماضى ، ولا يحيون لأنفسهم ، وإنما يتذمرون مع المتذمرين ويشكون مع

الشاكين ويغضبون مع الغاضبين ويفرحون مع الفرحين ويهدءون مع الهادئين ويطمئنون مع المطمئنين ! »

وإلى جانب هذه الفصول الأدبية القيمة طائفة من التحقيقات والمباحث العلمية تدل على نهضة تبشر بالخير ؛ فهذا بحث للأديب عبد الكبير الفاسي عنوانه « على هامش المغرب الديبلوماسي » يتحدث فيه عن وقعة تطوان في القرن الماضي وما كان لها من أثر في وضع المغرب السياسي إلى هذا العهد .

وبحث آخر للأديب المحقق « محمد الفاسي » عنوانه « العصر الموحدي الثاني » يجد القارئ تمامه في هذا العدد ، وهو يتحدث فيه عن المؤرخ المغربي عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب « المعجب » الذي نشره العلامة دوزي المستشرق الهولاندي في القرن الماضي ، فيكشف الكاتب عن نواح غامضة في حياة المؤرخ المراكشي لم يفطن لها أحد من قبله ، لا من المشارقة ولا من المستشرقين ؛ فهو بحث قيم وددت لو اجتمع لي سائر فصوله وما سبق نشره منه في الأعداد السابقة ، لولا أن الطريق . . . بين الرباط والقاهرة يحول بيني وبين الاسراف في التمني !

ويتضمن العدد مباحث أخرى ذات شأن عن كتاب قضاة قرطبة للخشني ، وعن مطويات من تراث ابن خلدون . . . إلى شعر وفصول أدبية ممتعة ! .

من لبنان

الأديب العدد ١ : ٧ (يناير ١٩٤٨)

وتستهل مجلة « الأديب » البيروتية سنتها السابعة بهذا العدد ، الذي يتضمن ، كما تعود القراء من مجلة « الأديب » ، فصولا ممتعة في الأدب والنقد والمباحث العلمية والنفسية والقصص والشعر والصور الفنية والفصول المترجمة . وفي هذا العدد مقال قيم عنوانه « هذه المدنية الرعناء » للأديب عبد اللطيف شرارة يدور حول « مؤامرة المتمدنين » على فلسطين ، وما يجب على العرب في هذا الظرف لاحباط هذه المؤامرة البربرية الرعناء ؛ فيسائل : ماذا يكون موقفنا الخاص في هذه القضية كعرب ، كأمة عربية ، من المدنية الراهنة ؟ أنكون سلبيين أم إيجابيين ؟ أنتخذ حالة وسطا بين السلب والايجاب ؟ أننبذ ما نراه طالحا ونأخذ ما نراه صالحا ؟

ثم يحاول الجواب عن أسئلته تلك دارساً كل ما يحيط بها من الاعتبارات ، ثم ينتهي إلى أن يقول :

« إذن . . . لا مناص من الجهاد ، و « الجهاد » هنا لا يفيد الدفاع عن حرمات الدين والوطن والحرية والكرامة — كما سبق لأذهان السواد — وإنما هو حاجة طبيعية للعرب في هذا الظرف لتحوير اتجاه الحضارة في العالم كله ! . . . فقد ظهرت المسافة الشاسعة التي تفصل بين المدنيتين الغربية والشرقية ، وحفرت بينهما هوة لا يسدها إلا الدم والضحايا والأشلاء ! »

« ثم يهتف في الخاتمة : « أيها العرب !

أنقذوا فلسطين تنقذوا أمريكا من نفسها وتنقذوا هذه المدنية الرعناء وتعيدوها بذلك إلى صوابها . . . »

وفى هذا العدد تقرأ بحثا ضافيا للأديب صلاح الدين المنجد عن « مسجد دمشق الكبير » موضحاً بالصور محققا بالنصوص مزوداً بالمراجع ؛ وهو بحث يهتم له كثيراً كل المشتغلين بالآثار العربية .

ويتضمن العدد إلى ذلك الحلقة الثالثة من البحث الذى يتابعه الأديب الشاعر البحرينى إبراهيم الغريض عن « منزلة الشعر بين الفنون » وهو فى هذه الحلقة يتحدث عن « العاطفة فى الشعر » فيستشهد لرأيه فى ذلك بالشواهد العدة من الشعر القديم والحديث يحللها ويصفها ويستنبط منها ما يستنبط مما يؤيد رأيه . وهو كذلك بحث طريف فيه متاع للفكر وللنفس جميعاً .

وثمة بحث آخر للأديب عيسى ميخائيل سابا عن « الأدب الجاهلى وكيف نفهمه » ينحو فيه نحواً جديداً فى محاولة فهمه، فيقول: « لكى نفهم هذا الأدب الجاهلى الذى بين أيدينا على وجهه الأتم ، لا بد لنا من أن تكون لنا مشارفات بمعرفة العقائد الدينية التى كانت منتشرة فى ملء الجزيرة من أقصاها إلى أدناها . وكذلك يجب الوقوف على عادات القوم ، وهى ما زالت فى بعض القبائل المتبدية — وهى أمور لا مندوحة عنها لمن انتدب نفسه وتجرد لشرح الأدب وتدريسه . . . »

ثم يمضى فى الاحتجاج لرأيه ذاك والاستشهاد عليه بالشواهد من الشعر الجاهلى الذى يتصل بما كان للعرب فى الجاهلية من عقائد وعادات .

ويسأل الأديب وديع فلسطين فى هذا العدد من الأديب : « كيف يكون التعاون الثقافى بين الدول العربية ؟ » لمناسبة ظهور ترجمتين فى وقت واحد فى مصر وفلسطين لكتاب اميل لودفيج عن نابليون ، إحداهما بقلم الأديب الفلسطينى الأستاذ عادل زعيتر ، والأخرى بقلم الأديب المصرى الأستاذ محمود إبراهيم الدسوق . فيرى الكاتب من ظهور هاتين الترجمتين فى وقت واحد ، أن العربية قد خسرت جهداً مضاعفا كان يمكن أن يتوزع لتستفيد العربية من مجهود مثل هذين الأديبين إنتاجاً مضاعفاً . وهو يرى لتلافى مثل هذه الخسارة أن يكون بين البلاد العربية نوع من التعاون الثقافى يوجه العاملين فى هذا الحقل الوجهة التى تكفل للعربية الانتفاع بمجهود كتابها وعلمائها ومضاعفة الانتاج الأدبى .

الطريق العددان ١١ و ١٢ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٧)

فى هذا العدد حديث واف للمهندس اللبنانى الأستاذ أنطون ثابت — صاحب المجلة — عن « فن العمار اللبنانى » يتحدث فيه عن الآثار الرائعة والمنازل الجميلة التى استمر بناؤها فى لبنان إلى أوائل القرن الحاضر .

وثمة بحث آخر للأديب راتب الحسامى عن « بيروت قبل مائة عام » يصل فيه بين ماضى هذا الميناء اللبنانى وحاضره ويصف العوامل التى تطورت به ؛ وهو بحث فيه متاع وفائدة .

وفى هذا العدد يتحدث الأديب

يوسف خورى عن شاعر فلسطين المختضر فى شبابه المرحوم إبراهيم عبدالفتاح طوقان يصف فيه تاريخه ونشأته وفنه ومعناه ويحلل طائفة من جيد شعره تحليلا طيبا ، ويصفه — ولعله لم يبعد — بأنه شاعر فلسطين !

ثم مقال آخر للأديب تحسين موسى بعنوان « مشاهدات فى مناطق الحدود التركية » يصف فيه رحلة إلى مناطق الحدود التركية، ويحاول أن يصور الشعب التركى فى تلك المناطق صورة ما ، لا أدرى مدى مبلغها من الدقة ، ولكنها على أى أحوالها تعطى القارئ فكرة ما عن بعض الطوائف التركية هذه الأيام من وجهة نظر صحيفة « تقدمية » .

وفيه إلى ذلك تعريب بقلم الأديب ى. ش لموضوع بقلم الأديب الروسى ف . لوتسكى عن « الدراسات العربية خلال ثلاثين سنة فى الاتحاد السوفياتى » وهو موضوع يحتوى على كثير من أسباب العلم بما بين السوفييت والأدب العربى من صلات قريبة .

المعهد العددان ٧ ، ٨ : ٣ (ديسمبر ١٩٤٧)

« أيها العرب ! لقد تمت الساعة ؛ فمن كان يستطيع القتال ولا يقاتل فهو جبان ! ومن كان يستطيع القتال ، ويدعو إليه ، ولا يقاتل ، فهو جبان ونذل ! ومن كان يستطيع القتال ، ويدعو إليه ، ولا يقاتل، ويعد بالشروع فى القتال ، فهو جبان ونذل ودجال ! »

بهذه الكلمات القوية يعبر الأديب على ناصر الدين عن « فكرة العدد » .

وفى كل صفحة من صفحات العدد وراء ذلك مقال أو حديث أو أبيات من الشعر تعبر عن هذه « الفكرة » تعبيراً ما . . .

وثمة مقال بليغ ممتع للأستاذ عبد الله العلايلى عنوانه : « التطور الاجتماعى فى لبنان » يصف فيه يقظة الصحو فى لبنان اليوم ، تلك اليقظة التى لم تتفتح عن كل إمكانياتها بعد والتى تمهد السبيل بين يدى تطور جديد رسمت بعضا من خطوط مداه . . .

وهو فى هذا المقال يتحدث عن الفرق بين ما يسميه الاجتماعية التعاونية والاجتماعية الاشتراكية ، فيبلغ فى توضيح ذلك مبلغا ، ويلاحظ تطورات المجتمع اللبنانى فى هذه الأيام ملاحظة تحمله على مستقبل أفضل للوضع الاجتماعى فى الجمهورية اللبنانية الناهضة .

وفى هذا العدد ينعى الأستاذ بهيج عثمان على الحكومة اللبنانية أن ممثليها فى المؤتمر الثقافى العربى الذى انعقد بلبنان منذ بضعة أشهر لم يكونوا خير اللبنانيين أدبا وثقافة ؛ وأنها لم توفق فى اختيار من اختارت ، ولا فى إغفال من أغفلت من المثقفين اللبنانيين ؛ ويرى أن يعالج ما ترك هذا الاختيار من أثر بالدعوة إلى مؤتمر يسميه « مؤتمر أدباء العرب » يحاول تحرير الأدب العربى المعاصر من الطفيليات التى تعلق به ، والبحث فى المشاكل التى تعرقل نموه وتهدد تطوره . وقد تألفت لجنة تحضيرية للدعوة إلى هذا المؤتمر فيها ممثلون للبنان وسورية والعراق ، ويرجى أن تستكمل نموها بانضمام ممثلين إليها من سائر بلاد العربية ، لتمضى فيما رسمت من برنامج حتى يلتئم هذا المؤتمر العربى الأدبى فى وقت قريب .

من سورية

المرأة العدد ٩ (ديسمبر ١٩٤٧)

لا تزال مجلة المرأة فى طليعة المجلات النسائية فى الشرق ، ولا تزال تقدم لقرائها خير ما يطلبون من المباحث فى الشئون النسوية الخاصة ، أو الشئون التى يجب أن تلم بها المرأة العربية فى هذه الأيام إلماما يصلها بالحياة ويحقق لها وجودها بين الأحياء .

وفى هذا العدد طائفة من الفصول والمباحث والشعر والقصص والصور الفنية الرائعة فيها لكل قارئة متاع ولذة ، وفيها لكل قارئ من أسباب العلم بالنهضة النسائية فى الشرق قدر يكفيه .

وفيه الحلقة الأخيرة من سلسلة « المرأة فى قافلة الحضارة » التى تكتبها السيدة نديمة المنقبادى — منشئة المجلة — وهى تتحدث فى هذه الحلقة عن « المرأة السورية فى المجتمع » فتصف فيها ما لا بد أن يعرف عن المرأة فى سوريا ، لتقول فى آخر الحديث :

« فالمرأة السورية بلغت أشدها وأصبحت تملك من الوعى القومى ومن تفهم المسئولية ما يجعلها جديرة بتحمل أعباء مقدراتها ومشاركة الرجل فى مصير البلاد ، وقد أدركت أن هذا حق صريح ، وأن كثيراً من جاراتها الشرقيات سبقتها فى هذا المضمار ، وأنها وهى تؤلف شطر الحياة تغبن إذ تجبر على التمسك بقوانين لم تنسها وتشاريع لم تدع إلى بحثها ! »

وثمة مقال آخر بديع للأستاذ عبد الرازق الهلالى عنوانه « المرأة دكتاتور ظالم » أوحاه إليه — وهو عراق — إحصاء النفوس العام فى العراق ، وانتحار شاب . . . وكانت المرأة سبب انتحاره !

وهو فى مقاله ذاك — كما يدل عليه عنوانه — يحاول أن يثبت أن المرأة ليست هى ذلك المخلوق الضعيف الرقيق المغلوب على أمره ؛ فهى علاوة على سيطرتها المادية ذات سيطرة روحية عاطفية لا يستطيع أن يفلت الرجل من سلطانها . . . فهى دكتاتور ظالم !

من العراق

المعلم الجديد العددان ٤ و ٥ (ديسمبر ١٩٤٧)

وهذه المجلة التربوية التى تشرف على إخراجها وزارة المعارف فى بغداد — لاتزال فى طليعة المجلات العربية فى الاهتمام بمباحث التربية وعلم النفس ؛ وقد تضمن هذا العدد منها طائفة من المباحث التربوية والنفسية والفصول التجريبية عن بعض المشاهدات فى معاهد التعليم المختلفة ، إلى طائفة أخرى من المباحث المترجمة فى هذين البابين وما يتصل بهما . وقد ألحقت بهذا الجزء تفصيلا وافياً عما انتهى إليه مؤتمر

الثقافة العربي الأول ومؤتمر الآثار — من مقررات ، لاتصال هذه المقررات بشئون التربية والتعليم .

ومن المباحث الخليقة بالنظر فى الجزء مقال للأستاذ حسن أحمد السلمان المفتش الاختصاصى فى وزارة المعارف العراقية ، عنوانه « التفتيش : مشاكله وأصوله » ، ومقال آخر للآنسة بهية فرج الله بعنوان « أطفالكم والطبيعة » إلى مقالات أخرى عن « تدريس الأدب فى المرحلتين الابتدائية والثانوية » و « خصائص لغة العرب » و « أهمية التصوير والتوضيح فى تدريس قواعد اللغة » .

الدليل العدد ٣ : ٢ (نوفمبر ١٩٤٧)

يكاد يكون هذا العدد من مجلة « الدليل » التى تصدر فى النجف خاصا بذكرى الامام الحسين رضى الله عنه ، لمناسبة ذكراه فى المحرم ، فثمة حديث عن « وقعة الطف » وآخر عن « استشهاد الحسين » وغيره عن « كربلاء فى التاريخ » إلى فصول أخرى .

ولكن فيه إلى ذلك فصولا أدبية ممتعة عن « البحترى شاعر الحضارة » و « الحطيئة » ، « والدواوين فى العصر العباسى الأول » ، إلى فصول مترجمة وشعر ونقد وقصص وتراجم ، وطرائف مما يجرى فى الأندية من أحاديث الأدباء ومطارحاتهم .

الجزيرة العدد ٢١ : ٥ (يناير ١٩٤٨)

ومجلة « الجزيرة » فى الموصل هى صوت « الأمناء » فى القاهرة ، فهى تسمى حادثة « الفن القصصى فى القرآن » وهى الرسالة التى تقدم بها الأستاذ محمد أحمد خلف الله إلى جامعة فؤاد الأول ، وكان من شأنها ما كان : محنة الأمناء ، وتتحدث عنها فى مقالين : أحدهما بقلم « ذو النون شهاب » بعنوان « توجيه مسيطر » والآخر بقلم « فؤاد الونداوى » وعنوانه « حرية الفكر فى محنة » .

ولكن فيها إلى ذلك فصولا أخرى ذات شأن ، فهذا بحث مستوفى بقلم صديق الدملوجى عنوانه « الياساق ، أو الياسا » وهو مجموعة القوانين التى تنسب إلى جنكيز خان ، والحلقة الثانية من سلسلة « بعض القرى الموصلية فى التاريخ » بقلم إسماعيل فرج ، إلى تعقيبات علمية وتاريخية ومباحث أدبية وشعر وقصص . وفيها فصل بقلم خيرى العمرى عن ديوان « شرق وغرب » للشاعر المصرى على محمود طه .

فى مجلات الغرب

من فرنسا (مرسيليا)

نشرت مجلة « كراسات الجنوب » *Cahiers du Sud* فى العام الماضى عددا ممتازا خاصا بالدراسات الاسلامية وبالعلاقات بين العالم الاسلامى والعالم الغربى جعلت عنوانه «الاسلام والغرب». وقد امتاز هذا العدد بميزات كثيرة تجعل منه عدداً عظيم القيمة جديرا بعناية المهتمين بالدراسات الاسلامية وبالعلاقات بين الشرق الاسلامى وأمم الغرب . من هذه الميزات أن من بين الذين ساهموا فى تحريره جماعة من أشهر المستشرقين الفرنسيين وأكبر المتخصصين فى شئون الشرق وجماعة من كبار كتابنا المصريين المعاصرين . وقد حاول المسئولون عن إصدار هذا العدد أن يضعوا به أمام القراء صورة للعالم الاسلامى ولحياته الثقافية ولما بينه وبين العالم الغربى من صلات ، وبذلوا غاية جهدهم فى أن يجعلوا هذه الصورة منظمة واضحة كل الوضوح . ونحن ننقل لك هنا عنوانات الأقسام الستة التى ينقسم إليها العدد لترى طبيعة الأبحاث التى احتوى عليها :

الباب الأول : أوضاع .

الباب الثانى : تأثيرات وتفاعلات .

الباب الثالث : آراء فى الاسلام والعالم الاسلامى .

الباب الرابع : الفنون والآداب فى الاسلام .

الباب الخامس : نصوص ومقالات إسلامية .

الباب السادس : شهادات عن الأسلام.

وقد اختلف حظ هذه الأبواب من التوفيق فبينما حفل قسم الفنون والآداب مثلا بمقالات عظيمة القيمة نرى الباب الخامس الذى يهدف إلى أن يقدم للقارىء الغربى نماذج من أدب العرب والمسلمين قد أخفق فى الوصول إلى غايته . شغل شعر التصوف فى هذا القسم مكانا أكبر جدا مما خصص لبقية فنون الشعر وشغلت بلاد المغرب فيه مكانا أكبر جداً مما شغلته بقية بلاد العالم الاسلامى . وتفسير هذا يسير فيما يظهر وهو أن المسيو إميل ديرمنجيم Emile Dermenghem محرر العدد يعيش فى بلاد المغرب ، يعاونه فى أعماله علماء وأدباء من المغاربة ، ثم هو يؤثر التصوف الاسلامى بأكثر عنايته ومجهوداته . القارئ يأسف إذن لأن النصوص التى اختيرت فى هذا القسم ليست مما يعطى القارىء الغربى فكرة شاملة دالة على طبيعة الآداب الشرقية الاسلامية بألوانها المتعددة ولا مما يبين فى صورة عادلة النشاط الفكرى لمختلف بلاد الاسلام . الشعر الاسلامى تصوره فى هذا العدد مختارات من شعر ابن الفارض فى العربية ومن شعر جلال الدين الرومى فى الفارسية ومن شعر الشاعر التركى عزيز محمود هدائى ؛ ولا شك أن شعر ابن الفارض الصوفى مثلا لا يكفى مطلقا لتمثيل الأدب العربى كله .

ننتقل الآن إلى دراسة المقالات التى

اشتملت عليها بقية الأبواب فنجد فى صدر الباب الأول مقالا للمستشرق الأستاذ لويس ماسينيون يدرس فيه « المركز الدولى للاسلام » ونحن نقف فيه أمام فكرة أغلب الظن أن القارئ العربى سيوافق عليها كل الموافقة وهى أن العالم الاسلامى إن كان اليوم لا يقاوم ما تصدر إليه أوربا من علوم تطبيقية وفنون عملية واختراعات ، فانه قادر على أن يرد عن نفسه — بما فيه من عقائد وإيمان — ما يسود أوربا من التهالك على الثقة بالعلم ومن الاغراق فى الشكوك ، وهو قادر على أن يميز ما كان من أصول الخلق الأوربى الحق وبين ما يزيفه ويروجه المستعمرون من المذاهب المغرضة .

ويلى مقال الأستاذ ماسينيون مقال للمرحوم الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ذهب فيه إلى أنه ليس فى روح الاسلام ذاتها ما يتعارض مع التفكير الغربى ، كما أنه ليس فى التفكير الغربى ذاته ما يعارض الاسلام .

ولكن هناك أحيانا تعارضا بين بعض الغربيين وبعض الشرقيين ، ولا بد أن تمحص أسباب هذا التعارض والاختلاف وهذا هو الموضوع الذى يدير عليه فرنسوا بونجان (١) المقال الذى يلى مقال المرحوم مصطفى باشا . يلاحظ فيه الكاتب أولا أن الرجل الغربى يستطيع أن يفهم أمور الشرق بأيسر مما يستطيع الشرق أن يفهم أمور الغرب ، فقد يسر المستشرقون الأوربيون دراسة الشئون الشرقية ومهدوا طريقها أمام إخوانهم الغربيين ، أما الشرقيون فانهم لا يجدون مثل هذه الدراسات المنظمة الميسرة عند الغرب ، وهم إن أرادوا أن يعرفوا عنه شيئا وجدوا أنفسهم أمام أكداس متراكمة من المعلومات والكتب لايدرون بأيها يبدأون ولا كيف منها الخلاص ، فليس فى الشرقيين مستغربون (٢) قد أنتجوا من الآثار ما ينفع مواطنيهم فى دراسة شئون الغرب .

والكاتب ينتقل بعد ذلك إلى دراسة هذا الاستغراب أو هذه العناية بشئون الغرب التى ينتجها اتصال الشرق بأوربا . يلاحظ الكاتب أولا أن هناك من الشرقيين من إذا أخذ فى الاتصال بالغرب لم يلبث أن يقتنع بآراء الغرب ويعتنق مذهبه فى الحرية مثلا . هذا الاقتناع يدفعه أولا إلى مهاجمة الغرب المستعمر ومطالبته بأن يعطى الشرق مثلما يريد لنفسه من الحرية . وهو ثانيا يريد أن يطبق هذه الحرية التى آمن بها فى الشرق ، وهذا عنده معناه التحرر ليس من قيود الاستعمار الغربى فقط ولكن من قيود التقاليد الشرقية أيضا ، ونتيجة هذه كانت تكون القضاء على التقاليد الشرقية قضاء تاما وزوال كيان الشرق ذاته ، ومن حسن الحظ — فيما يرى الكاتب — أن هناك من الشرقيين من هم أذكى من هؤلاء المستغربين المتحررين وأحرص على أن يحسنوا الفهم لتقاليد الشرق وأن يستبقوا ما كان منها صالحا جديراً بالحياة . يرى هؤلاء — فيما يقول الكاتب — أن المناظرة بين الشرق والغرب جدير بها أن تدفع الشرق إلى أن يعرف مقوماته باعتباره شرقا خالصا ، وأن يتمسك بمميزاته ويحيى تقاليده الصالحة . وهذا القسم من الشرقيين ليسوا — عند الكاتب — أنصار

---

(١) François Bonjean, *Quelques causes d'incompréhension entre l'Islam et l'Occident*

(٢) « Occidentalistes »

الشرق فقط ولكنهم أنصار الانسانية كلها . والكاتب يختم مقاله بالآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم . »

ونحن نريد أن نفرغ أولا من دراسات الكتاب الأوربيين ، ولذلك نترك الآن الدكتور محمد حسين هيكل باشا لننظر فى الدراسة القصيرة الشاملة التى كتبها الأستاذ رينيه جينون (١) عن « سيف الاسلام » يريد أن يثبت فيها لهذا التعبير معنى رمزيا غير معناه المادى ، ويذهب إلى أن هذين المعنيين الرمزى والمادى يناظران المعنيين اللذين للفظ «الجهاد» فى الحديث النبوى الشريف « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أى من الجهاد المادى إلى جهاد النفس . السيف إذن سلاح بالمعنى المادى وسلاح بالمعنى الروحى أيضا . والكاتب يقارن هذا التفسير الذى يقول به لعبارة « سيف الاسلام » بالصورة التى تقابلنا فى الميثولوجيا اليونانية لأبولون وهو يقتل التنين بسهامه ، فان التنين والسهام هنا رمزان ، وهو يقارنه أيضا بفكرة « القربان الفيدى » فى الدين الهندى القديم .

والكاتب يقول فى آخر مقاله — فى تواضع — إنه إنما جمع بقصد الملاحظات عن الموضوع ليس إلا ، وأن هذه الملاحظات تكفى — على كل حال — لتخطئة من يذهبون إلى أن « سيف الاسلام » لا يدل إلا على العنف والقوة المادية .

ويجد الذين يعنون بمقارنة الأديان فى المقال الذى يلى مقال سيف الاسلام دراسة هامة تمس المسيحية والاسلام ، وهى مقدمة المرحوم الأب ميجويل أسين بلاسيوس (٢) لكتابه عن « الشعور المسيحى فى روحية الغزالى (٣) » وتلى هذا المقال دراسة طريفة للكاتب ب. ج. تيرى (٤) عنوانها « محادثات فى مراكش » والكاتب يشير إلى المحادثات التى يقول أنها دارت فى أوائل عام ١١٦٩ فى مراكش بين رجال ثلاثة ممتازين من أعلام الاسلام وهم أبو يعقوب وابن الطفيل وابن رشد ، وهو يرى أن أحاديثهم وقراراتهم أحدثت أكبر صدمة فكرية هزت أوربا المفكرة فى ذلك الوقت ؛ وهزت أوربا المسيحية على الخصوص ، ذلك أنهم قد قصدوا إلى أن يردوا للفلسفة المقام الذى لها فى عصرها العربى الزاهر ، فى أيام العباسيين فى بغداد .

ويظهر أن موضوع الحب العذرى ونشأته باعتباره فنا من فنون الشعر الأوربى يشغل فى هذه الأيام عقول المستشرقين . فنحن نقابل فى الباب الثانى من أبواب هذا العدد من « كراسات الجنوب » مقالين

---

(١) René Guénon, *Sayful Islam*

(٢) Miguel Asin Palacios, *Contacts de la spiritualité musulmane et de la spiritualité chrétienne.*

(٣) *« La espiritualidad de Algazel y su sentido cristiano »*

(٤) P.G. Thèry

حول هذا الموضوع . أولهما لشارل سالفرانك (١) يرى فيه أن مشكلة أصول الحب العذرى فى الشعر الأوربى قد حلت حينما أثبت الكاتب ا. ر. نيكل A.R. Nykl العلاقة بين شعر العرب فى الأندلس وبين شعر التروبادور فى فرنسا ، وانتهى —مع ريبيرا Ribera وغيره من العلماء — إلى أن الشعر الأندلسى العربى كان هو أصل هذا الشعر الأوربى الذى تغنى بالحب العذرى ، بدلالة ظهور القافية — وهى من مميزات الشعر العربى الأصيلة — فى شعر التروبادور وبدلالات أخرى تلاحظ لأبنية الشعر ، ويختم سالفرانك مقاله بقوله : « فتح الحب العذرى الغرب كله ، وقد كان زهرة رقيقة أزهرت فى ربيع الأندلس النضر بعد أن نمت فى النفس العربية القديمة . »

المقال الثانى عن الحب العذرى كتبه الاستاذ هنرى بيريز(٢) وعنوانه « الشعر العربى الأندلسى وعلاقاته المحتملة بشعر التروبادور » . يمتاز هذا المقال عن سابقه الدراسة الكاتب للشعر العربى الأندلسى دراسة مفصلة على قدر ما يمكن التفصيل فى مقال محدود ؛ وهو يميز بين الشعر العربى المشرقى وبين شعر العرب فى الأندلس، ويقرر — بصدق — أن للشعر الأندلسى الاسلامى — حتى فى موضوعاته التقليدية — صفات ومميزات خاصة تفرق بينه وبين أدب العرب المشارقة . سببت ذلك مسببات كثيرة يذكر منها التأثير الاسبانى فى شعر الأندلس العربى ويورد بعض سطور من شعر ابن قزمان ليظهرنا على تأثر شعره باللغة والألفاظ الرومانية la langue romane .

ننتقل الآن إلى الباب الثالث من أبواب العدد فنجد مقالين عن التصوف الاسلامى أولهما لرينيه جينون عن « السر فى الدين الاسلامى » والثانى لماسينيون عن « اللغة العربية ، من حيث هى اللغة الدينية للاسلام» ننقل منه هذه الجملة الكبيرة الدلالة : «إذا كانت الاسرائيلية تقوم على الرجاء والأمل ، وكانت المسيحية مبنية على الاحسان والمحبة ، فان الاسلام مؤسس على الايمان . »

وفى الباب الرابع مقال قيم عنوانه « الكنيسة والمسجد » كتبه جورج مارسيه Georges Marçais درس فيه نشأة المسجد وقابل بينه وبين الكنيسة . يصف فى أول مقاله أول مسجد بنى بالمدينة ثم يمضى فى تتبع التطورات التى مرت بالمساجد حتى صارت إلى البناء الذى نعرفه اليوم . وإذا كان الكاتب يظهر فى أجزاء المقال كلها علمه ومقدرته فانه يظهر فى ختامه ما له من مشاركة فى الفن والأدب والفلسفة أيضا حين يقارن بين المسجد والكنيسة وبين الاسلام والمسيحية فيقول : « أن الكنيسة تبدو كأنها عالم غير حقيقى تحفه الأسرار يكشف الله فيه عن وجوده للمؤمن ويقرب منه ، أما المسجد فهو حمى يجمع الزاهد أفكاره فيه ولا يسعه إلا أن يحس نفسه فيه وهى تتصاغر أمام ألوهية لا يستطيع منها دنواً . »

(١) Charles Sallefranque, *Périples de l'amour en Orient et en Occident, les origines arabes de l'amour courtois.*

(٢) Henri Pérès, *La poésie arabe d'Andolousie et ses relations possibles avec la poésie des troubadours.*

المقال الذى يلى هذا مختلف فى طبيعته كل الاختلاف عن هذه الدراسة ، يخصصه الأستاذ ج. ه. بوسكيه[١] لدراسة الشريعة الاسلامية ، وقد قسم الكاتب مقاله إلى خمسة أقسام تعرض فى أولها باختصار إلى ماهية هذا القانون الاسلامى ، وانتقل فى ثانيها إلى دراسة تطبيق الشريعة فى البلاد الاسلامية قبل اتصالها بأوربا ، وفى القسم الثالث يدرس المؤلف الفقيه آثار التفكير والحياة الاقتصادية الأوربية فى بلاد ثلاثة انحسر عنها سلطان الشريعة الاسلامية وهى بلاد روسيا وتركيا وألبانيا ، وفى القسم الرابع يدرس الكاتب أحوال بلاد تطورت فيها الشريعة الاسلامية دون أن يضيع سلطانها ضياعاتاما ، وهى مصر ويوغوسلافيا والهند البريطانية وأفريقيا الشمالية الفرنسية؛ والقسم الخامس هو ختام هذا المقال يقول فيه الكاتب إن دراسة الشريعة الاسلامية وتنظيم العمل ينبغى أن تقوم على دراسة دقيقة للأحوال الاجتماعية فى البلاد الاسلامية ، لأن القانون دائما وكما هو معلوم مظهر من مظاهر حياة الجماعة التى تتوافق عليه وتخضع له .

وقد خص هذا العدد الأدب الفارسى بمقالين أحدهما للأستاذ هنرى ماسيه[٢] عن الأدب الفارسى فى الوقت الحاضر ذكر فيه الكاتب أسماء كثيرة العدد ولكنها قليلة الغناء للقارئ العادى الذى لم يتخصص فى شئون ايران ، وثانيهما للاستاذ جان هيتييه[٣] عن المأساة الدينية فى الفارسية ، وهو عرض سريع للتمثيليات الشيعية الدينية المعروفة فى إيران باسم التعزية والتى تمثل مصرع الحسين ، يقول الكاتب فى هذا المقال أن دراسة هذا الفن من فنون الشعر الفارسى تحتاج الى أن ينقطع إليها عالم من علماء الدراسات الفارسية .

وفى مقال قيم عن « الفنون المغربية » يتحدث الكاتب بيير فيلين[٤] عن فنون الاسلام ، ويقتبس فى عرض حديثه عن التصوير الاسلامى هذه الفقرة من كلام بول فاليرى ، عما يقال من منع الاسلام لتصوير الاحياء: «اننى أحب هذا المنع . إنه ينقى الفن من عبادة الأصنام ومن مجرد التقليد الساذج للطبيعة والحياة ، ينقيها من الخداع والتغرير ومن كل ما هو ليس بنقى فى الفن ولا خالص . »

نلتفت بعد هذا إلى مقالات الكتاب العرب فى هذا العدد ، فنجد فيه دراسة عن أحوال المرأة المسلمة للآنسة حليمة بن عابد H. H. Benabed وصفحتين للدكتور فراج عن « حكماء الاندلس وقسم أبقراط » وقصة مراكشية للاستاذ أحمد سفريوى تمتاز بقوة الوصف وانطلاق الخيال .

ونريد أن ننوه بمساهمة الكتاب المصريين فى هذا العدد فنذكر دراسات الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى أسباب عدم التفاهم بين أوربا والعالم الاسلامى وطرق ملافاة ذلك ، والدكتور طه حسين بك فى الاتجاهات الدينية فى الأدب المصرى الحديث ، وإلى دراسة الاستاذ توفيق الحكيم

---

(١) G. H. Bousquet, *Évolution juridique des populations musulmanes*

(٢) Henri Massé, *La littérature persane d'aunjourd'hui*

(٣) Jean Hytier, *Vie et mort de la tragédie religieuse persane*

(٤) Pierre Féline, *Arts maghrébins*

عن الأدب العربى فى ربع القرن الأخير ، وإلى القصة الرشيقة التى كتبها الأستاذ بشر فارس .

ونحن نصل الآن الى المثال الذى يختم به الأستاذ أميل درمنجم أبحاث هذا العدد الممتاز حقا. عنوان هذا المقال هو «ملاحظات عن القيم الدائمة والقيم الحالية فى الحضارة الاسلامية» ولنلخص للقارىء العربى رأى الأستاذ درمنجم فى المسلمين نذكر له أن الكاتب قد اقتبس فى مقاله الافتتاحى هذا قوله تعالى : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس . »

أمينة طه حسين

مسابقات محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية

محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية تجرى مسابقة جديدة للقصة .

شروط القصة :

١ — يجب أن يكون موضوع القصة مستمداً من البيئة العربية ، ويشترط أن تكون القصة نفسها قد كتبت خصيصاً لهذه المسابقة ، وألاتكون مترجمة أو مقتبسة أو منشورة أو مذاعة من قبل ، ولا تقبل القصص التى سبق أن دخلت مسابقتى القصة الماضيتين التى أجرتهما المحطة .

٢ — يجب أن لا تزيد القصة على أربع صفحات عادية حجم (فولسكاب) وألا تقل عن ثلاث ، هذا إذا كانت مطبوعة على الآلة الكاتبة ، أما إذا كانت مكتوبة باليد فيجب ألاتزيد على خمس صفحات(فولسكاب) وألا تقل عن أربع .

٣ — يشترط أن ترسل القصص برسم « مسابقة القصة »لتصل إلى المحطة فى موعد لا يتجاوز ٢٥ مارس (أذار) ١٩٤٨ وأن تكون مطبوعة على أربع نسخ على ألايذكر الكاتب اسمه على أى من هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة . ولا ترفض القصص المكتوبة باليد على أربع نسخ وبخط واضح .

٤ — لا تعاد القصص المرسلة إلى هذه المسابقة سواء فازت أم لم تفز .

٥ — تحتفظ المحطة بحق إذاعة ونشر القصص الفائزة دون مقابل ولا يحق لصاحبها التصرف بها قبل مضى ثلاثة أشهر على تاريخ إذاعة النتائج .

٦ — تعلن لجنة التحكيم التى ستعلن أسماء أعضائها بعد اليوم الأول من شهر شباط (فبراير) القصص الفائزة وكلمة عامة عن أعمالها وملاحظاتها فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مايو (أيار) ١٩٤٨ .

٧ — جوائز القصص الفائزة هى كما يلى :

الجائزة الأولى : أربعون جنيها فلسطينياً .

الجائزة الثانية : خمسة وعشرون جنيهاً فلسطينياً .

الجائزة الثالثة : خمسة عشر جنيها فلسطينياً .

وترسل هذه الجوائز إثر إذاعة النتائج مباشرة .

*

يسر محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية أن تعلن فيما يلى شروط مسابقة للتمثيلية وهى المسابقة الثالثة من سلسلة مسابقاتها الأدبية لهذا العام .

١ — يشترط أن يعالج موضوع التمثيلية مشاكل الجهل والفقر والمرض فى الشرق الأدنى .

٢ — يجب أن تكون مدة التمثيلية ثلاثين دقيقة وأن تكتب باللغة العربية الفصحى وبأسلوب خاص بالاذاعة .

٣ — ترسل التمثيلية مطبوعة أو مكتوبة بخط واضح على أربع نسخ برسم « مسابقة التمثيلية » لتصل إلى المحطة قبل يوم ١٥ مارس (أيار) . ويشترط ألايكتب المرسل اسمه على أى من هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه كاملين على ورقة منفصلة .

٤ — التمثيليات الفائزة بالجوائز ملك للاذاعة يحق لها أن تمثلها وتذيعها كما تشاء ولا يحق لأصحابها التصرف بها من حيث نشرها أو إذاعتها أو بيعها إلى محطة إذاعة أخرى . وتبقى هذه التمثيليات ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ أول مرة تذاع فيها ، وتستشار المحطة بعد ذلك إذا شاء المؤلفون التصرف بها .

٥ — تعلن نتيجة المسابقة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٥ يونيو (حزيران) ١٩٤٨ .

٦ — جوائز التمثيليات الفائزة هى كما يلى :

الجائزة الأولى : خمسون جنيهاً فلسطينياً .

الجائزة الثانية : ثلاثون جنيهاً فلسطينياً .

الجائزة الثالثة : عشرون جنيهاً فلسطينياً .

وترسل هذه الجوائز إثر إذاعة النتيجة .

أصدرت دار الكاتب المصرى بإشراف الدكتور طه حسين بك

مدونة چوستنيان فى الفقه الرومانى

INSTITUTES DE JUSTINIEN

نقله إلى اللغة العربية معالى عبد العزيز فهمى باشا

٢٨+٤٠٩ صفحة — ثمن النسخة المجلدة ١٥٠

العقيدة والشريعة فى الاسلام

للمستشرق الكبير اجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، عبد العزيز عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر، على حسن عبد القادر دكتور فى العلوم الاسلامية، مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

١٦+٣٨٨ صفحة — الثمن ٨٥

كتاب البخلاء للجاحظ

حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى مدرس الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

٥١+٤٦٨ صفحة — الثمن ١٠٠

قطوف لعبد العزيز البشرى

مع مقدمة لطه حسين

الجزء الأول ١٦+١٩٦ صفحة، الجزء الثانى ٨+١٩٦ صفحة — ثمن الجزء ٢٠

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

٩٦ صفحة — الثمن ٢٥

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط

تأليف الأستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

٨+٢٦٦ صفحة — الثمن ٥٠

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية